سلسلة الأعمال المجهولة

جمال الدين الأفغاني

تحقيق وتقديم الدكتور علي شلش



RIAD EL-RAYYES BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر
4, Sloane Street, London SW1X9LA

جَمال الدّين الأفغاني

THE UNKNOWN WORKS OF:

JAMAL ELDINE AL-AFGHANI

COMPILED AND EDITED

BY

DR. ALI SHALASH

First Published in Great Britain in 1987

4 Sloane Street, London SW1X 9LA

British Library Cataloguing in Publication Data

Afghani, Jamal al-Din
The Unknown works of Jamal al-Din Al-Afghani
1. Islam and Politics Middle East
2. Middle East Politics and government
I. Title II. Shalash, Ali
297'.1977'0956 BP173.7
ISBN 1—869844—71—8

Photosetting by: Riad El-Rayyes Books Ltd, London
Printed & Bound in Great Britain By: Biddles Ltd., Guildford & King's Lynn

محتويات الكتاب

مقدمة

في تراثنا الحديث شخصيتان متلازمتان ، لا تذكر إحداهما دون أن تذكر الأخرى ، وتحظيان في الوقت نفسه بشعبية كبيرة واحترام أكبر ، وهما شخصيتا جمال الدين الأفغاني ، وتلميذه وصديقه محمد عبده . ومن هذه الشعبية وذلك الاحترام انطلقت معظم الكتابات والدراسات العربية التي تناولت الرجلين ، وكان عائدها مزيدا من الشعبية والاحترام . ولا غبار على هذا ، ففي الرجلين جوانب متعددة ومضيئة ، وحياتهما وأعمالهما وكتاباتهما تستحق الكثير من الدرس والاحترام . ولكن الغبار على الكسل الطويل من جانب أصحاب هذه الكتابات والدراسات في حصر كتابات الرجلين ، والاقتصار على المشهور والمتواتر من تراثهما ، والتواني عن فصل الاشتباك بين نصيب الأفغاني ونصيب محمد عبده في تراثهما الكثير المشترك ، أو المنسوب خطأ لأحدهما دون الآخر ، وإهمال وضع ببليوجرافيا شاملة لكتابات الرجلين المنشورة أو غير المنشورة . وهذا كله دليل نقص فادح وتقصير واضح ، ترتب عليهما أن دراسة حياة الأفغاني ومحمد عبده وتراثهما ، لم توفق حتى الآن في تقديم صورة عربية دقيقة شاملة للرجلين تتساوى في غزارة المادة والمصادر مع الصورة التي رسمها لهما المستشرقون ، ولا سيما في السنوات العشرين الأخيرة .

وتراث الأفغاني وتلميذه الذي نقصده هنا هو كل ما خطه قلماهما أو تحدثا به ، ابتداء من المقالات والخطابات والكتب الى الأحاديث الشفوية في المجالس ، والمقابلات الصحفية ، فضلا عن الذكريات الشخصية التي سجلها عنهما تلاميذهما أو معارفهما . واذا كان هذا هو معنى التراث لشخص أو أكثر ، فإنه يثير مصاعب ومشكلات بالنسبة لجمع تراث الأفغاني ومحمد عبده بوجه خاص . وسبب ذلك أن الرجلين ساحا في كثير من أرجاء الأرض ، وكتبا في بلدان عدة ، وكانت لهما أحاديث كثيرة في المجالس والصحف ، وتبادلا الخطابات مع كثيرين من الأصدقاء والمعارف من الشرقيين والغربيين على السواء . بل إن الافغاني ـ بصفة خاصة ـ كان يكتب بالعربية والفارسية ، ويملي بإحداهما ، فَينْقُلُ ما يمليه ، وينشر بالفرنسية أو الانجليزية ، وكانت له أحاديث كثيرة في

مجالسه بكل مكان ذهب اليه . وكل هذه ، وغيرها ، عناصر لتراث الرجلين . ومن هنا تنشأ المصاعب والمشكلات . فلابد لمن يتعرض لجمع هذا التراث أن يلم بهذه اللغات الأربع على الأقل ، وأن يتنقل بين المكتبات العامة في أوربا ومصر والهند وايران . وهذا ما فعله المستشرقون ، ولم نفعله نحن حتى الآن في العربية على الأقل ، بالنسبة للأفغاني على وجه التحديد . ومع ذلك تمت بعض المحاولات في هذا السبيل خلال القرن الحالي نتوقف عندها واحدة بعد الأخرى .

جهود رشيد رضا

كان الشيخ محمد رشيد رضا أول من سعى الى جمع تراث الأفغاني ومحمد عبده . وانطلق في هذا المسعى من إعجابه الشخصى البالغ بالأفغاني الذي لم يره ، ومصاحبته لمحمد عبده في سنينه الأخيرة بمصر . وحَمَّسَ رضا وساعده على ذلك أنه أسس في القاهرة - بعد هجرته من لبنان - مجلته المعروفة « المنار » التي استمرت في الصدور نحو ٣٥ سنة (١٨٩٨ - ١٩٣٣) وبدأ منذ سنواتها الأولى في نشر ما كانت تقع عليه يداه من كتابات الأفغاني ، وكذلك ماكان يرويه له محمد عبده . ولما مات الأخير سنة ١٩٠٥ شرع تلميذه رضا في نشر تراثه أيضا ، ثم جمعه في كتاب ضخم بعنوان « تاريخ الأستاذ الامام » ظهر سنة ١٩٣١ . وفي هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة سجل رضا كل ما وصل الى يديه من معلومات عن الرجلين . وأصبح الكتاب منذ صدوره المرجع الأساسي في العربية لكل من يريد دراسة حياة الرجلين وتراثهما . ولكن رضا لم يضم الى هذا الكتاب الضخم كل ما سبق أن نشره في « المنار » من مقالات الأفغاني [1]. واكتفى بمقالتين فقط [2] مما نشرته للأفغاني مجلة « ضياء الخافقين » التي صدرت في لندن شهرية بالعربية في الفترة من فبراير الى يوليو ١٨٩٢ . وكان الأفغاني قد نشر بها سبع مقالات . كما اكتفى - من جهة أخرى - ببعض مقالات جريدة « العروة الوثقى » ناسبا إيَّاها لمحمد عبده . وكان رضا قد نسخ أعداد هذه الجريدة الثمانية عشرة بخط يده في كراسات ، وأعاد نشر مقالاتها الرئيسية في « المنار » ، ثم عهد بالكراسات كلها - فيما يبدو - للناشر محمد جمال صاحب المكتبة الأهلية في بيروت الذي قام سنة ١٩٢٧ بنشرها في القاهرة في مجلد واحد ، مع تقديم للشيخ مصطفى عبد الرازق تناول فيه حياة الأفغاني ومحمد عبده ، ثم أعاد نشرها في بيروت سنة ١٩٣٣ . ومع ذلك كانت أعداد الجريدة كلها قد ظهرت مجموعة من قبل في بيروت ايضا سنة ١٩١٠ ؛ حين طبعتها في قطع صغير مطبعة التوفيق لنسيم صبرا .

وبالرغم من هذا المسعى الحميد الذي قام به رشيد رضا لجمع تراث الأفغاني وعبده ، وحفظه من الضياع ، فقد واجهته بعض المصاعب التي لم

يستطع التغلب عليها . وأهم هذه المصاعب التي اتضحت في جمعه لتراث الأفغاني ومحمد عبده اثنتان :

١ـ لم يكن يتحرى الدقة في متابعة جمعه لهذا التراث . والدليل على ذلك أنه لم يجمع منه الكثير ، وأنه كان يكتفي بما يصل الى يديه دون تحقيق ، أو استكمال عن طريق الرجوع الى مجموعات الصحف ، وكانت متوفرة في المكتبة السلطانية ، أو « دار الكتب » المصرية في ذلك الوقت على الأقل . ومن امثلة ذلك الكسل ـ إذا صح التعبير ـ قوله في نهاية الجزء الاول من مقال « الحكومة الاستبدادية » الذي نشره الأفغاني بصحيفة « مصر » :

« ظفرنا بهذه المقالة في صحيفة عاث فيها العث (الأرضة) فذهب بكلمات قليلة منها لم تخل بالمعنى ، وإن نقصت بعض الفائدة . فمنها ما تركنا له بياضا ليكتب فيه الساقط من يظفر به من القراء ، ومنها ما وضعنا له كلمة يدل عليها المعنى ككلمة (صِرّة) قبل لفظ الشتاء » [٣]

٢ـ لم يكن من النوع الذي يُغلي العِلْم على الصداقة ، فيما يتعلق بتراث الرجلين اللذين اعجب بهما ، وصادق أحدهما (محمد عبده) . فحين أراد نشر رسالة كان قد بعث بأصلها محمد عبده إلى الأفغاني اضطر الى حذف الكثير منها وقدمها بقوله :

« ومن كتاب له الى السيد جمال الدين عقب النفي من مصر الى بيروت ، وهو اغرب كتبه ، بل هو الشاذ فيما يصف به استاذه السيد ، مما يشبه كلام صوفية الحقائق والقائلين بوحدة الوجود التي كان ينكرها عليهم بالمعنى المشهور عنهم ، وفيه من الإغراق والغلو في السيد ما يستغرب صدوره عنه ، وإن كان من قبيل الشعريات ، وكذا ما يصف به نفسه بالتَّبَع لأستاذه من الدعوى التي لم تعهد منه البتة » [٤]

ونتيجة لهذا ، حذف رضا مقدمة الرسالة ، وكثيرا من عباراتها ، ووضع علامات مكان ما حذفه منها ، مع الاشارة الى ذلك أحيانا في الهوامش ، أو الرمز لبعض الأسماء بالحروف الأولى ، إذا كان السياق يسيء إلى حقيقتها[٥] ، ولكنه ـ في الوقت ذاته ـ خالف قواعد العلم بهذا الحذف والرمز .

ومع ذلك كان رشيد رضا في مواجهته لهاتين الصعوبتين رجلا أمينا ، لم يصحح أو يحذف شيئا دون إشارة أو تنويه . ولولاه لضاعت المقالات العشر التي أعاد نشرها للأفغاني ، ولا سيما ما نقله عن جريدة « مصر » التي أصدرها سليم نقاش وحررها أديب اسحق في الاسكندرية في الفترة من ١٨٧٧ الى ١٨٧٩ . فلم يعد محفوظا بدار الكتب المصرية من هذه الجريدة سوى مجلد واحد يضم أعداد السنتين الأخيرتين . بل إن هذه الأعداد نفسها لم تعد كاملة ولا بحالة جيدة . ولولاه أيضا لتناثر الكثير من كتابات محمد عبده وتراثه . فقد

استطاع ـ على الاقل ـ أن يسجل معظمه ، وما دار حوله من ملابسات في كتابه الضخم الذي سبقت الاشارة اليه ، بالرغم من تدخله المعيب في النص .

لم يحدث أن تكررت محاولة رشيد رضا بعد ذلك ، أو تطورت فيما يتعلق بالأفغاني بصفة خاصة . بل لم يحدث أن جمعت المقالات ذاتها التي أعاد هو نشرها بمجلته[٦] . وكانت المحاولات التالية جميعها قاصرة وغير كاملة بوجه عام ، فضلا عن غياب التحقيق العلمي منها .

عندما ظهر المجلد الذي ضم أعداد « العروة الوثقى » سنة ١٩١٠ لم يظهر معه اي تحقيق للمنسوب من موادها الى الأفغاني والمنسوب إلى محمد عبده . وقد كان رأس الصحيفة يحمل جهة اليمين عبارة « مدير السياسة : جمال الدين الحسيني الأفغاني » ويحمل جهة اليسار عبارة « المحرر الأول : الشيخ محمد عبده » وجاء في مسودة رسالة بعث بها الأفغاني الى أحد أصدقائه في إيران ـ مما كشفت عنه أوراقه التي نشرتها جامعة طهران سنة ١٩٦٣ ـ قوله عن العدد الأول : « إن أسلوب العروة الوثقى كما في هذا العدد يشرف عليه صاحب السعادة الشيخ محمد عبده » وفسرت الباحثة الايرانية التي اقتبست هذا القول كلمة « اسلوب » الفارسية بأنها تعني « التحرير » و « الصياغة »[٧] ، اي ان المعنى هو نفسه ما جاء في تعريف وظيفة محمد عبده على رأس الصحيفة . وليس معنى هذا ان محمد عبده لم يكن له دور أكثر من الصياغة ، ووضع الموضوعات في صورتها العربية اللائقة ، وإنما معناه أنه كان يشارك في التحرير بالطبع ، مثلما كان يشارك الأفغاني نفسه سواء بسواء . فقد جاء في مسودة مذكرة مطولة كتبها الصحفي المصري ابراهيم المويلحي (١٨٤٦ ـ ١٩٠٦) لتقديمها إلى السلطان عبد الحميد أن المويلحي اتصل بعد خروجه من مصر ـ على أثر خروج الخديو اسماعيل سنة ١٨٧٩ ـ بالأفغاني في باريس . فقد قال : « وفي أثناء إقامتي في ليقورنه (ليفورنو المدينة الايطالية) حضر السيد جمال الدين من الهند إلى باريس . وبما بيني وبينه من الصداقة أيام كان في مصر حصلت المكاتبة بيننا ، فاتفقنا على نشر جريدة « العروة الوثقى » فنشرها السيد جمال الدين في باريس يدافع فيها عن حقوق الدولة (العلية) والملة[٨] » واضاف المويلحي في مسودة مذكرة أخرى مختصرة قوله : « وإني أعلم يقينا أن حياة الاسلام هي حياة الدولة العلية . وقد كتبت بنودا كثيرة في العروة الوثقى من هذا الباب[٩] »

وهاتان الاشارتان للمويلحي اللتان وردتا في أوراق الأفغاني نفسه تؤكدان ما سبق ان ذكره فيليب دي طرازي على سبيل الأقاويل ، حين قال : « ويقال إن ابراهيم بك المويلحي نشر على صفحاتها شيئا من نفثات قلمه »[١٠] ومعنى ذلك أيضا أن تحرير « العروة الوثقى » لم يكن قاصرا على محمد عبده ، ولا الأفغاني . ومع أن التوقيع الوحيد الذي ظهر في الصحيفة كان لمولوي عبد

الغفور شهباز من كلكتا على مقال قصير حول وظيفة الأدب[١١] ، فقد كان العاملون فيها ينكرون ذواتهم ، ويضحون بأسمائهم في سبيل رسالتها . ومع ذلك ، فمن المعقول أن نعد المقالات التي تبدأ بآيات قرآنية فيها من فكر الأفغاني . أما ماعدا ذلك فمشاع بين عبده والمويلحى وآخرين لم تعرف أسماؤهم حتى الآن . فقد كان يتردد على الأفغاني وعبده وقتها كثيرون من بينهم يعقوب صنوع وخليل غانم (محرر « البصير ») وميرزا باقر وانيس شاهدي . وليس من السهل أن ننسب الأخبار السياسية الأوربية للأفغاني أو عبده ، فهذه كانت تحتاج الى معرفة بالفرنسية والانجليزية ودراية بالترجمة . وربما ساعد أحد ممن ذكرنا في الترجمة . وإذا كانت المسئولية القانونية عن الصحف في فرنسا تقع على المحرر أو رئيس التحرير ، فمن باب أولى أن تنسب مواد الجريدة الى محمد عبده . ولكننا نميل إلى نسبة الجريدة للأفغاني بصفته صاحب فكرتها ، والمخطط لها والمشرف عليها سياسيا . وقد كانت جريدة سياسية بالدرجة الأولى ، ومقالاتها الرئيسية الطويلة تحمل فكر الأفغاني وبعض تعبيراته ، وليس في هذا ما يغض من قيمة المويلحى ، أو سواه ، ممن تعاونوا في تحريرها . بل لا يغض من قيمة ميرزا باقر ، الذي كشفت الوثائق الأخيرة أن صلته بالجريدة بدأت بعد العدد الحادي عشر .

وفي سنة ١٩٣١ ظهر في القاهرة كتاب « تاريخ الأستاذ الامام محمد عبده » لرشيد رضا . كما ظهر في بيروت كتاب « خاطرات جمال الدين الحسيني الأفغاني » وفي هذا الكتاب الأخير سجل واضعه محمد المخزومي بعض ما سمعه من الأفغاني في سنواته الأخيرة باستنبول ، او الآستانة عاصمة الخلافة العثمانية . ولكنه ضم إلى ذلك بعض مقالات الافغاني في « العروة الوثقى » فخلط بين المسموع والمنشور . ومع هذا يعد الكتاب جزءا مهما من تراث الأفغاني ، لأنه جمع آراء كثيرة متفرقة حول العديد من الأمور في ماضى الرجل وحاضره عند ذاك . ولكن هذه الآراء ذاتها مرتبطة في الحقيقة بمناسبات وأسيقة معينة ، ليس من السهل عزلها عنها .

وبهذين الكتابين تجمع امام قارىء العربية قسط لا بأس به من تراث الرجلين ، ولكن هذا القسط كان مشجعا لصدور عدد آخر من محاولات جمع ذلك التراث ، وإن سيطر عليها الطابع التجاري الذي لا يعرف التدقيق ولا التحقيق ، ومنها كتيب بعنوان « الوحدة الاسلامية والوحدة والسيادة » ، قدمه الشيخ مصطفى عبد الرازق ، وصدر سنة ١٩٣٨ ، ولكنه لم يزد على نقل نص مقالتين للأفغاني في « العروة الوثقى » ، ومنها أيضا كتيب آخر بدون تاريخ نشر بعنوان « القضاء والقدر واصول العقائد الاسلامية وأمهات المسائل التوحيدية » ، وضم مقالاً واحداً للأفغاني من « العروة الوثقى » ايضا . وفي أواخر الخمسينات او أوائل الستينات أصدر محمود أبورية كتابا بعنوان

« صيحة جمال الدين » دون تاريخ للنشر (القاهرة) جمع فيه ما استطاع ان يقع عليه من آثار الأفغاني ، دون خطة معينة او منهج علمي ، ومع ذلك لم يرجع إلى كل ما اعاد نشره رشيد رضا في « المنار » من قبل ، واكتفى بالمشهور والمتواتر من كتابات الافغاني .

جهود محمد عمارة

في سنة ١٩٦٨ أصدر الدكتور محمد عمارة ما سماه « الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني» ، في مجلد واحد ، بالقاهرة . وكان مما ذكره في تقديمه :

« فإذا كانت الظروف ، واذا كانت قدراتنا الحالية قد اتاحت لنا حصر الآثار التي انتجها الأفغاني في مصر ، وتركيا ، وايران ، والهند ، وباريس ، والأفغان ، فإننا لا نزال بحاجة الى استقصاء بعض الفصول والمقالات التي كتبها الأفغاني في صحافة روسيا القيصرية عن السياسة الدولية ، عندما زارها في سنة ١٨٩٥ ، وكذلك مقالات له في السياسة الدولية كتبها بالصحافة الانجليزية عندما زار لندن ، ورفض عرض الانجليز أن يتوجوه سلطانا على السودان »[١٢]

غير أن هذه الفقرة التي توحي باننا امام عمل موضوعي علمي لا تلبث ان تكشف بعد قراءة المجلد عن خواء مضمونها . فليس ثمة حصر لآثار الأفغاني في البلاد التي ذكرها الباحث على الاطلاق . فاذا غضضنا النظر عما نسبه الباحث للأفغاني من آثار في تركيا وافغانستان ، مما لا يزيد على خطبتين وبعض الأحاديث الشفوية والصحفية في الأولى ، ثم لا شيء في الأخرى سوى بعض الخطابات والشكاوي التي كشفت عنها الوثائق الايرانية ، لم يصل الباحث إلى مقالات الرجل في مصر والهند وباريس على وجه الحصر كما قال . ولم يتجاوز المشهور منها ، مثل الدرسين اللذين أملاهما الأفغاني على تلميذه محمد عبده حول التربية والصناعة ، ورسالته في الرد على الدهريين ، ومقالاته في « العروة الوثقى » ، ورده المبتور على رينان الذي نقله عن احمد امين . وكان الأخير قد نشره في ربع مساحته الاصلية ، وحذف منه كل ما يمس الاسلام . بل إن الباحث اسقط الكتيب الذي تركه الافغاني بمصر بعنوان « تتمة البيان في تاريخ الافغان » وكانت حجته في ذلك ان « نشره لا يفيدنا في شيء ، لانه حديث موجز عن تاريخ الأفغان ... وهو لا يفيد سوى الباحث المتخصص في تاريخ هذه البلاد »[١٣]

وليس من الموضوعي في تحقيق التراث وجمعه أن نسقط شيئا بدعوى انه لا يفيد . وليست مهمة جامع التراث ومحققه ان يُنَصِّب نفسه حكماً إلا في مجال دراسة هذا التراث ، ولا أن يصادر عملا بحجة أنه لا يفيد سوى المتخصصين ،

فضلا عن أن الكتاب الذي أسقطه ليس « حديثا موجزاً » ، فهو يقع في ١٨٥ صفحة !

ولهذا السبب ، وللأسباب الأخرى السابقة ، لم يكن ذلك المجلد الكبير أعمالاً كاملة للأفغاني بأي معنى من المعاني . ومع ذلك نجح الدكتور عمارة في تحقيق كتابات الأفغاني في « العروة الوثقى » ، وفض الاشتباك بين فكر الأفغاني وقلم تلميذه محمد عبده .

ثم عاد عمارة فنشر طبعة جديدة ، مزيدة ومنقحة في جزأين كبيرين من هذه الأعمال « غير الكاملة » في بيروت سنة ١٩٧٩ . وفي الجزء الأول من هذه الطبعة أضاف بعض التحقيقات البالغة الأهمية في دراسة فترة اقامة الأفغاني بمصر وفرنسا . فقد أعاد للأفغاني نسبة بعض الأعمال التي سبق أن نسبت خطأ لتلميذه محمد عبده ، وهي :

١- التعليقات على شرح الدواني للعقائد العضدية . وهو كتاب كبير قام الأفغاني بتدريسه في مصر ، وموضوعه الالهيات وفلسفة العقيدة .

٢- بعض مقالات « العروة الوثقى »

٣- رسالة الواردات في سر التجليات . وهو كتيب في الفلسفة والتصوف أملاه الأفغاني على محمد عبده أثناء وجوده بمصر (١٨٧١ - ١٨٧٩)

٤- مقال « العلم وتأثيره في الارادة والاختيار » الذي نشر بغير توقيع في صحيفة « الوقائع المصرية » سنة ١٨٨١ أثناء تولى محمد عبده تحريرها ، ثم أعاد رضا نشره منسوبا لمحمد عبده .

٥- مقال « المسألة الهندية » الذي نشر في صحيفة « الأهرام » بغير توقيع سنة ١٨٨٥ ثم نسبه رشيد رضا لمحمد عبده .

بالرغم من الاجتهاد المقنع والجهد الكبير اللذين بذلهما المحقق في عمله هذا فقد ترك الجزء الثاني من هذه الطبعة دون إضافة الكتيب الذي سبق أن أسقطه ، أو الكتابات التي توصل إليها رشيد رضا في « المنار » ، على الأقل . وبذلك يظل الجزآن اللذان ضمتهما هذه الطبعة من « الأعمال غير الكاملة » للأفغاني بكل المقاييس ، أو من « الأعمال الناقصة » بمعنى أدق . فقد قام الباحثون المعاصرون من المستشرقين بإحصاء كتابات الأفغاني المنشورة وغير المنشورة في جميع اللغات المتاحة . ووفقوا إلى حد كبير في ذلك باستثناء كتاباته في مصر . فلم يستطع أحد حتى الآن أن يقوم بإحصاء دقيق في هذا المجال .

ويبدو ـ كما تبين لي ـ أن العقبة الوحيدة أمام ذلك الاحصاء الدقيق هي اختفاء مجلدات كثيرة من الصحف الأربع التي كان الأفغاني على صلة بها . (مصر ، التجارة، مرآة الشرق، أبو نظاة») فبالرغم من وجود هذه الصحف بفهرس الدوريات بدار الكتب المصرية ، لم يكن من الممكن أن أطلع على كل مجلداتها ، بدعوى أنها « غير موجودة » . ولكن ربما توجد نسخ منها ـ على أي حال ـ بمكتبة بيروت الوطنية ، فهي غير موجودة أيضا ـ باستثناء « أبو نظارة » ـ في مكتبات لندن وباريس العامة والجامعية . ومع ذلك فقد خرجت من محاولتي الشاقة بدار الكتب المصرية بثماني مقالات في صحف « مصر » و « التجارة » و « أبو نظارة » . وقد وجدت مقالة واحدة بالصحيفة الأخيرة في بعض اعدادها على ميكروفيلم بجامعة لندن .

جهود المستشرقين

كان أهم عمل احصائي بيبليوجرافي قام به المستشرقون في هذا المجال هو « البيبليوجرافيا المشروحة للسيد جمال الدين الافغاني » وقد اعدها المستشرق الأميركي الجنسية الايراني الأصل عبد الله قدسي زاده الأستاذ بجامعة ماجيل في كندا ، ونشرها في ليدن بهولندا سنة ١٩٧٠ في ١١٨ صفحة من القطع المتوسط[١٤] . وفي هذه البيبليوجرافيا الشاملة المهمة التي لا يهمنا منها سوى كتابات الأفغاني ، لا ما كتب عنه ، أورد الباحث عددا من المواد التي لم تنشر بالعربية والفارسية ، مثل قطعة بعنوان « باب ما يؤول إليه أمر المسلمين » ضمها مجلد الوثائق الايرانية . ويبدو انه نص نقله الأفغاني من أحد الكتب القديمة ، وكذلك بعض الملاحظات ـ بالعربية ـ عن مؤتمر عقده بعض الشرقيين بمدينة ليفورنو الايطالية في ديسمبر ١٨٨٣ ، وجاءت الملاحظات بعنوان « مكيدة الشرقيين » ، فضلا عن ملخص بالعربية لتاريخ افغانستان وسياستها من كتاب تاليف جان مولان ، يبدو أنه استعان به في كتيبه « تتمة البيان في تاريخ الأفغان » ، بالاضافة إلى عدد من النبذ والمقالات القصيرة والتعليقات بالعربية والفارسية ، في موضوعات فلسفية ودينية وسياسية . كما أورد الباحث بعد ذلك قائمة بأعمال الأفغاني المنشورة ، ومنها رسالة في « الرد على المسيحيين » روى أن عبد الرشيد ابراهيم الروسي المسلم أخذها من الأفغاني في الآستانة ، وطبعها في صوفيا ببلغاريا ، حوالي سنة ١٨٩٥ . ومع ذلك لم يظهر ذلك النص المطبوع ، ولا أشار اليه أحد سوى طابعه .

بالرغم من جهد الباحث في الجمع والاستقصاء فقد وقع في بعض الأخطاء والمشكلات نشير اليها هنا بترتيب ورودها :

١ـ تحت باب « مقالات ورسائل وأحاديث » أورد مقالا بعنوان « الأفغاني

يكتب عن الانجليز » وقد نشر بمجلة « النحلة » العربية اللندنية في ١٥ ديسمبر ١٨٧٨ . والحقيقة أن المقال ملخص لمقال « البيان في الانجليز والأفغان » الذي نشره الأفغاني بصحيفة « مصر » في سبتمبر ١٨٧٨ ثم ترجم بأكمله الى الانجليزية ، ونشرته صحيفة Homeward Mail اللندنية على يد بادجر الانجليزي واضع القاموس الضخم المعروف للانجليزية والعربية . وقد قام بادجر نفسه بتلخيص المقال لمجلة (النحلة) التي كان محررها لويس صابونجي صديقا له ، بعد أن نشره كاملا في الصحيفة السابقة في نوفمبر ١٨٧٨ .

٢ـ أورد مادة « البـابيـة » التي ضمتها دائرة معارف بطرس البستاني سنة ١٨٨٤ . والحقيقة أيضا أن كاتبها هو البستاني نفسه ، الذي رجع فيها الى معلومـات الأفغـاني عن البابية ـ كما اعترف هو بذلك ـ وربما رجع الى آخرين . ومن الصعب نسبتها الى الأفغاني .

٣ـ أورد مقـالا بعنـوان « كتـابـان سياسيان » نقلا عن « المنار » في ٤ يناير ١٩٠٨ ، والصواب أن الكتابين هما نفسهما مقالا « بلاد فارس » و « ظلامة الأمة وضراعة الملة » اللذان نقلهما رضا بالعنوان الأول عن مجلة « ضياء الخافقين » ، حيث نشرهما الأفغاني في مارس وابريل ـ على التوالي ـ سنة ١٨٩٢ .

٤ـ أورد مقـالًا بعنـوان « التقسيم أصل الفساد » نشرته « النحلة » في أول فبـرايـر ١٨٧٩ . والحقيقة أن هذا المقال ليس للأفغاني . فقد ذكر محرر « النحلة » انه لمكاتب المجلة في الشام ، وربما كان صابونجي نفسه هو كاتبه . ولكنه يخلو من أي دليل يرشحه للنسبة إلى الأفغاني .

٥ـ يمكن أن نضيف إلى قائمة مقالات الأفغاني مقالا عثرنا عليه في جريدة « أبو نظارة » بعنـوان « مخـاطبة بين الهرة والانسان » وكان صنوع قد نشره بصحيفتـه في القـاهـرة ، فلما هاجر إلى فرنسا أعاد نشره في ٢١ اكتوبر ١٨٨٩ . ولم يرد ذكر هذا المقال أو « المحاورة » في أي قائمة سابقة لكتابات الأفغاني . وكذلك نضيف بعض التعقيبات التي نشرها الأفغاني بجريدة «مصر»، سنتي ١٨٧٨، ١٨٧٩، حول قضايا الانجليز والأفغان ومصر.

هذه المـلاحـظات لا تغض من قيمة الببليوجرافيا في النهاية التي أعدها الباحث لأعمال الأفغاني . أما حصيلة هذه الببليوجرافيا في النهاية فتؤكد أن ما جمـع بالعربية من أعمال الأفغاني قليل جدا بالقياس الى الكثير الذي لم

يجمعه عمارة والسابقون عليه ، وأن ما نشر للأفغاني بالفارسية ـ عدا الرد على الدهريين ـ والفرنسية والانجليزية والألمانية والفرنسية والروسية والتركية لم يصل إلى العربية كاملاً بعد ، وهذ كله لم يتوصل اليه الدكتور عمارة في أعماله الناقصة .

غير أن هناك جانبا مهما في كتابات الأفغاني لم يدرجه قدسي زاده وسواه ممن اعدوا قوائم بهذه الكتابات ، وهو جانب الرسائل والخطابات . فقد كان الرجل حريصا على الكتابة لأصدقائه أو معارفه ، وكان من ناحية أخرى حريصا على الاحتفاظ بمسودات الخطابات التي يكتبها . وقد تعلم منه محمد عبده هذا الحرص الأخير فيما يبدو . وقد ضم المجلد الذي نشرته جامعة طهران من أوراقه سنة ١٩٦٣ عددا كبيرا من مسودات رسائله الى معارفه واصدقائه . كما ضم كتاب « جوردون في الخرطوم » الذي ألفه المستشرق الانجليزي ويلفرد بلنت ، ونشره في لندن سنة ١٩١١ اربعة خطابات ، أحدها كتبه الأفغاني بالعربية في الأصل ، قبل أن يترجمه بلنت ، والثلاثة الأخرى كتبها الأفغاني بالفرنسية عن طريق احد أعوانه في باريس خلال سنتي ١٨٨٤ ، ١٨٨٥ ، واحتفظ بها بلنت في أصلها الفرنسي[١٥] . وهناك خطاب آخر بالفارسية كتبه الأفغاني لأحد أصدقائه الايرانيين في مصر . وقد ترجمه الى العربية صديق له ونشره في مجلة « المقتطف » سنة ١٩٢٥ [١٦] ، فضلا عن خطاب آخر بالفارسية لأحد أصدقائه في ايران نقل معظمه المستشرق الانجليزي ادوارد براون في كتابه « الثورة الايرانية » الذي أصدره في لندن سنة ١٩١٠ [١٧] . فهذه الرسائل جميعها ، وغيرها ، جزء من تراث الأفغاني المكتوب ، وتشكل في مجموعها مجلدا قائما بذاته .

مشكلة الحذف

نعود مرة أخرى إلى « الاعمال الناقصة » التي اخرجها الدكتور محمد عمارة للأفغاني . فهو في طبعتها الأولى لا يسقط « تتمة البيان في تاريخ الأفغان » وحده ، وانما يسقط ايضا الكثير من محتويات « العروة الوثقى » ، التي يمكن نسبتها الى الأفغاني . ثم يعود في الطبعة الثانية فينسبها مرة أخرى اليه . ولا بأس بهذا بالطبع ، لأن الأفغاني صاحب المقالات الرئيسية في الصحيفة بلا شك كما أشرنا من قبل ، ولكن المشكلة تظل ، بعد ذلك ، معلقة فيما يتصل بالمقالات غير الرئيسية خارج نطاق الأخبار والمكاتبات الخارجية والتعليقات القصيرة ، التي يمكن نسبتها لجهاز تحرير الصحيفة ابتداء من محمد عبده وابراهيم المويلحى الى ميرزا باقر الايراني .

وإذا كنا قد عبنا على رشيد رضا الحذف ـ بغير حق ـ من كتابات محمد عبده بدافع شخصي ، في الغالب ، هو الحب والاحترام ومخافة التعريض ، فإننا

نعيب على محمد عمارة حذفه أيضا ـ بغير حق ـ في كثير من النصوص التي نقلها من غيره ، ولا سيما النصوص التي أوردها المخزومي في كتابه « خاطرات السيد جمال الدين الأفغاني » . ومن ذلك ـ على سبيل المثال ـ ما كتبه المخزومي ، على طريقة القدماء ، بعنوان « في تكليف السلطان عبد الحميد للسيد ان يزوجه من إحدى جواري قصره ، وما جرى في هذا البحث من أخذ وَرَدٍّ ، وكلامه في الحكمة الزوجية، واستطراد في المرأة والرجل وهل يتساويان »

يبدأ المخزومي حديثه بعد هذا العنوان مباشرة بكلام عن عزوبة الأفغاني طوال حياته ، حتى يصل الى حكاية ارسال السلطان جارية حسناء اليه ، وامتناعه عن قبولها « بقول غريب » على حد تعبيره . وعندئذ قال أحد الحاضرين للأفغاني : إنك اذن تحب تأييد مذهب ابي العلاء حيث يقول :

هذا جناه ابي علي   وما جنيت على أحد

ولكن الأفغاني يعارض نسبة هذا البيت للمعري ، حتى يصل إلى رسول السلطان الذي جاءه بخبر الجارية فيقول له : « إذا أصر جلالة السلطان ، أو احَبَّ ان يكرهني على هذا الأمر ... فأخبروه اني ساقطع آلة التناسل إذا هو أصر » .

عندئذ يكمل المخزومي الرواية بقوله :

« ولما لم يأخذ الوسيط (وهو من كبار الأغوات) من جمال الدين غير هذا الجواب ذهب مستغربا ، مدهوشا ، من شكل هذا الرد وصورة الرفض »

ومن الواضح في هذا النص حتى الآن أن الأفغاني قصد برده ، الذي وصفه المخزومي بالغرابة ، ان يفحم رسول السلطان من جهة ، وأن يدخل الدعابة على الحاضرين بالسخرية من الخصي المسكين . ثم سئل الافغاني بعد أن سكنت ضوضاء تكليف السلطان له بالزواج : « لو فرضنا انك قبلت تكليف السلطان واقترنت بامرأة فما هي الخطة التي ترسمها لقرينتك ؟ وما رأيك في مساواة المرأة بالرجل ؟ »

قال الأفغاني : « إنه ليسرني ، إذا صار فرضكم بأمر زواجي « فعلا » ، أو في حقيقته « لغوا » ، وتخلصت من الخطة والخطط والخطوط . أما أمر مساواة المرأة بالرجل وهتكه ... الخ »[١٨]

ومن الجملة الأخيرة يبدأ عمارة اقتباسه تحت عنوان « في المرأة »[١٩] . ولكن المخزومي يستطرد بعد ذلك بسؤال لجمال الدين عن مساواة المرأة بالرجل في الصدر الأول للاسلام ، مثل عائشة رضي الله عنها ، فيرد الأفغاني بقوله : « غريب ما يقولون ... الخ » ومن هذا القول الأخير يستطرد عمارة أيضا في وصل حديثه السابق . ومع ذلك يستطرد المخزومي أيضا الى رواية ما دار حول

موضوع المرأة في الصدر الأول للاسلام في صفحة ونصف الصفحة ، حتى يصل الى تعليق ذكره الأفغاني ، فيأتي عمارة ويصل حديثه السابق بهذا التعليق ، أي انه خَلَّصَ النص من الجمهور ، واستخلص منه أقوال الأفغاني ، ثم ضمها في وحدة واحدة ، بمعزل عن السياق الذي قيلت فيه ، والجو الذي أحاطبها .

مثال آخر .. يروي المخزومي تحت عنوان « فيما عرف عن جمال الدين من مَزِيَّة الاقناع في حالتي السلب والايجاب . والسبب في ذلك [٢٠] »، بعض وقائع مجادلة الأفغاني لرواد مجلسه حتى يقول : « ولقد جرى لجمال الدين بحث وجدل مع كبير من العلماء في قوله : ليس في الامكان أبدع مما كان . فأخذ السيد الوجه السلبي وقال : نعم في الامكان أبدع مما كان ـ ها نحن اليوم نعجز بالعين المجردة عن رؤية الأشباح والأجرام البعيدة ، ونستعين بالمجاهر والنظارات ، فلو كانت عدسات أعيننا أقوى ، والانعكاسات النورانية أشد ـ لكان ذلك أبدع مما نحن فيه من ضعف البصر وعدم رؤية البعيد . »

فوقف الشيخ ، وظهر عليه العجز ، ولم يستطع لبرهان جمال الدين ردا .

فلما انفض المجلس قال السيد لجلسائه : « أُخِذَ الشيخ بالسفسطة وغُلِبَ بها. وكان الغَلَبُ له لو قال ان النظارات إنما فائدتها لرؤية البعيد فقط. وأما اذا استخدمت للقريب ، فلا يمكن ان يُقرأ سطر ، ولا أن يرى قريب . وعلى هذا يكون الحق في جانب القول في الخلق : ليس في الامكان أبدع مما كان » .

في هذه الرواية القصيرة يحذف عمارة كل ما تلا عبارة « وعدم رؤية البعيد » حتى عبارة « وعلى هذا يكون الحق في جانب القول في الخلق : ليس في الامكان أبدع مما كان »[٢١] وبذلك يفقد النص حيويته وتضيع على النادرة طرافتها . بل إنه يتبع ذلك بعنوان جديد هو « دفاع عن الزواج ، ولكن » .[٢٢] ثم يورد تحته ما سبق أن حذفه في رواية المخزومي حول تكليف السلطان للأفغاني بالزواج ، مع حذف تدخلات الحاضرين وأسئلتهم وكلمات « قال ويقول ، الخ »

وفي هذه النصوص وغيرها اخل الدكتور عمارة بأمانة الناقل ، الجامع للتراث . فالنصوص ذاتها نصوص قولية ، سمعها الراوي (المخزومي) وسجلها (لا ندري وقتها أم بعدها) بطريقته ، لأنها جزء من ذكرياته هو شخصيا . فاذا جاء باحث فخلص النصوص من هذا الجو ، اصبحت النصوص ضعيفة الدلالة ، لانها عزلت عن الموقف والسياق الذي قيلت فيه ، فضلا عن أن هذه الروايات تعد في النهاية من قبيل النوادر . والنادرة اذا فقدت الجو الذي وقعت فيه صارت خبرا باردا . وما فعله المحقق الجامع للتراث ، هنا ، اشبه بالصحفي الذي يحصل على حديث من شخصية مرموقة ، ثم ينزع منه الأسئلة والجو الذي دار فيه ليحوله الى مقال لتلك الشخصية . ومهما كانت عبقرية هذا الصحفي فسيظل المقال مفككا ، لأن صاحبه لم يكتبه في الأصل مقالا .

وهـذا الذي حدث للمخزومي في نوادره وذكرياته عن أستاذه حدث أيضا لزميله عبد القادر المغربي في نوادره وذكرياته ايضا ، ثم حدث بعد ذلك لرشيد رضـا في نوادره وذكرياته عن أستاذه محمد عبده حين أصدر الدكتور عمارة « الأعمال الكاملة للامام محمد عبده »

من الجائز أن يحدث ذلك في الكتب الشعبية أو المبسطات التي لا تحتاج الى تحقيق ولا تعليق ، ولكن ليس من الجائز أن يحدث في الكتب المرجعية التي لا ينـاسبهـا سوى الاحتفاظ بالذكريات كذكريات ، والنوادر كنوادر ، والمقالات كمقالات ، وهلم جرا ، والا فالمجال واسع أمام الشعبيات والمبسطات والمختارات .

يتبين لنا بعد هذا كله أن تراث الأفغاني ليس محدود الكم كما نتصور ، وأن ما نشر من هذا التراث محدود يفتقر الى التحقيق العلمي السليم الذي يمكن أن يرضي حاجة الخاصة والعامة معا . كما يتبين أن هذا التراث ما زال في حاجة الى جهـود اخرى تعمل على جمع ما تناثر منه في الصحف والكتب العربية وغير العـربيـة . فالمجهول منه أكثر من المعلوم . وهذا كله هو ما دفعنا الى جمع المجهول منه ، وتحقيقه ، حتى يتمكن الباحث المتخصص والقارىء العام من تقدير الأفغاني حق قدره ، ومعرفته بشكل أوسع وأدق ، ولا سيما بعد أن نشط البحث في السنين الأخيرة في حياة الرجل وفكره معا . وليس في محاولتنا هذه أي مساس بمحاولة الدكتور محمد عمارة ، بالرغم من نقائصها التي اشرنا إليها . فكل ما نسعى اليه هو أن نكمل صورة الأفغاني وفكره ، وأن نرأب الصدع بين ما نشر له وما لم ينشر في لغتنا .

ونـظرا لكثـرة ما لم ينشر بالعـربيـة من تراث الأفغاني ، فقد قسمنا هذه المحاولة الى قسمين :

أولا ـ قسم خاص بأعماله التي جاءت بالعربية أصلا ، أو نشرت بها ، ثم طواها النسيان . وهذه حاولنا تقصيها في جميع المظان الممكنة عن طريق المسح الشـامـل للصحف العـربيـة الصـادرة في عصر الأفغـاني ، في مصر وفرنسا وانجلترا . وباستثناء مقالة « البيان في الانجليز والأفغان » امكننا جمع مواد هذا القسم من أصـولهـا العـربية التي ظهرت بها ، بغض النظر عن العناء والمشقة اللذين يتحملهما الباحث في مثل هذه الامور .

ونظرا لأن المقالة المذكورة ظهرت بالعربية أولا ، ثم ترجمت الى الانجليزية ، ونظرا لأنها ـ ايضا ـ لم تعد موجودة في أصلها العربي ، بسبب ضياع كثير من أعداد جريدة « مصر » التي نشرتها ، فقد كان من الضروري ـ والحال هذه ـ أن نعيدها مرة أخرى إلى العربية ، عن طريق الترجمة .

ثانيا ـ قسم خاص بأعماله التي جاءت بغير العربية ، أو نشرت بغيرها . ويشمل هذا القسم مقالات ورسائل وأحاديث وذكريات .

وقد رأينا أن نبدأ بالقسم الأول ، بحيث تخرج الكتابات العربية المجهولة ، التي لم يتوصل اليها الدكتور عمارة ، في مجلد واحد ، على أن نتبعه بمجلد آخر يضم القسم الثاني .

من الصعب هنا إصدار حكم على اعمال الأفغاني المجهولة هذه . ولا يمكن أن يكون هذا الحكم صائبا الا بعد نشر الجزء الآخر الخاص بأعماله في غير اللغة العربية . ومع ذلك نستطيع ان نلاحظ ـ بوجه عام ـ أن الأعمال العربية التي يضمها هذا المجلد تسير حول محاور بعينها . ويمكن اجمال هذه المحاور فيما يلي :

١ـ الدفاع عن الانسان ، بصفته أسمى المخلوقات ، وتوعيته بوظيفته الاجتماعية ، وتبصيره بمسئولياته إزاء نفسه وغيره .

٢ـ الدعوة الى تحكيم العقل ، بصفته أعلى ما عند الانسان من صفات ، وحضه على التزود بالمعارف والعلوم .

٣ـ مقاومة الاستبداد ، بصفته معطلا لحركة الانسان على الأرض وقاتلا لملكات العقل .

٤ـ رفض التدخل الأجنبي ، او ما نسميه الاستعمار ، في جميع أشكاله ، ولا سيما الاستعمار الانجليزي .

٥ـ الايمان بضرورة الوحدة الاسلامية تحت أي راية ، حتى لو كانت هذه الراية للخليفة العثماني المستبد ، ومحاربة التفرق والتعصب للشيع .

حول هذه المحاور الأساسية الخمسة تحرك عقل الأفغاني في أعماله المجهولة هذه . ومع ذلك فليست هذه المحاور بعيدة عنه في أعماله المعروفة ، ولا جديدة عليه ، وإنما تؤكد هذه تلك ، وتتممها .

وقد حاولنا هنا أن نصنف هذه الأعمال المجهولة تصنيفا موضوعيا ، على أساس الموضوع ، فقسمناها الى : مقالات وكتب ورسائل ومتفرقات . ثم رتبنا مواد كل تصنيف على حدة ترتيبا تاريخيا ، حسب تاريخ ظهوره أو نشره أو كتابته .

تبلغ المواد المجهولة هنا ٢٢ مقالة ، ٨ رسائل ، كتاب ، ٤ مواد أخرى متفرقة ، أي نحو ٣٥ مادة مختلفة الشكل . ومنها كتاب كامل هو « تتمة البيان في تاريخ الأفغان » الذي لم ينشر بعد عام ١٩٠١ .

ونرجو ، بعد هذا كله ، أن يكون في هذا العمل فائدة للباحث المتخصص والقارىء العام على السواء ، وأن تكمل به محاولة الدكتور محمد عمارة بحيث يتممها ويتجاوز ما فيها من نقص .

علي شلش
لندن ـ ١٩٨٦

هوامش

١ ـ في الفترة من ١٩٠٠ إلى ١٩٢٥ اعاد رضا نشر ٨ مقالات للافغاني سبق نشرها بالصحف التالية : مصر (مصر ١٨٧٩) ، ابو نظارة (باريس ١٨٨٣) ، البصير (باريس ١٨٨٣) ، النحلة (لندن ١٨٨٣) ومن الملاحظ ان اربعا من هذه المقالات نشرت بجريدة « مصر » ، وأن مجلة « النحلة » التي رجح رضا نشرها لمقالة « السياسة الانجليزية في الممالك الشرقية » في أواخر ١٨٨٢ واول ١٨٨٣ لم نعثر لمجموعتها على أثر في لندن خلال ذلك التاريخ . راجع : « المنار » في ٢٥ مارس ١٩٢٥ .

٢ ـ كانت المقالة الاولى بعنوان « بلاد فارس » والأخرى بعنوان « ظلامة الامة وضراعة الملة » نشرتهما « ضياء الخافقين » في مارس وابريل ١٨٩٢ على التوالي . ثم غيِّر عنوانهما الى « كتابان سياسيان » ونشرهما بعدد واحد من « المنار » في ٤ يناير ١٩٠٧ . واعاد نشرهما بهذا العنوان الأخير في الجزء الأول من كتابه (تاريخ الأستاذ الامام) .

٣ ـ المنارج ٢٥م٣ في ٤ نوفمبر ١٩٠٠ ص ٥٨١ .

٤ ـ تاريخ الاستاذ الامام ، الجزء الثاني ، ص ٥٩٩ .

٥ ـ المصدر نفسه ، ص ٦٠١ .

٦ ـ باستثناء مقالتي : « درس في فلسفة التربية » و « درس في فلسفة الصناعة » اللذين أعاد هو نشرهما بكتابه « تاريخ الأستاذ الامام » ج ١ وعنه نقل الذين جاءوا بعده .

٧ ـ Homa Pakdaman: Djamal ed-din Assad Abadi, dit Afghani, Paris, Maisoneuve et Larose, 1969, P 95.

٨ ـ اصغر مهدوي وإيراج افشار : مجموعة اسناد ومدارك جاب نشده درباره سيد جمال الدين ، جامعة طهران ، ١٩٦٣ ، ت ١٠٤ .

٩ ـ المصدر نفسه ت (تصوير) ١٠٠ .

١٠ ـ فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية ، ج ٢ ، بيروت ١٩١٣ ، ص ٢٦٢

١١ ـ العروة الوثقى ، المكتبة الأهلية ، بيروت ، ١٩٢٧ ص ٣٩٩ .

١٢ ـ محمد عمارة : الأعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٨ ص ص ١١٩ ـ ١٢٠

١٣ ـ المصدر نفسه ، ص ١٢٥

١٤ ـ A. Kudsi-Zadeh: Sayyid Jamal al-Din Al-Afghani, An Annotated Bibliography, Leiden, Brill, 1970

١٥ ـ W.S. Blunt: Gordon at Khartoum, PP 542-550

١٦ ـ نشر الخطاب بعنوان « راي حكيم شرقي » : المقتطف ، مايو ١٩٢٥

١٧ ـ E. Browne: The Persian Revolution, Cambridge U. Press, 1910, PP 28-29

١٨ ـ محمد المخزومي : خاطرات السيد جمال الدين الافغاني ، بيروت ، ١٩٣١ ، ص ص ١٠٩ ـ ١١٥ .

١٩ ـ محمد عمارة : الاعمال الكاملة ، طبعة القاهرة ص ص ٥٢٥ ـ ٢٦

٢٠ ـ المخزومي : المصدر نفسه ، ص ص ١٠٤ ـ ١٠٧

٢١ ـ عمارة : المصدر نفسه ، ص ٥٣٠

٢٢ ـ المصدر نفسه ، ص ص ٥٣٠ ـ ٣١

مقالات

المخاطبة بين الانسان والهرة

[ظهرت هذه المقالة في صحيفة « أبو نظارة زرقا » بباريس في ٢١ اكتوبر ١٨٨٩ . وقدم لها يعقوب صنوع محرر الصحيفة بهذه الفقرة تحت العنوان السابق :

« ورد الينا كتاب طريف من صديقنا ريس محفل الاتحاد المصري الشريف ، به يطلب منا بالنيابة عن الاخوان طبع مخاطبة جرت بين الهرة والانسان . تلك مخاطبة كنا نشرناها في العدد الخامس عشر بمحروسة مصر القاهرة . ومنع توزيعها حضرة شيخ الحارة ...

فالآن ورد لنا نسخة من ذلك العدد النفيس مرسلة من جانب الريس . عدد من جريدتنا الوطنية الحرة ، التي فيها مخاطبة بين الانسان والهرة ، النادر وجودها عند محبي الوطن العزيز . وقال ان إشهارها يصلحنا ويضر الانكليز . فأجبناه . وفضلنا تلك المخاطبة الجوهرية على الأخبار المهمة الواردة لنا من الديار المصرية .

« أما مولفها فلا حاجة لذكر اسمه لكونه معلوم عند الأخوان . وهو أستاذنا الجليل فيلسوف الأفغان »

ومن الواضح في هذه المقدمة التي تتراوح بين العامية والفصحى على عادة صنوع أن الأفغاني كتب المقالة ـ المخاطبة ـ ونشرها عام ١٨٧٧ ، أثناء اقامته بمصر . ولا ندري ـ على وجه التحقيق متى ظهر ذلك العدد ١٥ من « أبو نظارة » الذي أشار اليه صنوع ، فلم يعد باقيا من أعداد تلك الفترة شيء . ولكن إذا صدقنا صنوع في نسبته المقالة لأستاذه ـ وليس هناك ما يمنع من التصديق ـ فإنها تكون قد ظهرت في وقت مبكر ، وربما كانت أول مقالة نشرها الأفغاني في مصر .

أما شيخ الحارة الذي أشار اليه صنوع في مقدمته فكان لقبا أطلقه ـ بعد هجرته من مصر ـ على الخديو اسماعيل ، تهكما وتقية . وقد خلصنا المخاطبة من عامية بعض عباراتها التي جاءت في صحيفة صنوع .]

إنَّ هرة خطفت حمــامــة لانسان وأكلتها . فغضب الانسان غضبا

شديدا ، فأخذ عصا وهجم عليها ، وضربها ضرباً أليماً وقال :
الانسان : ياأيها الحيوان الخسيس الدنى الخائن .
الهرة : ياأيها الانسان ، هل يليق بك أن تذكرني وتناديني بهذه الأوصاف القبيحة ، إلّا أن تكون متصفاً بضدِّها . فانه لا يذم شخص غيره بشيء إلا اذا كان طاهرا منه ، وتاركا له تماما ومتصفا . وأين أمانتك وشرفك ؟ وأي آثار ترتبت عليك حتى لا تكون شريفا غير خسيس ولا دنيء ؟
الانسان : العجب من وقاحتك . ألا تنظرين إلى عِظَم الانسان كيف بإنارته قد عَمَّر الدنيا ، وتسلط عليها ، وأدخل جميع الحيوانات تحت رق عبوديته ؟
الهرة : ياأيها الانسان . إنك لم تبين ما هو الشرف ، وإنما افتخرت ، وتمدَّحت بحرصك وطمعك وظلمك وعددك ، وأنا سألتك عن الفضائل الحقيقية والصفات الجميلة .
الانسان : أيتها الهرة ، أفلا تنظرين الى الانسان كيف اخترع العلوم ودوَّنها ، والصنائع وأتقنها . وإنَّ في تفصيل ذلك من الأمور الدقائق ما يعجز الحيوان عن الاتيان بأصغر منه . أوليس هذا من قوة إدراكه وعلو شأنه على جميع الحيوانات ؟
الهرة : إعلم أيها الانسان أن مهندس الكون العظيم ومنظمه قد خلق الهرَّة والحيوانات غنية عن الانسان وغير مفتقرة ، بأن وضع فيها جميع ما تحتاج إليه في تحصيل سعادتها مدة حياتها . وألهمها من الادراك ما تميز به ضارها ونفعها ، ومن الجلود ما تتقى به الحر والبرد ، ومن الآلات البدنية كالنياب والمخالب ما تدفع به عدوها ونحو ذلك . وأما أنت فخلقت محتاجا « فقيرا » من جميع الوجوه ، فاحتجت إلى الاستعانة بالعلوم والصنائع على تحصيل الراحة في حياتك مثل أدنى حيوان . ومع ذلك لم تصل بعد إلى الراحة المطلوبة .
الانسان : أفلا تنظرين إلى الانسان كيف وضع القوانين والنظامات ، وأقام المحافظين على الحقوق لتحصيل الأمن عليها ، وتنفيذ أحكام القانون ، حتى يتم بذلك اطمئنان كل أحدٍ على جميع نفسه وحقوقه . فهل يوجد في طائفة الحيوانات مثل هذه النظامات ؟
الهرَّة : أيها الانسان ، ان بيانك هذا قد دَلَّني على أنكم أشرار قد جُبلتم

على الخيانة والظلم والغدر والعدوان والشقاق والنفاق وجميع الشرور . من أجل هذا احتجتم الى وضع الحدود والقوانين والقيام بتنفيذها لدفع شر بعضكم عن بعض ، حتى يكون لكم نوع ما من الاصلاح . ومع ذلك أين الاصلاح ؟ أَجبْني ؟

الانسان : أيها الحَيوان . أنظر الى حكمة الانسان . كيف أحكم الارتباط بين أفراده ، حيث جعل الملوك العظام والوزراء والولاة المدبرين والرؤساء المتصرفين حتى يكون كل واحد منهم بمنزلة عقدة سلسلة لاجتماع الانسانية ، حتى ينال السعادة بالتعاون . ويكون النوع كجسد واحد يشد بعضه بعضا بخلاف بقية الحيوانات فإنهم فُرُطٌ[1] لا رابط لهم .

الهرة : أيها الانسان المشاغب المغالط السوفسطائي . إن بيانك قد أفاد أنكم أخِسَّاء أدنياء ، طبعتم على حب العبودية والرق . فإن الحُرَّ يستنكف أن يكون خاضعا لشخص واحد . وأنتم قد اجتهدتم لأن تصيروا عبيد العبيد . ومع ذلك ، إن كباركم هؤلاء قد تسلطوا على نفوسكم وأرواحكم يبيعونها إلى الحروب والمقاتلات ، تقاسي من الاتعاب والمشقات ما لا يوصف حتى تموت في حضيض شقائها . كل ذلك في تحصيل شهوة سلطان أو فخر كبير . وتسلطوا على أموالكم التي تتحملون فيها المصاعب حتى تحصلوها ، فيأخذونها منكم قهراً عنكم ليصرفوها في قضاء شهوتهم وتحصيل أغراضهم .. فإن أبى أحدكم أو عجز لا يجد رقَّة ولا رحمة . ولكن يعامل بأشد العذاب والعقاب ، حتى إنهم يَجردونكم من جميع ثمرات أتعابكم . فإن أبقوا لكم نعمة فما ذاك إلا لتأكلوا وتسمنوا لتصيروا أقوياء[2] ، حتى يستعملوكم في خدمتهم ويتسلطوا على أعراضكم .. فيهتكون حرمتها إن شاءوا . أفبهذا تفتخر ؟ بئس الافتخار !

الانسان : أيتها الهرة ، أفما سمعت أن مدَبِّر الكون قد شَرَّف الانسان بالأنبياء والرسل الكرام العظماء الذين هم فخر الوجود بأسره ؟ أيليق الجدال بعد ذلك في شرفه على جميع الأنواع ؟

---

(١) فرض في الاصل ، ويبدو ان اصلها ـ الذي لم ينتبه له صنوع حين خطه ـ هو فرط ، بضم الفاء والطاء ، اي مضيعون .

(٢) درج صنوع على رفع الهمزة على الطريقة العامية او استبدالها بياء إذا كانت وسط الكلمة . وقد صَحَّحْنا هذا الاسلوب وقربناه من الأسلوب الفصيح .

الهرة : آمنت وصدقت بشرفه وعُلُوِّ مقامه . ولكن ياأيها الأشقياء ، أين إيمـانكم بهـؤلاء العظماء ؟ وأين إتِّباعُكُم لشرائعهم واقتداؤكم بهم في مزاياهم وفضائلهم ؟ إنهم بعد ما جاءوكم لم تزدادوا إلا طغيانا وفسقا وعدوانا . وقد نبذتم ما أتَوْا به من الحق وراء ظهوركم ، ولم تشكروا نعمة الله عليكم ببعثة هؤلاء العظماء المقدسين فيكم لكي يرشدوكم الى طرق خيركم . مع هذا إنـك تعلم أن صحيـح المزاج لا يحتاج إلى الطبيب . فاحتياجكم الى المرشد هو دليل على تمكن المرض من نفوسكم . فكأنكم فُطِرْتُم على المرض ، إلّا أنكم لا تحسون بألمه . فكيف العلاج ؟ فمالك لا تقيم دليلا إلا ويكون مفضحا لك ؟

الانسـان : أيتهـا المتمشـدقـة الخسيسـة ، إنـك بهذه الشقشقة قد أخرجتني عن الموضوع . أنتِ لِمَ خطفت حمامتي ، وبأي وجه خنتيني في مالي ؟

الهرة : أيها الانسان المُعْجب المتكبر الجهول . أقول لك أولا إنه لا يليق بك ، ولا بنوعك ، أن تنسبني الى الخيانة ، مع أن مدبِّر الكون قد أباح لي أن آخذ من العالم ما يسد رمقي ، ويدفع حاجتي بأي طريق كان . أمَّا أنتم فكل واحد منكم ينتهز الفرصة لأخذ ما بيد الآخر . وكلّ قوي منكم يسلب أموال الضعيف . وينفقها في القصور المشيدة والألبسة الفاخرة والأطعمة الشهية ، وما يشبه ذلك من اللذات التي لا حاجة به إليها ، وإنمَّا يحصِّلها بَطَراً وازدراء . وإنَّ أحدكم لا يكتفي بقرينته التي اختص بها . بل يطلب امرأة جاره وصديقه ، ويخونه فيها . وقد اتخذتم الكذب والنفاق آلة لتحصيل مآربكم ، حتى إنَّ الوالد يخون ولده والولد يخون أبـاه ، والأخ يخون أخاه . وتظهرون المحبة والصفاء ، وتعلنون الوفاء والأمـانة ، وتضمرون الغدر والخيانة ، تحلفون وتحنثون ، وتعاهدون وتنقضون ، وتعدون وتخلفون ، لا يرى أحدكم راحة من أخيه لمحة . بل على توالي اللحظات يحذر سوء أخوانه ، ويتوقع منهم الشر . وثانيا قد نُسِبْتُ الى الخسة والدناءة ، مع أنني ومن يشاركني في نوعي جُبِلْنا على عزة النفس والشرف وارتفـاع الهمَّـة . لا يرضى أحدنا أن يدخلَ تحت الرقِّ ، وأن يحني الظهر الى العبودية . ألا ترى أن أضعفنا لو هجمت عليه الألوف بالسيوف ، وراموا إذلاله وخذله ، وحصروه ، وسدوا عليه طرق الفرار ، وتقطعت أسباب خلاصه ، ولم يبق له الّا سبيل الموت فإنه

يجمع قوته ، ويصول صولة الأسود والنمور . ومع صغر جسمه وضعف قوتــه يهجم على عدوه فيضرب هذا ويعض ذاك ، إلى أن يمـوت بعـزَّة وشرف ، ويختــار المـوت الشريف على الحيـاة الدنيـة . وأما أنت أيها الانسان ، ومن يشاركك في نوعك ، فقد طبعتم على الذل وعلى الانكسار ، وجُبلْتُم على الحقـارة والهـوان . فإني أرى أن رجلاً واحداً منكم يظلم صاألحـكم ، وعـالمكم ، وجـاهلكم ، وغنيكم ، وفقــيركم ، وضعيفكم ، وجـبـانـكـم ، وشريفكم ، ووضيعكم ، وذليلكم ، وغبيكم ، وزارعكم ، وصـانعكم ، وتجاركم ، وعمالكم ، وأرباب سيفكم ، وأصحاب قلمكم ، ويستصغـرهم ، ويستحقرهم ، ويضيع حقوقهم ، ويهتك أعراضهم ، ويسلب أموالهم ، ويتصرف في أرواحهم وأبدانهم ، ويستخدمهم شهورا وأعـوامـا ، ولا يعطيهم مالاً يحفظون به حياتهم من القوت الضروري واللباس الكافي ، وما يتعلق بذلك . بل تراهم في أدنى الضروريات ، مع أن الانسان اذا كان عنده ثور أو « حمار » يقضي عليه عمله ، لا يجد مفراً من أن يطعمه ويسقيه ويأتي اليه بجميع لوازمه . وأنتم عند ذاك الرجل أدنى وأحقـر من الحيـوانات ، لا ينظر اليكم نظرة راضٍ ، ولا يكافىء أعمالكم الشاقة وأتعابكم الدائمة بشيء ، حتى إنه لا يراضيكم بكلمة معروف ولا حمد ولا شكر . ولا يلاقيكم بالترحاب والبشاشة ، ولا يقطب جروح آمالكم بإظهار الممنونية .

ومع ذلك لا تزدادون الا خضوعاً له وطاعة لأمره ، ووقوفاً بين يدي إرادته . أفلا تنظر ياأيها الانسان الغشوم الى الأماكن التي خصصت لمنفاكم ، سيبيريا أرض الزمهرير كيف جعلها محلا لنفي أبريائكم الذين لا جناية لهم ؟ أولا تنظر الى الالوف منكم وقد سيقت لمزجرة[٣] الرجال بآسيا وأوروبا وماتت بالظمأ . أولا تنظر ما فعله الصينيون بصلحائكم وأتقيـائكم بأرض كاشغـره ؟ فيم إذاً نفعتكم علومكم أيهـا العلمـاء ، وأفـادتكم آدابكم أيها الأدباء ؟ وماذا صنعتم بتدبيركم وتفكيركم أيها الحكماء ؟ وما الذي دعا[٤] عليكم من قوتكم وشجاعتكم أيها الأقوياء ؟ وأي شيء دفعتــه عنكم سيوفكم وخيولكم أيها الفرسان والمدربون على الحـروب والمتعودون على غوائلها ، الذين قد أعددتم أنفسكم لمصارعة

(٣) هكذا في الأصل وربما قصد معنى « مجزرة » وهو الأرجح .
(٤) الارجح انها « عاد » وقد كتبها صنوع مقلوبة . وكان يكتب الصحيفة كلها بخط يده .

الموت وتهيأتم لمعاناته ، فتعسا لكم من نوع خسيس دنيء ذليل رذيل !

إن حياته عناء ، وسعادته شقاء ، وحريته عبودية ، وعزته ذلة ، ورفعته حطة ، وعلوه خسة ودناءة ، وشجاعته جبن ، وجرأته خوف ، وفخاره مسكنة (فخرس الانسان الكاتب) .

ولما رأيت حجة الهرة رميت القلم وكسرته ، وطرحت المحبرة ، وقطعت العهد منها ، وقلت ما دام الانسان بهذه الحالة الردية ، فهو أردأ وأسوأ حالا من جميع الحيوانات .

البيان في الانجليز والأفغان

[ظهرت هذه المقالة بجريدة « مصر » ، التي كانت تصدر بمدينة الاسكندرية ، في ١٧ اكتوبر ١٨٧٨ . وأثارت عقب ظهورها مناقشات في مصر وانجلترا معا . فقد ترجمها الى الانجليزية القس الانجليزي المستعرب جورج بيرسى بادجر ، ونشرها بجريدة The Homeward Mail ، التي كانت تصدر في لندن وتهتم بأحوال الشرق ، في ٣٠ نوفمبر ١٨٧٨ ، أي بعد نحو ستة أسابيع من ظهورها بالعربية .

غير اننا لم نعثر ـ للأسف ـ على الأصل العربي للمقالة . فقد اختفى العدد المذكور من جريدة « مصر » ، ضمن أعداد أخرى ، من مجموعتها الناقصة المتهرئة بدار الكتب المصرية . ومع ذلك عثرنا على أعداد مجلة « النحلة » التي كانت تصدر بالعربية وقتها في لندن ، وفيها ملخص للمقالة بالانجليزية كما ترجمها بادجر ومناقشات محررها لويس صابونجى لما جاء فيها .

ويتضح من متابعة الصحف في تلك الفترة أن صابونجى كان على صلة بسليم نقاش مدير جريدة « مصر » وأديب اسحق محررها ، وأن عدد الجريدة التي نشر فيها الأفغاني مقالته قد وصل الى صابونجي من الاسكندرية ، فدفع به الى صديقه بادجر الذي ترجم المقالة ونشرها .

ظهرت المقالة في الانجليزية تحت عنوان « افغاني يكتب عن الانجليز » ، وقدمتها الجريدة بهذه العبارة :

« المقالة الممتازة التالية عن الانجليز والأفغان كتبها في الشهر الماضي السيد جمال الدين ، وهو افغاني مرموق . وترجمها عن الأصل العربي القس الدكتور جورج بيرسى بادجر »

وبعد هذه العبارة قدم المترجم نفسه الترجمة بعبارة أخرى جاء فيها :

« يرجو المترجم أن يكون مفهوماً بوضوح انه ينشر هذه المقالة بالانجليزية ، بغض النظر كلية عن الخلافات الحزبية القائمة حول المسالة الأفغانية . وهدفه الوحيد هو أن يضع أمام الجمهور آراء أحد الأفغان الوطنيين ، وان كان الرجل يبدو مغاليا في حماسته فيما يتصل بسياسة بريطانيا العظمى إزاء علاقاتها الماضية بوطنه »

في هذا التقديم اشارة من المترجم الى خلافات الأحزاب البريطانية حول ما كان يدور في افغانستان في ذلك العام ، ١٨٧٨ . فقد حدث أن المفاوضات التي اجراها أمير البلاد ، شير علي (١٨٦٣ ـ ١٨٧٨) مع الروس لم ترض الانجليز . وأسفر ذلك عن اشتعال الحرب ـ للمرة الثانية ـ بين الأفغان والانجليز الذين كانوا يدعمون امير البلاد السابق دوست محمد خان (١٨٢٦ ـ ١٨٦٣) بعد جلائهم عن أراضيه . وقد خشى الانجليز وقتها ان تسفر مفاوضات شير علي ـ

ابن دوست محمد ـ مع الروس عن تهديد ممتلكاتهم في الهند، فشنوا تلك الحرب ـ الثانية ـ التي استمرت حتى عام ١٨٨٠ . ولما وصلت أخبارها الى مصر وجدت فيهـا الصحافة المصرية موضوعا للمتابعة والتعليق . وكان من الطبيعي أن يسـاهم الأفغـاني في هذا المـوضـوع ، ولا سيما أن صحف تلاميذه ـ مصر ، التجارة ، مرآة الشرق ـ كانت على رأس الصحف التي تابعت تلك الحرب .

ولم يكتف المتـرجم الانجليـزي بترجمة المقالة ، وانما ترجم أيضا المقدمة القصيرة التي اعتادت صحف تلاميذ الأفغاني أن تقدم كتاباته بها ، وتحليتها بالمديح والاطراء البالغين . وهذا هو نص تقديم جريدة « مصر » للمقالة مقربا الى اسلوبها العربي في التقديم ، كما يظهر في مقالات الأفغاني الأخرى التي نشرتها :

« هذه المقـالة التي تسمـو على نزوع البشر ، ولا يقدر على إنشائها أعمق العقـول هي نتاج عقل سيدنا ، وحجة الشهرة ، أستاذنا الأعز الذي لا يقدر الوصف على إظهـار امتيـازه الفريد ، السيد جمال الدين الأفغاني ، المشهور كأمير للبيان وزعيم للبلغاء ، ودرة تاج الحكماء ، أعزه الله . قال : »]

إن الأمـة المؤلفة من أفراد يختلفون في المشارب ، وتربطهم روابط الاجتماع والجنس ، وتلحمهم وحدة اللغة والأصل والموطن ، ويطيعون شريعـة واحدة لا تفرق بين الكبير والصغير ، وتحكمهم سياسة واحدة وحكـومة واحدة ـ هذه الأمة تكون رمزا لسعادة الفرد الواحد ، الذي يتألف هو نفسه من عناصر عدة تجمع بينها قوة الجذب المشترك ، كما يتألف من أعضاء شتى مختلفة الأشكال في بنيتها العامة ، توحد بينها قوة روح محركة واحدة .

وسعادة الاثنين (الأمة والفرد) تنشأ من حركات الجسم ككل ، وهي التعبـير الظاهر عن الروح الكامنة التي تنشط الانسان ، وتحركه نحو التمـاسـك والتـروي واليقـظة والحـزم ، وتحثـه على اكتسـاب العلوم والمعـارف ، وتـوجهه نحو الصنائع والاختراع ، وتنقذه من الكوارث ، وتحميه من محن الدهر ومن تلك الحركات الجبرية التي لا تتحكم فيها ارادتـه أو اختيـاره ، مثل الحركات البدنية التي تنشط بارتفاع الأمم وسقوطها ، وتشكل السلسلة التي لا نهاية لها ، وهي سلسلة تربط ما يقع اليوم بالعلة الأبدية .

والعجـز عن تحقيق السعـادة ، أو فقدان السعادة بعد تحقيقها ، بسبب الأمة أو الفرد ، يكون نتيجة إهمال ذلك المحرك المتصف بالكمال

والمتصل بالحركات المجمعة التي أشرنا اليها ، أو نتيجة عدم الاهتمام بأي جزء من هذه الحركات . ولكن إذا حدث أن نتج العجز عن تحقيق السعادة ـ مع ما يترتب عليه من مضاعفات ـ من غياب أي جزء ، فإن الانسان لا يكون ، عندئذ ، مسئولا ، لأن الأمر يتعدى نطاق تحكمه ومجال إرادته . ومن ثمة ، فإن الذي يخسر السعادة ، في مثل هذه الحالة ، ليس من القبيح أن يلام أو ينتقد ، ولا هو يملك مبررا عادلا للندم أو تأنيب الضمير . ولكن إذا نشأ ذلك العجز من داخل مجال إرادته فإن الخاسر يستحق الاستنكار والتقريع . ويجب أن يبدي أسفه على إهماله لما كان داخل نطاق تصرفه .

هذا المعيار الفلسفي الذي يشير الى تلك القوانين الفطرية للطبيعة يصلح مقياسا لقياس ظروف الأمم وأحوالها في السعادة والشقاء ، وكذلك يصلح مقياسا لكيل الثناء والمديح ، أو التقريع والانتقاد ، لماضي الأمم وحاضرها ومستقبلها .

ماضي الانكليز

وبناء على هذا سوف نستخدم ذلك المعيار في استعراض تاريخ الشعب الانجليزي العظيم ، الذي يصمم الآن على خوض حرب مع أفغانستان ، حتى يمكن أن نكتشف أسباب سعادته(٥) الماضية ، ونستطيع أن نحكم على استمراره أو ركوده في المستقبل . فنقول :

لقد بعث الخطيب المشهور شيشيرون خطابا الى أحد الفاتحين (الرومان) لانجلترا ، رجاه فيه ألا يرسل أسيرا الى روما ، لأن الانجليز جنس أميّ غير متعلم ، لا يعرفون الخلق المهذب ، ولا يقبلون على اكتساب المعارف ، ولا سيما الهندسة والموسيقى . وقد درج النورمانديون أيضا ، حين احتلوا الجزيرة (الانجليزية) ، على تكبيل أعناق أهلها بالاغلال ، لأنهم أدركوا انحطاطهم وتخلفهم . ومع ذلك فقد لاحظ هؤلاء الأهالي ما أحرزه جيرانهم من تقدم في العلوم والمعارف ، وما استمدوه منها من مزايا ، وما تحقق لهم ـ نتيجة ذلك ـ من مرتبة عالية ، فتأثروا ، ونشطوا ، الى حد أن مزاجهم كله أصابه التغير ، واعتراه ظمأ

---

(٥) استخدم المترجم الانجليزي كلمة « رخاء » Prosperity بمعنى « سعادة » الذي يقصده الافغاني ، ولكننا نميل الى المعنى الاخير ، لانه تكرر بعد ذلك ـ كما سنرى ـ في كتابات الافغاني في تلك الفترة . ومع ذلك فالسعادة عند الافغاني هي الرخاء ايضا .

عارم لتحصيل العلوم . واتجه هذا الظمأ أول ما اتجه الى الصنائع أساسا ، ثم تطور فأصبح نشاطا تجاريا ، سرعان ما اتسعت معاملاتهم - بسببه - اتساعا هائلا . وقد ساعدت على ذلك القوة القاهرة للظروف ، مما ترتب عليه في النهاية تتويج جهودهم بالنجاح الكامل .

ولما اشتد ساعدهم ، وبلغوا أوجهم ، ووقفوا بقوة على أقدامهم ، راحوا يتأملون في أحوال جيرانهم ، الأسبان والبرتغاليين والهولنديين والفرنسيين ، الذين فتحوا مختلف البلاد والأصقاع ، واكتشفوا الجزر ، وأسسوا المستعمرات ، وأرسلوا أيضا بعثات الى جميع أركان المعمورة ، وأطلقوا السفن في المحيطات الشاسعة شرقا وغربا . ثم قادهم هذا التأمل الى العزم على التنافس والتبارى مع أولئك الجيران . ومع ذلك كان عليهم أن يتغلبوا على عقبة كبيرة ، وهي قلّة الرجال . ولعلاج ذلك اتخذوا سياسة قوامها « التغرير والتلبيس ، ونصْب فخ المواربة وشرك المخاتلة »[٦] وبهذه السياسة حققوا أهدافهم ، وتفوقوا على سائر الأمم الأخرى ، الى حد أن المتأمل في جلافة تحولهم ، وبرود جبْلَتِهم ، قد يتساءل : كيف تأتّى لهم تحقيق النجاح بهذه الوسائل الماكرَة ، والثبات على نجاحهم ، وحماية وضعهم عن طريقها ؟

غير أنهم استغلوا هذه الوسائل كسلاح يهاجمون به الأمم والممالك . وأثبت السلاح في أيديهم مضاءه في اثارة الفتن في مختلف الامارات ، وتقليب الواحدة على الأخرى ، وخلق المنازعات بين الحكام ورعاياهم .

وعلى أساس هذا المبدأ سلكوا ، حين طمعوا في محطة في البحر الابيض المتوسط ،[٧] ورغبوا في سلخها من الممتلكات العثمانية ، كي يؤسسوا بها مستعمرة . كما أرسلوا الرسل الى المرحوم الشاه عباس شاه ايران ، كي يحرضوه على حكومة البلاد ، ويغروه على التحالف معهم في إذلالها . وعلى هذا النحو نجدهم ، حين وضعوا أقدامهم على سواحل الهند ، مهد البشرية وينبوع التشريع ، يحرضون النوّابين والراجوات[٨] الهنود ضد عاهلهم تيمور ، ويغرونهم على التمرد عليه والاستقلال عنه . ثم أخذوا يعينون هذا على ذاك ، ويؤلبون الآباء على أولادهم ، والوزراء

(٦) هذا نص عبارة الافغاني في العربية كما ظهر في رده على ما اثارته مقالته من نقاش .
(٧) يقصد قبرص التي استولى عليها الانجليز من السلطان العثماني في ذلك العام ، ١٨٧٨ .
(٨) نوّاب : لقب يطلق على نائب الأمير او الحاكم ، واصله عربي دخل الأوردية بمعنى نائب ، وراجا : لقب يطلق على الأمير .

على الأمراء ، حتى حققوا غرضهم بتأسيس حكمهم فوق جميع راجوات الهند .

كذلك كان الانجليز هم أيضا الذين وحّدوا أوربا بأسرها ضد بونابرت[٩] حين بدأوا يخشون على أنفسهم منه ، وأدركوا أنه أنشأ علاقات ودية مع تيبو سلطان عاهل مَدْراس . بل إنهم عقدوا معاهدة مع فتح علي شاه ، عاهل فارس ، تقضي بأن يرسل قوات الى خراسان عندما قرر تيمور شاه الأفغاني أن يزحف بجيش الى الهند . كذلك سعوا إلى مساعدة شاه شجاع[١٠] ، السلطان الأفغاني المخلوع ،. عندما سمعوا أن الروسي فيكوفيتش[١١] قد جاء الى أفغانستان ، كي يدعو الأمير دوست محمد خان لعقد معاهدة مع شاه فارس . وفي تلك المناسبة سَيَّروا جيشهم الى داخل البلاد ، تحت قيادة شاه شجاع ، ونجحوا في خلع دوست محمد خان ، وإحلاله محله . كما اتصلوا بالفرنسيين كي يعاونوهم في معاركهم مع روسيا ، عندما أدركوا أن الروس يطمعون في القسطنطينية (الآستانة) ، وهم يعرفون جيدا أن روسيا اذا نجحت في تحقيق ذلك الهدف فسوف يُقْطع طريقهم الى الهند عبر أفريقيا عاجلا أو آجلا . وقد أغْري الفرنسيون على الانضمام اليهم في حرب القرم[١٢] ، ولكن خسائر الانجليز في الرجال والمال لم تصل الى عُشْر ما خسره الفرنسيون . وكانوا هم أيضا الذي أغروا الأمير دوست محمد خان على الاستيلاء على (مدينة) هرات ، مفتاح الهند ، وكان يحكمها وقتذاك أحد أقرباء شاه ايران ، وذلك خوفا منهم أن تَعْقد روسيا معاهدة مع فارس .

والخلاصة : إن من يرجع الى تاريخ الماضي يقتنع ، لا محالة ، بأن الانجليز لم يكفوا قيد شَعْرة عن اتباع ذات السياسة الثابتة في تحقيق غاياتهم ، في الشرق والغرب ، وفي العالم القديم والحديث . وبالسير على هذا المنوال نجحوا في كل مكان ، وراحوا يستولون على الأمم ، ويضمون الأراضي ، ويوسعون بذلك نفوذهم ، إلى حدٍّ أن ممتلكاتهم تشكل منطقة تصل الى ما يساوي محيط الكرة الارضية . ولو ألقى متفرج نظرة عجلى

(٩) نابوليون بونابرت (١٧٦٩ ـ ١٨٢١) جنرال فرنسا ثم امبراطورها ، ويعرف باسم نابوليون الأول .
(١٠) ملك افغانستان الذي تعاون مع الانجليز وخضع لهم .
(١١) صحة اسمه : فيتكيفتش ، وقد ارسلته حكومة القيصر الروسي لبحث تحسين العلاقات بين بلاده وافغانستان ، ولكن زيارته هذه تسببت في التدخل الانجليزي العسكري في افغانستان عام ١٨٣٩ .
(١٢) اعلنتها فرنسا وانجلترا على روسيا عام ١٨٥٤ واستمرت نحو عام .

على نجاح هذه الاستراتيجية ، وعلى جماعة المتعلمين والاداريين البارزين ، وعلى عدد هؤلاء القوم ومصادر ثروتهم ، لمال الى الشك في امكان اهتزاز أسس مملكة عظيمة كهذه ، أو فرار أقل قطعة من الأرض وقعت تحت سيطرتهم . ولكن إذا راجع المتأمل حكمه ، ودقق قليلا في الموضوع ، لاكتشف أن السياسة الانجليزية تقوم على أساس هَشٍّ ، وأن قبضتها ضعيفة ، وأن القوة الناشئة منها لها ذات الخصائص ، بالرغم من أنها تبدو ـ لقصير النظر ـ ضاربة في أعماق التاريخ .

ومع ذلك ، يجب أن نضع في ذهننا ، أن هذا الضعف وغياب التماسك لا ينشآن من أي حاجة الى العقلاء والحصفاء بين أولئك القوم . فهم يتحركون من خطأ مُستهجن كامن في طبيعتهم ، ألا وهو الأنانية التي تعد فيهم من الدرجة الثالثة . وذلك لأن حب الذات له ثلاث درجات مختلفة : الأولى حين يحب الشخص نفسه ويحب الغير أيضا ، بغير دافع المصلحة ، وهذه صفة الانسان الكامل . والأخرى هي حب الذات وحب الغير ، إذا كان في هؤلاء الغير منفعة ، دون إضرار بهم ، وهذه صفة الانسان المتوسط الفضائل . والأخيرة هي حب الذات وتحقيق المكاسب حتى على حساب الاضرار بالعالم كله ، وهذه أدنى أشكال تلك الصفة . ومع أن الذي تكون فيه هذه الدرجة الدنيا يُظْهِر حبه لذاته ، فهو في الحقيقة عدو لنفسه ، لأن أنانيته تودي به الى مسالك خطرة ، وتلحق به كثيرا من الشرور . وذلك لأن من يتميز بهذا الغرور لا يكف عن الاستخفاف بحقوق الغير ، ولا يحرص إلاّ على خدمة غاياته . فالغرور يعميه أولا عن الصواب ، وبذلك يمنعه من التمييز بين الشر والخير . وهو ـ ثانيا ـ يُغْري مَنْ على شاكلته بمعارضته ، لأن العقل البشري مفطور على كراهية الذين لا يحترمون حقوقه . ثم هو يؤدي به أخيرا الى الطمع فيما يملكه الغير ، والتخطيط لحرمانهم مما يملكون ، فيُحْدِث ـ بالطبع ـ العداء والنزاع .

ولا جدال في أن الشعب الانجليزي العظيم مصبوب في هذا القالب .

انانية الجنس الانجليزي

البرهان التالي يقوم على استخدام المنطق ، من المعلول الى العلة . ويصلح دليلا لأولئك الذين يبحثون عن العلم . ويجدر بالسائل أن يعتني

بملاحظة النتائج التي ترتبت على الأنانية المفرطة عند الانجيز .

وسوف ننتقل الآن الى بيان بعض هذه النتائج .

أولا ـ سنضرب المثال بالأميركيين الذين ثاروا على الانجليز . فمع أنهم يشتركون معهم في اللغة والدين ، نراهم يظهرون لهم عداوة صريحة ، ولا يرجون شيئا أفضل من أن يروا مملكتهم في حكم الزوال . وليس من السهل إدراك مثل هذا المشهد الرهيب إلّا بإرجاعه الى حب الذات المفرط الذي شرحناه ، لأننا نرى أن وحدة شعبين في اللغة والعقيدة رباط أقوى من أي رباط آخر بين البشر ..

ثانيا ـ منذ نحو عشرين عاما اتحد شعب الهند ، سنيين وشيعيين ووثنيين ، وتآمروا على الاطاحة بالاستعباد الانجليزي ، وكان أهل السنة بقيادة فيروز شاه ، والشيعة بقيادة باجس قدر وأمه البيجوم صاحب ، والوثنيون بقيادة نانا راو صاحب . وقد ثار هؤلاء على الانجليز ، وقتلوا وذبحوا الكثيرين منهم ، الى حد أن حكمهم للبلاد أوشك على السقوط . وما زال الشعور بالعداوة والبغضاء قائما ، وقد تحققا بدرجة عالية الى حد أنه لا يوجد هندي لا يصلي من أجل زحف الروس الى حدود الهند ، ولا ينتظر اقترابهم متلهفا ، حتى يتمكنوا من تخليصهم من السيطرة الانجليزية .

ونعود فنقول ان من الواضح أن هؤلاء القوم ، الانجليز ، اذا لم يكونوا قد وطّنوا أنفسهم على الانفراد بالمنافع التي عند الغير ، وانحطوا بأنفسهم الى أخذ ما ليْس لهم ، لما أمكن ظهور مثل هذا التحالف بين شيع تعتنق آراء شديدة التعارض ، وهي شيع كان يمكن ، في ظروف غير هذه ، أن تفرح الواحدة بالشرب من دم الأخرى .

مقارنة بين الانجليز والامم الاخرى

ما أبعد المسافة بين هذه السياسة وسياسة الروس الذين يعدهم الانجليز متخلفين بلا حدود ، وجماعة من المتوحشين والهمج ! فحكومة هؤلاء (الروس) لم تحتل بلداً اسلامياً واحداً ، ولا تحكمت في قبيلة من قبائله ، مثل داغستان ، أو قازان ، أو القوقاز ، أو القرغز ، أو طشقند ، أو قوقند ، أو سمرقند ، أو جزخ ، أو بني قورفان ، أو قرقُول ، أو خيوه ، أو عرانجي ، حيث لم تنجح في اجتذاب حب الناس ، ولكنها قامت بترقية

الكثيرين منهم الى المناصب العالية ، واختارت من بينهم قُواداً وضباطاً للجيش . أما في الهند فلا تجد أحداً رُقّي الى مثل هذه المناصب ، ولا الى وظائف أقل منها ، ناهيك عن ضخامة عدد الناس ، وتحكم السلطة البريطانية فيهم . ومن ثمة فأنت ، في البلاد المختلفة التي عددناها ، لا تلقى أحداً ساخطا ، ولا أحداً غير شاكر للحكم الروسي . بل لن تجد فارسيا واحداً لا يميل الى الروس ، ويثني عليهم أكثر من الانجليز ، مع أن الروس ارتكبوا أعمالاً شريرة في حق الفرس ، في الماضي ، حين استولوا على جانب كبير من أراضيهم ، في حين لم يرتكب الانجليز شيئاً من ذلك . بل إن الصحف الانجليزية تقول إن الفرس هم الذين هيَّجوا الأفغان على الانجليز .

بل ما أبعد الفرق بين سياسة الانجليز وسياسة الفرنسيين في الجزائر ! فأهل ذلك البلد أكثر رضا وسعادة ـ بغير حدود ـ من أهل الهند . وكيف لا يصح ذلك إذا تأملنا في اختلاف الطريقة التي يعامَلون بها ؟ لقد دعوا هذا العام (الفرنسيون) مشايخهم الى المعرض[١٣] . وعند وصولهم قدَّم لهم كبار مسئولي الدولة ألوانا بهيجة من الترفيه ، وأجلسوهم جميعا حسب رتبهم ومكانتهم . وأظهروا لهم أيضا ألوانا أخرى من الاهتمام ، فرطَّبوا قلوبهم . ثم طلبوا منهم بعد ذلك أن يرسلوا ممثلين لهم في الجمعية الوطنية (البرلمان) ، حتى يساهموا في تحقيق المزايا التي تحق لجنسهم .

والحق أن الأمة الفرنسية قد كسبت قلوب الشرقيين باعتدالها في صفة الأنانية ، وحبها العام للخير والبر . وبذلك يحق للشرقيين أن يحبوها في المقابل . والحق أن تلك الأمة لم تنفك تظهر عواطفها الكريمة في جميع أنحاء الشرق .

أنظر الى مصر ، التي يتخذها الانجليز طريقا الى الهند . هل تجد فيها أي مؤسسة نافعة ، وأي آثار تدل على حب الحرية المنزه عن الهوى من أصل انجليزي ؟ كلا ، فمهما كان وجود مثل هذه الدلائل فإنما تشير الى الفرنسيين . ولن تجد في مصر مدرسة واحدة للمعارف أو العلوم ، منذ عهد المرحوم محمد علي باشا ، إلا كان مؤسسها ومنظمها وناظرها فرنسيا . فتحية إلى الأمة التي تنطق أعمالها بمدحها ، والتي يشهد

(١٣) معرض باريس الدولي .

العالم كله على فضائلها وطهارة ثوبها الذي لم يدنسه تلوث الطمع .

الانجليز في مؤتمر برلين

أذكر أيضا سلوك الانجليز في مؤتمر برلين(١٤) ، حيث عرضوا للبيع بعض أقاليم تركيا . فقد تعهدوا هناك ، فضلا عن هذا ، بخرق المعاهدات ، ولا سيما ما يخص منها أهل الشرق ، الذين كانوا ـ وقتذاك ـ على قناعة كاملة بغدرهم . وكانوا حقا من الاقتناع بذلك ، الى حدٍّ أنْ لو جاءهم الآن صوت من السماء معلناً صدق وعودهم ، وتمسكهم بكلمتهم لما صدقوه ولا أطاعوه . غير أن هذا هو اسلوب الانجليز الذي لا يتبدل . فهم حين يريدون نوال شيء ، أو يفكرون في ضرر ، يسعون الى تحقيقه عن طريق المعاهدات ، وهي مجرد أدوات للتغرير والتدليس ، ولا يترددون في نقضها في سبيل خدمة مصالحهم . وهذا ما فعلوه في الهند ، ولا سيما مع سلطان لكْنو ، الذي قبضوا عليه ونقلوه الى كلكتا .

إن السياسة الضعيفة تنشأ من العقل المضطرب ، وتنبت من الشره والطمع ، اللذين ينبعان بدورهما من تلك الصفة المستهجنة ، ألا وهي الافراط في الأنانية . وقد أثارت هذه الصفة أعداء الانجليز عليهم ، وجعلت أصدقاءهم يشعرون نحوهم بالاشمئزاز . فهم ـ على سبيل المثال ـ رفضوا مذكرة أندراسي(١٥) ، وبذلك أسخطوا عليهم النمساويين الذين وضعوا تلك المذكرة بكل ما لديهم من إخلاص ، ثم تمت الموافقة عليها ـ بخط أندراسي ـ من الأباطرة الثلاثة . كما أنهم ـ أي الانجليز ـ رفضوا مذكرة بسمارك(١٦) ، وهو السياسي الذي يجب على من يرفض رأيه أن يعد نفسه لرأي أشد وطأة بذات المعنى . وبذلك أحنقوه عليهم ، ومعه جميع أحزاب ألمانيا . بل انهم أثاروا على أنفسهم كراهية جميع الوطنيين العثمانيين ، عندما منعوا جنودهم في لاميج(١٧) من تنفيذ الأوامر التي تلقوها ، وأغروا امير تلك البلاد على التنكر للسلطان . وكذلك الحال حين حرضوا العثمانيين على رفض المذكرتين ، ثم انضموا بعد ذلك الى الدول

---

(١٤) انعقد في ذلك العام ، ١٨٧٨ ، ونتج عنه تسوية مشكلة البلقان وضم قبرص الى بريطانيا . وقد دعا إليه بسمارك بهدف علاج مشكلة الحرب والتمرد في الدولة العثمانية .

(١٥) وزير خارجية النمسا .

(١٦) مستشار المانيا (بروسيا في ذلك الوقت) ومهندس امبراطوريتها (١٨١٥ ـ ١٨٩٨)

(١٧) اثناء الحرب بين تركيا والصرب عام ١٨٧٦

الأوربية الكبرى الأخرى عند قبولها لمذكرة الآستانة .

وقد حدث هذا نفسه عندما أوحوا للعثمانيين بأنهم سيعينونهم على أعدائهم اذا هم قاتلوا ، ولكنهم تركوهم ـ وهم في أشد الحاجة اليهم ـ بعد أن قادوهم الى الحرب التي يعرف الجميع نتائجها . وكذلك حين عارضوا معاهدة سان ستيفانو[١٨] ، وجاهدوا في سبيل انعقاد مؤتمر برلين ، بالرغم مما عبرت عنه جميع الصحف حين فضلت المعاهدة السابقة للعثمانيين على المؤتمر من حيث المزايا . ويمكن أن تضيف الى هذا كله أنهم ـ أي الانجليز أيضا ـ كانوا السبب في مذبحة المسلمين في البوسنة والهرسك .

لقد اكتسبوا ، علاوة على هذا ، كراهية مرَّة من جانب روسيا التي سوف تثأر لنفسها في القريب العاجل ، وذلك بإصرارهم على دخول سفنهم البوسفور ، وحشدهم القوات في مالطه ، ومحاولتهم تجاهل معاهدة سان ستيفانو ، وإعلانهم عن نيتهم للاستيلاء على ممرَّي بولان وخيبر ، واقتراحهم مَدَّ سلطتهم على جزيرة رام هُرْمُزْ ، التي تعد أقرب طريق الى ساجستان على حدود قندهار . وقد أثاروا اشمئزاز اليونانيين أيضا بعجزهم عن حفظ وعودهم لهم .

أما بالنسبة للفرنسيين فقد زال كل أثر للصداقة من جانبهم نحو الانجليز : أولاً ، لأن هؤلاء حرضوهم على الدخول في حرب مع بروسيا ، وغرروا بهم حين كان واجبهم أن يؤيدوهم . وثانيا ، لأنهم ـ الانجليز ـ تخلوا عن التوسط بينهم حتى تسببوا في تضحيات جسيمة للفرنسيين كان يمكن توفيرها لو أنهم وقفوا بجانبهم ، أو تفاوضوا طبقا للمعاهدة . وثالثاً ، لأنهم زعموا سيادتهم على قبرص التي تعد ذات مركز مهم ، كبوابة إلى سوريا وآسيا الصغرى ومصر ، كما هو معروف عامة . ومن الغريب أن نقول انهم استولوا على قبرص بحجة الدفاع عن الأراضي العثمانية في آسيا الصغرى . ولكن ألم يكونوا هم الذين تعهدوا من قبل ، مع الدول الكبرى الأخرى ، على سلامة الامبراطورية العثمانية ؟ لماذا إذن تراجعوا أثناء الحرب الأخيرة[١٩] ؟ هل فسدت تلك المعاهدة الأولى حتى احتاج الأمر الى تدعيمها بمعاهدة أخرى ؟ ولماذا حددوا

---

(١٨) عقدها الروس المنتصرون ، عام ١٨٧٨ ، مع تركيا بعد هزيمتها في حربها معهم

(١٩) يقصد : الحرب بين تركيا وروسيا عام ١٨٧٧

مسئوليتهم هذه المرة بحدود آسيا الصغرى ؟ ألم يكن ذلك لأنهم تنبأوا باهتـزاز ظلّهم فوق الهنـد ، فأسرعوا لضمان بديل في أرض قريبة من بريطانيا ؟ إن الاراضي العثمانية في أوربا ممنوعة عليهم ، بل إنهم غير مؤهلين لمناقشة وضعها ، ومن ثمة حولوا أبصارهم إلى الأقاليم الشرقية ، وتعهدوا بالدفاع عنها .

وعلاوة على هذا كله ، بدأوا في ممارسة سياستهم الهندية في تركيا ، كما جاء في تصريح منشور لقائد انجليزي . ولكن حين رأوا أن فرنسا وإيطاليا تراقبان تحركاتهم شرعوا في إثارة الخلاف بينهما ، حتى يبعدوا أنظارهما عنهم ، ويظل الساحل لهم وحدهم . ثم وهبوا تونس لفرنسا ، كما جاء في الأنباء ، ولكن الفرنسيين من الذكاء بحيث لا تنطلي عليهم الخدعة ، ومن الحرص بحيث لا يؤخذوا على غِرَّة . كما أنهم ـ الانجيز ـ أشعلوا غضب الايطاليين ، أحفاد الرومان ، الذين كانت بريطانيا أشد ما يبغضون من توابعهم ، بسبب احتلالهم قبرص التي كانت من قبل إحـدى ممتلكات الرومان ، ولا تزال آثارهم باقية فيها ، وكذلك بسبب تحركاتهم الأخيرة في مصر .

نصيحة إلى الانجيز

والآن ، فهذه الأمور التي صنفناها أمامكم تشكل عللاً كثيرة ، مباشرة وغير مباشرة ، تدل على سقوط السعادة ، وهي بعض ثمار الأنانية الفاضحة .

لا جدال في أن هذه الصفة تحكمها الارادة ، ومن ثم فإن من تكون فيـه الأنانية فيستخدمها في إيذاء الغير ، إنما يكون سلوكه باعثاً على الاستهجـان ومـوجبا للندم . ولذلك يجدر بحكماء الشعب الانجليزي العـظيم أن يتـدارسوا الأمر فيما بينهم ، وأن يرجعوا فوراً عن طريق الافراط الى طريق الاعتدال ، وأن يخلصوا أنفسهم بعد ذلك من فكرة أنهم لا يخطئون في أفكارهم ، وأن يكفوا عن خداع أنفسهم حول مبلغ ممتلكاتهم الشاسعة، واستمرارها المطول تحت مظلة نفوذهم.

واأسفـاه ! سوف يمضي وقت طويـل قبـل أن يصحـح هؤلاء القوم سلوكهم ، إلا اذا شاء الله غير ذلك . ففي اعتقادنا أن حبهم لذاتهم ، وشرهَهَم ، وطمعهم ، في زيادة مطّردة .

هل يمكن لأحد ، حقا ، أن يعجز عن ملاحظة هذا الطمع عند الانجليز في اصرارهم على الاستيــلاء على المـرات الواقعـة على حدود الامـارة الأفغـانيـة ، وفي تجهيـزاتهم القتالية لغزوها ، بحجة أنها توشك على الدخول في حلف مع روسيا ، محاولين ـ في الوقت ذاته ـ إخفاء دهائهم وحيلهم التي لا تخفى على أحـد ، مدعين أنهم مجبورون ، بالرغم من إرادتهم ، حتى يتقـادوا العـدالة والنزاهة ؟ غير أنهم إنقادوا الى هذه السبيل ، بغض النظر عن عواقبها ، بفعل غرورهم وسياستهم التي لا تحيد . وسوف نميط اللثام الآن عن ضعف حجتهم هذه ، ونوضح بعض القضـايـا الممكنة لأغراضـهم الراهنة ، حتى نميز بين الحق والباطل ، والعادل والظالم .

أحداث الماضي الأفغاني

منذ نحو اثنين وعشرين عاما جمع ناصر الدين شاه جيشا ، وزحف به الى هراة[٢٠] فاستولى عليها . وأبدت الحكومة الانجليزية قلقها إزاء ما حدث ، وخشيت على سلامة وضعها في الهند . وقد ترتب على ذلك أنها أرسلت أسـطولا الى الخليـج الفارسي[٢١] ، وأعلنت الحرب على فارس ، واحتلت جملة نقاط من أراضيها على الساحل . وبعد نحو عام تم الصلح بين البلدين ، وكان من بين شروطه أن يكون حاكم هراة أفغانيا ، وأن تكون حاميتها من الأفغان ، بالرغم من أن الاتفاق تم على أن يظل ضرب العملة باسم الشاه ، وأن يستمر ذكر إسمه في الصلاة بالمسجد . وتنفيذا لهذا الاتفاق عين السلطان محمد خان ، صهر أمير أفغانستان وابن عمه حاكمـا على ذلك الاقليم . ومع ذلك لم يقض هذا على مخاوف الحكومة الإنجليزية ، ولا هدَّأها ، فكانت خطوتها التالية أن تحرض دوست محمد خان على الاستيلاء على هراة ، بعد أن وعدته في حالة نجاحه بأن يتلقى منهـا ، هو وخلفـاؤه من ذات الأسرة ، إعـانة شهرية قدرها مئة ألف روبية . ثم جند الأمير جيشا ، وبعد قتال مطول توفاه الله ، ولكن الاقليم لم يتم الاستيلاء عليه إلا بعد وفاته ، واستمرت الحكومة الانجليزية في ارسال الاعانة المذكورة ، بانتظام ، كل شهر . وتلا ذلك أن وقع النزاع بين

(٢٠) مدينة أفغانية معروفة ، تكتب في العربية احيانا بتاء مفتوحة .
(٢١) الخليج العربي ، كان يسمى الفارسي في ذلك الوقت .

أبناء الأمير الذين على قيد الحياة : محمد أفضل خان ، ومحمد أعظم خان ، وشـير علي خان ولي العهد ، وتطور النزاع في النهاية الى فتنة . وعندذاك أوقف الانجليز المبلغ الموعود .

المباحثات الأخيرة مع الأمير

ومـع ذلك ، حين استقـرت سلطة محمـد أعظم خان تماما ، أحس الانجليز بميل من جانبه نحو روسيا ، فدخلوا في مراسلات مع شير علي خان ، ووعدوه بتجديد المنحة إليه إذا هو نجح في الوصول الى الحكم ، والتزم التوقف عن اتباع سياسة أخيه . وعندما نجح ، ونشر سلطته في جميع أنحاء أفغانستان ، دعوه إلى أمبالا ، ورتبوا له استقبالا حافلا ، ودفعوا له ما وعدوه به ، ثم استمروا في الوفاء بالتزامهم الذي فرضوه على أنفسهم ، حتى أصابتهم ـ مرة أخرى ـ نوبة من الشره والطمع ، بسبب تجدد خوفهم وخشيتهم اقتراب الروس من حدودهم ، وهو خوف يرجع إلى وعيهم بضآلة ما في أيديهم من حب الهنود ، الذين يضمرون لهم الكراهية الدفينة نتيجة ما استحلوه لأنفسهم ـ بغير وجه حق ـ من أمورهم .

ولما كانوا يجهلون الدواء الصحيح لهذا الداء ، ألا وهو بذل الجهود المضنية لضمان الود عند الناس ، فقد قرروا الاستيلاء على ممر خيبر ، وكذلك ممر بولان ، عند تخوم بَلوخِستان ، وهي قطر كان تحت حماية أفغـانستـان منـذ عهـد أحمـد شاه ، بل وغـير هذين من ممرات على حدودهم ، كي يرضوا نزعتهم الى الطمع ، متخيلين ـ دون جدوى ـ أنهم بذلك يداوون داءهم العضال ، ويهدئون جميع مخاوفهم .

وحتى عنـدذاك ، حين تخيلوا خطأ أنهم يعملون تحت راية الحق ، وأقنعوا أنفسهم بأنهم لا ينوون أن ينحرفوا قيد خطوة عن طريق الحق ، إذا بهم مرة أخرى يعودون الى الحيلة والخديعة ، فخاطبوا الأمير ، بعد توقف المنحـة ، بمـا معنـاه : « لسنا مقتنعين بما تبديه نحونا من ود واهتمام » وحتى إذا أكدت هذا لنا فلسنا نثق في مقدرتك على الدفاع عن بلدك ضد الغزاة . فإذا رغبت ـ بناء على هذا ـ في استمرار العلاقات الودية التي بيننا وبينك ، وزيادة الاعانة ، فلابد أن تُسلِّم الممرات لنا » [هل هذه روايـة أفغانية لما قامت به بعثة السير لويس بيلي L. Pelly ، والهدف من إحلال الحدود « العلمية » محل « الحدود

العشوائية »[٢٢] ؟]

وكمـا كان المتـوقع ، لم يلق هذا الاقتراح استحسانا عند الأمير ، فنشأت ـ بسبب ذلك ـ حالة من البرود بينه وبين الحكومة الانجليزية . وفي ذلك الوقت حدث أن وصلت الى أفغـانستـان بعثـة روسية تحمل المجاملات المعتادة بين الملوك واستُقبلت بالحفاوة المعتادة . ولكن هذه الحادثة ضَخَّمت مخاوف الحكومة الأنجليزية ، فاستغلتها في شن حرب على الأمير . وأرسلت الى الامارة رسولاً[٢٣] يحرسه ألف فارس ويصحبه مئة ضابط ومهندس ، وذلك بعد أن أصبح من المعلوم أنَّ الأمير لا يسره استقبال بعثة كهذه . وقد ساهمت جملة اعتبارات مهمة في توجيه سلوكه إزاء هذا الموضوع . فقد فكر في الطابع غير العادي الذي اتخذته البعثة ، على خلاف المعتـاد من البعثـات بين الدول ، حيث لا تزيـد على عشرة أشخاص أو نحو ذلك ، واضطر الى منع مرورها ببلده ، خشية أن تبدو مسيئة في نظر أهله ، وحتى يخمد فتنة أوشكت على الاشتعال بسبب ذلك .

واتخـذت الحكـومـة الانجليـزيـة ـ كعـادتها وبناء على تصميمها السابق ـ رفض الأمير ذريعة لانكار المعاهدة ، وقطع العلاقات الودية ، وشن الحـرب ، وحشـد جيش على حدود أفغانستان . وفي تلك الأثناء شرعت الصحف الانجليزية في تهديد الأمير بالطرد المهين من أراضيه .

كانت هذه حيلة الانجليز عندما قرروا غزو أفغانستان . ونحن نهيب بجميع مُحبي العدالة ، وجميع رجال السياسة ، وسائر صحف أوربا ، أن تعلن ما إذا كان الأمير مضطرا لاستقباله مثل هذه البعثة مقابل خطر اشتعال فتنة في إمارته ، وما إذا كان ثمة قانون أو عرف سياسي يجبره على التخلي عن جزء من أراضيه .

النتائج المحتملة للحرب

يمكن استنباط النتائج المحتملة لخطة الانجليز الراهنة من جملة

(٢٢) ما بين القوسين للمترجم الانجليزي . وتعبير « الحدود العلمية » Scientific Frontiers من وضع دزرائيلي (لورد بيكونسفيلد) رئيس الوزراء في ذلك الوقت . وكان يعني به توسيع حدود الأملاك الهندية الى ما وراء مفازة خيبر حتى مدينة كابول ، اذا اقتضت الضرورة . انظر : النحلة ١٥ ديسمبر ، ١٨٧٨ ، ص ١٩٥ .

(٢٣) كان الرسول او السفير هو جوزيف تشيمبرلين (١٨٣٦ ـ ١٩١٤) السياسي الذي تحول من الاحرار الى المحافظين ، وابو نيفيل رئيس الوزراء من ١٩٣٧ الى ١٩٤٠ .

اعتبارات :

أولا ـ يعلم كل من له علم بأخلاق البشر وسجاياهم أن الأفغان جنس قوي ، شجاع ، حازم ، غيور على شرفه ، متحمس في عقيدته ، عازم على عدم الخضوع لحكم أجنبي طالما أن يديه قادرتان على حمل السيف . ومن الصعب إدراك أن الانجليز يمكن أن ينسوا المذاق المرَّ للنصال الأفغانية ، في وقت كانوا هم فيه مسلحين بأكمل البنادق والمسدسات ، ولم يكن عند الأفغان أسلحة نارية على الاطلاق . وكيف يمكن أن ينسوا ذلك حقا ، والجبال التي حملت الشهادة على النزاع سبحت في دم مواطنيهم ، وعجَّت وديانها بعظامهم وجماجمهم ؟ ماذا يدعوهم مرة أخرى الى ذلك البلد الذي مروا فيه بتلك التجربة الشنيعة ؟ تقول الصحف الانجليزية : « لكي نؤدِّب الأمير ونعاقبه » ، ولكنها تقول ذلك متناسية ـ فيما يبدو ـ حقيقة أنه يملك ما يصل الى ٦٠ الفا من الجنود المنظمين جيدا ، المجهزين تجهيزا كاملا بالأسلحة النارية ، فضلا عن ٣٠ ألفا آخرين يوجد بينهم ـ كما أبلغني شخص موثوق به وصل مؤخراً من هناك ـ ضباط ومهندسون روس .

صدقوني أن الانجليز وضعوا أنفسهم في موضع حرج ، وهم مندفعون بغير تفكير الى دوامة من المتاعب ، يصعب عليهم الخروج منها .

ثانيا ـ ينساق الانجليز الى الحرب دون أن يتأكدوا من أنهم لن يضطروا الى التراجع بجيش منقوص . فما أفدح العواقب اذا حدث ذلك ! سوف تشتعل نار الثورة في الهند ، مثلما حدث حين اقترب جيش الشاه من هراة، لا سيما إذا أعلنها شيخ الجبال، أخوند السَواطي[٢٤]، حرباً دينية ، ودعا الناس الى الجهاد .

ثالثا ـ بعد المنافسة التي قامت بين الانجليز والروس على صداقة الامير ، ليس من غير المحتمل أن تنتهز روسيا الفرصة ، عند انفجار المعارك ، فتعقد حلفا سرِّيا مع الأمير ، وتدخل معه في معاهدة سرية ، هجومية ودفاعية ، يكون شاه ايران أيضا طرفاً فيها ، وتقضي بأن يساعد كل طرف الآخر على استئصال حكم الانجليز في الهند ، واقتسام

(٢٤) اسم الزعيم الافغانستاني الديني ، نسبة الى بلدة سواط

أراضيها فيما بينهم . وربما خدعتهم (الانجليز) التصريحات الرسمية للروس ، التي قرروا فيها مراراً وتكراراً أنهم لن يمدوا سلطانهم الى أوركانج وخيفا ، وأنهم لن يقيموا تحصينات في خِوارِزْم ، في حين أنهم ـ كما ظهر فيما بعد ـ كانوا يفعلون العكس تماما . وعلاوة على ذلك ، فمن المحتمل جداً أن يكون الأمير قد حقق تفاهماً مع أولئك النَوَّاب والراجوات الهنود الذين لا يحرصون إلاّ على انتظار فرصة تمكنهم من قتال الانجليز ، ومسح عار العصيان الأخير هناك ، عندما دُنِّست معابدهم وذُبِح زعماؤهم ورؤساؤهم الروحيون ، وعندما قتل الانجليز ـ برغم ادعائهم العدالة ـ ستين شخصا ، شكاً منهم في أن يكون كلّ من هؤلاء نانا راو صاحب ، وحين حولوا القصر الملكي في دلهي الى اسطبل لماشيتهم ، ومخزنا لمهماتهم وأدواتهم الحربية ، مثلما فعلوا أيضا مع الكلية المشهورة التي كانت مخصصة للشعراء الدينيين في لَكْنو .

رابعا ـ ليس من غير المحتمل ، فوق هذا كله ، أن يقوم الأفغان ـ بدافع من الكراهية والحقد الخالصين ـ بتسليم بلادهم للروس ، إذا اضطروا الى ذلك ، وعندئذ يجد الانجليز أمامهم شيطانا لا حليفاً .

خامسا ـ اذا افترضنا ان ينجح الانجليز في دخول إفغانستان أفلا يعبر الروس جبال الأوكسوس ، ويحتلون بَلَخ بحجة أنها من أقاليم بخاري ، وأن أهلها من الأوزبك ، وأن الأفغان ضموها الى بلادهم دون حق ، وبذلك يجبرونهم على تسليمها ؟ وعندئذ سوف تسقط الميناء في أيدي الروس ، ويحولونها الى معسكر لجندهم الاحتياطي ، يرسلون منه قواتهم الى هراة وقندهار ـ لأنه لا يوجد أي عقبات طبيعية في ذلك الطريق ـ ثم يرسلون قوات من فرسان القوزاق للاستيلاء على ممرات هندكوش ، ويسيطرون على باميان التي تعد مفتاح كابول .

سادساً ـ اذا نجح الانجليز في الاستيلاء على أفغانستان ، فإنهم إمَّا أن يظلوا بها أو يضموها الى أراضيهم ، وفي الحالتين سوف يشاركون الروس في الحدود ، ومن ثمة يعرضون أنفسهم الى نزاعات وأخطار لا نهاية لها . ومن الناحية الأخرى ، اذا انسحبوا من البلاد بعد إخضاع الامير ، وطيِّه تحت جناحهم ، فإن أي حرب تعلن عليه ستكون حربا عليهم . ولكن ، إذا هم قنعوا باحتلال الممرات ، تاركين الامارة وشأنها ، فسوف يكونون في هذه الحالة قد نجحوا في تحويل الأفغان ـ الشعب

المحارب ، الذي لا يساوم على كراهيته ، المصمم على القصاص والثأر ـ إلى أداة جاهـزة في أيدي روسيا لاستخدامها كيفما شاءت ـ ومن ثمة تكون النتيجة إزاء الانجليز أسوأ وأفدح مما لاقوا من قبل .

ولكن اذا اعتـرض معتـرض هنا بأن الانجليز سيحمون أراضيهم باحتلال المرات المؤدية الى الهند ، وبعدها لا يقعون في خوف من الروس أو الأفغان ، فإننا نجيب أولا : إن الاستيلاء على المرات لن يمنع القبائل الأفغانية التي تقطن الجبال المطلة على الهند من الاغارة المستمرة على الأراضي البريطانية . ونجيب ثانياً : اذا رغب الروس ، في ظل الظروف التي فرضناها ، أن يعلنوا الحرب على الانجليز ، فسوف يتحالفون مع الأفغان ، ويتجمعون في قندهار ، ويزحفون من هناك الى فوشاخ ثم قلعة ناصر دون أن يواجهـوا أي اعتـراض من شعب بولان ، ومن هنـاك يتحـركـون نحـو السنـد . أو قد يتخـذون طريق جونداوا ، أو طريق ساجستان ، المؤديتين الى قلعة ناصر ، حيث لا توجد أي عقبات . وهنا لا نملك إلا أن نتساءل : ما الذي دفع الانجليز الى التفكير في احتلال جزيرة رام هُرْمُزْ ، بغية جعلها محطة ومخزنا لقواتهم ومهماتهم الحربية ، ومنها يزحفـون ـ عند الاحتياج ـ بجيش يسد الطريق المؤدية الى الطريقين اللتين ذكرناهما نحو جونداوا وساجستان ؟ إن هذا التحرك يحمل عداء صريحا نحو الشاه ويدفعه الى التحالف مع روسيا . وفوق هذا وذاك فانه قد لا يفيدهم ، لأنه ليس من المرجح ـ في حالة غياب العوائق الطبيعية ـ ان يقدروا على مواجهة الروس والأفغان مجتمعين . بل يجب أن نضع في أذهاننا أنهم اذا استولوا على المرات ، فلابد أن يدعوها تحت حراسة الجنود الهندوس ، الذين تنكر للولاء منهم مئة الف جندي ، نتيجة سوء المعاملة من الانجليز زمن العصيان الذي سبقت الاشارة اليه ، وأداروا في وجوههم (وجوه الانجليز) الأسلحة التي زودوهم بها لمحاربة أعدائهم .

سابعـا ـ سوف يحـرم الانجليـز أنفسهم ، باعـلانهم الحرب على أفغـانستـان ، من كل أمل في صداقتهم من جانب الحكومة العثمانية ورعاياها المسلمين . اذ كيف يتوقعون ، في مثل هذه الحال ، أن يرتبطوا بالصـداقـة مع السلطان العثمـاني ، الذي يبـايعـه المسلمـون بلقب الخليفة ، وهو مركز ديني ، لا يستطيع صاحبه أن يداوم على عقد علاقات

ودية مع أولئك الذين يشنون حربا على إمارة مسلمة ، أكثر ولاء للاسلام من سواها ؟ إن السلطان الآن يسعى الى الحصول على تأييد المسلمين عامةً ، ولكنه سوف يفشل في ذلك لا محالة اذا هو امتنع عن الوفاء بواجبات مركزه . وكيف يستطيع الانجليز أن يجازفوا بالاعتماد على إخلاص رعايا السلطان المسلمين ، بعد أن مَرَّ هؤلاء بتجربة مرَّة معهم ، فضلا عما يرونه الآن من إعدادهم لمحاربة إخوانهم المسلمين ؟ إنه لمن الغرابة أن الشعب الانجليزي يصر ـ بالرغم من كل سلوكه هذا ـ على أن يُعِّد نفسه مكلفا بحماية المسلمين والدفاع عنهم ، في حين أن المسلمين قاسوا الأمَرَّين على أيديهم ، كما لم يقاسوه من قبل ومن بعد على أيدي الآخرين . فهم ، الانجليز ، الذين حرموهم من الهند ، تلك البلاد العظيمة الشاسعة ، الخصيبة في منتجاتها ، التي يصل سكانها إلى أكثر من مئتي مليون ، منهم ٥٠ مليونا مسلمون . وهم الذين تاقوا ـ فضلا عن ذلك ـ الى الاستيلاء على أقاليمها الباقية ، إلى حد أنهم أعدوا العدة ، أخيرا ، لانشاب مخالبهم فيها . وكان من الممكن أن يفعلوا ذلك ما لم تقم مقصات العدل والنزاهة الفرنسية بتقليم هذه المخالب ، وحجب مخططاتها .

أجل ، إنهم يقومون بحماية المسلمين ، ولكن كما يحمي القصَّاب حَمَلاً من الذئاب ، حتى يذبح هو الحمل ويسلخه . ومن الغرابة أن ينسى المسلمون هذا كله ، ويظنوا أن الروس أفظع أعدائهم ، في حين أن هؤلاء لو غزوا بلاد المسلمين مئة سنة لعجزوا عن أن يستحلوا لأنفسهم هذه الغنائم التي استحلها الانجليز .

إن ما سطَّرناه حتى الآن لم ينبع من تعصب ولا من حقد ، ولكنه بيان لا زخرف فيه ، وشرح لحقيقة حال القضية . وفي نيتنا أن نُتْبِع هذه المقالة بأخرى نشرح فيها شخصية الأفغان ، وعاداتهم ، وأسلوب معيشتهم ، وشكل حكومتهم ، حسب ما يقتضيه كلٌ من هذه الموضوعات .

رَد على رد

[بعد ظهور مقالة « البيان في الانجليز والأفغان » بدات جريدة « مصر » في تتبع رد الفعل الذي أحدثته ، ولا سيما بعد ظهورها مترجمة في لندن . فقد نشرت في ٢٨ نوفمبر ١٨٧٨ (ص ٣) تعليقا بعنوان « مصر وأفغان والانجليز » ، وفيه نقلت تعليق مجلة « النحلة » اللندنية على مقالة الأفغاني . وفي ذلك التعليق ذكر محرر « النحلة » :

« اطلعنا على فصل نشرته جريدة اسمها مصر (وهي نشرة تطبع بالاسكندرية ، ومحررها الفاضل سليم أفندي نقاش ، ومسئولها الفاضل أديب افندي اسحق) قد عني في تاليفه وتنقيحه وتنميقه السيد الفاضل جمال الدين الأفغاني . وقد تحرى فيه التعقب والتنديد في سياسة بريطانية وتعلقاتها مع افغانستان .

« ولا ريب أنها نبذة غراء قد نسج ديباجها يراع عالم فاضل متحنك في معقدات السياسة . ولكن قد جعله الافراط في حب الوطن أن يتساهل مع يراعه حتى يكبو . ولا غرو أن الجواد قد يكبو . فقد رمى الانجليز بأمور لم يدنسوا عرضهم بها ، وحط بمقامهم بين الأمم الى الحضيض ، ورفع مقام الروس إلى القبة الزرقاء . فبعد أن قرانا تلك النبذة طويلا ، واستوعبناها مليا ، وقابلنا فحواها مع الوقائع التاريخية ، لاح لنا أن في بعض اقوالها غلوًا يجب على العاقل أن يتحاشاه ، فتناولنا النبذة ، وعرضناها على بعض رجال السياسة البريطانية .

« وبعد أن احاطوا بها علما رفعوا ملخص فحواها الى وزارة الخارجية ، وافهموها شعائر الأفغانيين ، وشعائر جرائد الشرق في حق الأمة البريطانية . ثم عني حضرة القس جرجس باجر الفقيه بترجمة النبذة حرفا بحرف من اللغة العربية الى اللغة الانجليزية ، فجاءت ترجمة فصيحة ، ولكن مستطيلة جدا ، استغرقت نحو ١٤ صحيفة من قطع الربع بالحرف الانجليزي . ونشرتها برمتها جريدة اسمها « فورتنيتلي » فلما جالت النبذة بين أيدي الانجليز ، واطلعوا على فحواها وعلى ما رماهم به زعيم الأفغانيين من الدسائس والمخاتلات الى غير ذلك ، هاجوا وماجوا ، واضطربوا جميعا .

« ولا بد لكتابهم من التشمير عن ساعد الجد للرد على تلك النبذة ، وتبرير أنفسهم من جميع التهمات التي شوه بها عرض هذه الأمة ذلك الأمير الفاضل زعيم الأفغانيين وأدبائهم . وسوف نذكر ملخص ذلك الرد بوقته » .

من الواضح في هذا التعليق الموجز أن مقالة الافغاني نشرت مترجمة في أكثر من صحيفة انجليزية ، فضلا عن « النحلة » التي نشرت ملخصها بالعربية والانجليزية .

ولكن جريدة « مصر » لم تنشر هذا التعليق وحده ، فقد بعثت به ، قبل نشره ، إلى الأفغاني نفسه الذي علق عليه . وهذا هو تقديم الجريدة للتعليق :

« وقد اتصلت هذه المقالة (تعليق « النحلة ») بحضرة أستاذنا النسيب الفيلسوف السيد جمال الدين الافغاني صاحب المقالة المنوه بها آنفاً ، فبعث الينا بالرسالة الآتية ، راسما باثباتها في هذا العدد إثر مقالة النحلة الغراء . وهي بشائق مبناها وفائق معناها : »

وقبل أن نورد رد الأفغاني يحسن أن نشير الى بعض ردود الفعل الأخرى . فقد نشرت جريدة « مصر » في ٢٦ ديسمبر ١٨٧٨/ (ص ٣) ترجمة لما كتبته صحيفة « أوفرلاند ميل » ، بعددها رقم ١١١٠ ردا على الأفغاني . كما نشرت مجلة « النحلة » مقالا آخر في الرد على رد الأفغاني في ١٥ ديسمبر ١٨٧٨ (ص ص ١٩٥ - ١٩٦) وفي ذلك المقال ذكر محررها إن مقالة الأفغاني حول سوء أعمال الانجليز لا ينطبق على كل الانجليز ، وإن حديثه عن التغرير والتلبيس عند الانجليز لا يصدق عليهم ، فعندهم « من حرية الآراء وحرية المطابع وحرية الجرائد » ما فاقوا به غيرهم على حد قوله . وأبلغ دليل على ذلك انهم نشروا هجوم الأفغاني عليهم . كما ذكر ان جريدة « هومواردميل » التي نشرت المقالة الأولى بالانجليزية أثنت على « كاتبها اللبيب ، وقرت له بطول الباع في مداولة اليراع » ، وأورد ترجمة ما جادت به الجريدة في مدحه ، وإن كنا لم نعثر عليه في الأصل الانجليزي[٢٥] . ثم اختتم مقالته بقوله : « ايعتقد بعد هذا كله بأن الانجليز طُرًّا قوم لا إنصاف لهم ولا عدالة عندهم ، وأن سعادتهم قائمة في التغرير والتلبيس ، ونصب فخ المواربة وشرك المخاتلة » ؟ وقد نشرنا في هذا الجزء ملخص المقالة الموما اليها بالانجليزية »

والآن ، نعود إلى رد الأفغاني على رد النحلة وصاحبها . وهذا نصه :]

رأينا في جريدة النحلة فصلا لحضرة محررها الفاضل (القس لويس صابونجي) حجة الشرقيين على الغربيين ، وبرهانهم عليهم ، خصوصا على المتصلفين من الانكليز الذين طالما رموا الشرقيين بالتبربر والتوحش معنونا بعنوان (مصر والانكليز وأفغان) ذكر به أنه اطلع على مقالتنا المدرجة في بعض أعداد « مصر » السابقة المتعلقة بالانكليز والأفغان . وأمعن فيها النظر فحكم بأن الافراط في حب الوطن قد قادنا للتساهل مع اليراع والغلو في مواضع منها مستدلاً بأن بعض ما ذكرناه في شأن أمة الانكليز غير منطبق على الوقائع التاريخية . ثم ذكر إنه بعد ما رفع فحواها لوزارة الخارجية ترجمها حضرة الفاضل القس (جرجس باجر

(٢٥) ولكننا عثرنا عليه في رد صحيفة « أوفرلاند ميل » ، ويبدو ان صابونجي قد سهى عليه .

الفقيه) حرفا بحرف . وبعد ما نشرت في جورنال (فورتنيتلي) واطلع رجال الانكليز على مضامينها اضطربوا وهاجوا وماجوا ، وإن كتابهم لابد أن يشمِّروا عن ساعد الجد للرد على ماذُكِرَ في تلك المقالة .

وقد رأيت من الواجب أن أعلن لحضرة القس الفاضل المحرر أنني لا أحسب أن حب الوطن بل ولا حب الذات يعـدل بي عن سَنَن الحق ، ويحـول بيني وبـين حقيقة الواقع ، وأن الأمور التي بَيَّنتها في أحوال الانكليز إنما هي بنسبة الواحد إلى الألف من أعمالهم ـ ولي على ذلك براهين واضحة وحجج بينة أقيمها عند الاقتضاء . ومع ذلك لا أنكر على حضرته أنه عند التطبيق قد رأى مخالفة بين بعض مضامينها وبين ما أنْبَأ عنـه بعض التواريخ ، ولكن غير خاف على ذكائه أن تلك التواريخ من رَقَّمَتْها أيدي حب الذات الانكليزي بأقلام العُجْب ومداد الغرور ، فلا جُرْمَ أنها لا تحكي الحق ، ولا تنبيء عن الواقع . وكيف تطيب نفوسهم بكشف حقيقة أعمالهم ، وقد علموا أن السعادة في التغرير والتلبيس ، ونَصْب فَخِّ المواربة وشَرَك المخاتلة .

وإني أقدم واجب الشكر لحضرة القس الفقيه ، حيث عُنِيَ بترجمتها لتعلم الأمة الانكليزية أن أحوالها غير خافية على الأمم الشرقية . وأما ما ذكره من هيجانهم لدى الاطلاع عليها فقد كنا نتحققه لما أن ذلك شأن المريب إذا أحس شعور غيره بما سينطوي عليه . وأما ما سيقيمه كتَّابُهم من التمويهات والمغالطات ، فلا نراها إلَّا حبال السحرة . وسيبتلعها عِصيُّ الحق وبرهان الصدق بمقالاتٍ بل برسائل تنشر لكشف حقيقة سيرهم وتبين واقع أمرهم .

العلة الحقيقية لسعادة الانسان

[نشرت هذه المقالة بجريدة مصر في ١٥ نوفمبر ١٨٧٨ . وقدمتها الجريدة بهذه العبارة :

« لسيدنا آية العصر ، وسر حكمة الدهر ، ودرَّة تاج الحكماء ، وواسطة عقد البُلَغـاء ، من لا تستوعب وصفَه الأقلامُ وما نسقَّت ، والطُّروس وما وَسَقَت ، استاذنا الأكبر ، الفيلسوف الأشهر ، السيد جمال الدين الأفغاني ، أعزَّه الله »

وقد أعاد محمد رشيد رضا نشر المقالة في مجلته « المنار » في عدد ٢٨ يناير ١٩٢٢ . واحتفظ لها بعنوانها الأصلي ومقدمة جريدة « مصر » السابقة . ولكنه أضاف هامشا قال فيه :

« هذا الأثر النفيس لأستاذنا موقظ الشرق ، رحمه الله ، كان فاتحة لكتاب « البيان في الانجليز والأفغان » الذي كان مما أملاه حكيمنا ، ونشر في جريدة « مصر » التي أصدرها بأمره الأديبان السوريان الشهيران سليم النقاش وأديب اسحق . وكانت لسان حاله ومظهر آرائه واقواله . ثم طبع ذلك في كتاب مستقل بمطبعة جريدة مصر بالاسكندرية سنة ١٨٧٨ ، وكتب تحت الاسم هذه العبارة :.

« لسيـدنـا آية الحكمة ، مجلى الجمال والجلال ، ومظهر محاسن الكمال ، أستـاذنا الفيلسوف ، الطاهر الأرومة ، النسيب ابن النسيب ، السيد جمال الدين الأفغاني ، أعزه الله »

« وقد كان لمقالات « البيان » المذكورة تاثير في الأمة البريطانية ، حتى ردت عليهـا جرائدها ، فرد هو عليها رداً عرفت به عظيم شانه . وكان ذلك السبب الأول لمعرفة اسمه في أوربة »

ويتضـح من هذا الهـامش أن المقـالة نشرت ـ بعـد ظهورها في الجريدة المذكورة ـ ضمن كتاب « البيان في الانجليز والأفغان » الذي ظهر عقب ظهور المقالة . وسوف نعود إلى هذا الموضوع عند الحديث عن كتاب الأفغاني الذي ظهر بعنوان « تتمة البيان في الانجليز والأفغان »

أما نص المقالة التالي فقد أخذناه من النسخة التي نشرتها « المنار » ، وهي نسخة مذيلة بالهوامش ، ومنقحة المتون .]

إن الممكن بالامكان الخاص (وهو الذي لا يلزم من وجوده ولا من عدمه محال) يكون وجوده بوجود علته وعدمه لعدمها ، ولا ريب في أن السعـادة من المـاهيات الممكنة بالامكان الخاص ، وأنها العلة الغائية لحركة كل فرد من أفراد الانسان حسية كانت تلك الحركة أو معنوية ، إذ

لو لوحظت مساعيه آناءَ الليل وأطراف النهار ، وأخْذه بوسائل الحرف من زراعـة وصنـاعة وتجارة ، وجده في تحصيل العلوم والفنون ، وارتكابه المصاعب ، في نيل المراتب والمناصب ، لما وجد لها من باعث أو داع سوى طلب السعادة ، مع أنك لا تجد من نالها أو دنا منها ، ولو تنقل في مراتب الشئون ، وتقلب في درجات التطورات ، وما ذلك إلا لعدم تحقق علتها ، فعلينا أن نبحث عن تلك العلة وعن الأسباب التي أوجبت عدم تحققها ، حتى يتبين وجه ضلال طُلَّاب السعادة عن أن يصيبوها فنقول :

إذن بين السعادة والصحة شبهاً كليًّا ، فكما أن صحة الجسم هي نتيجة ومعلولة للتناسب الطبيعي بين أعضاء ذلك الجسم وجوارحه وكمال الاعتدال فيما تكونت عنه تلك الأعضاء ، وحسن قيام كل عضو منها بأداء وظيفتـه مع مراعاة اللوازم والشروط الخارجية من الزمان والمكان والمطعم والمشرب والملبس فيكون زوالها لزوال هذه الأمور كلها أو بعضها ـ كذلك سعادة الانسان هي معلولة للتناسب الحقيقي في الاجتماعات المنـزلية ، وقيام كُلٍّ من أركان المنزل بأداء وظيفته ، وللتعادل التام في الائتلافات المدنية بأن تكون المدينة فيها من الحرف والصنائع ما يكفيها مُؤنَـة الافتقـار من دون نقص أو خروج عن حد حاجتها ، مع حسن التعامل بين أرباب تلك الصنائع ، وأن تكون أحكامها تحت قانون عدلٍ تساوى فيه الصغير والكبير ، والأمير والمأمور ، وللارتباطات العادلة بين الدول بأن تقف كل دولة عند حدها ، ولا تتعدى على حقوق غيرها ، وأن يُمَهِّد سبيل التواصل بينها وبين باقي الدول لكمال التعاون والتوازر بين نوع الانسـان وانتفـاع كلٍّ من الآخر ، فيكون حصولها على السعادة بحصول تلك الأمور وفقدها لفقد جميعها أو بعضها .

وهذه الأمور ، وإن كانت ممكنة الحصول ، وجد الناس في التماسها ما استطاعوا إلَّا أن هناك مانعا من الوصول إليها ، وهو اعتقاد كلٍّ كمال نفسه ونقص غيره ، ونظره إلى أفعاله بعين الرضى وإلى أفعال غيره بعين السخط ، وزعمه أنه ما حاد عن حد الاعتدال ولا أخَلَّ بشيء من واجباته وشئونه ، ولا تقاعدت همته عن أداء وظائفه في العالم الانساني ، ويتمحل لاثبـات ذلك بمـا تسوله له نفسه من الحجج والبراهين ، وإن أصابه العناء ، ونزل به الشقاء ، حسبهما من تعاون الغير فيما يلزمه وإهماله ما يجب عليـه ، مُبَرِّئًا نفسه من أسباب ذلك ، حتى لو أغفل شأناً من

شئونه يزعم أنه قد سدت أبواب الامكان ، وتعذر عليه القيام به ، ولو انتهك محظورا من محظورات لادعى أنه لا اختيار له فيه ، وانما الضرورة هي التي ساقته الى ارتكابه ، فهو مجبور لا مختار ، مع أنه لا يلتمس للغير عذرا فيما يفوته أو يقع منه ، ولو كان في نفس الأمر مجبورا . ومن ثم وقع التضارب في الآراء والتدافع في الأفعال والحركات ، وعمل كُلٌّ على نقيض الآخر ، فارتفع التناسب ، وانعدم التعادل ، وذهب الارتباط .

أنظر إلى حال الآباء مع الأبناء ، والسادات مع الخَدَمة ، كيف أن كلاًّ منهم ، مع علمه بأن السعادة المنزلية إنما تُحَقَّق بأدائه ما يجب عليه ، وجعل حركته من متممات حركمات الآخر ، يخالفه في أفعاله ، ويضاده في آرائه ، معتقدا أنه لو لم يقصِّر ذلك الآخر في أداء الحقوق المفروضة عليه ، لاستقرت الراحة المنزلية ، وارتفع العناء ـ وإلى حال المشتركين في المدينة فإن كل واحد مع جزمه بأن الراحة والنجاح إنما يكونان بإحكام الصنعة وتهذيبها وحسن التعامل ، وكف يد الشر والخيانة ، وضبط العهود والمواثيق ، واجتناب الكذب والاعتصام ، يحبب الصدق والوفاء لا يرى نفسه مُخلاً بشيء من ذلك وإن أخَلَّ بجميعه ، ويزعم أن زوال السعادة المدنية إنما جاء من تهاون الآخرين .

وتدبر حال الملوك مع رعاياها ترى كلاًّ منهما يرمي الآخر بالاغراق وعدم الاعتدال ، ويتهمه بانتهاك المحارم والحقوق ، ويبرىء نفسه من نسبة شيء من ذلك إليها .

فالملوك فضلا عما رسخ في نفوسهم من أن رتبتهم الملوكية ، إنما هي رتبة سماوية ساقتها إليهم يد العناية الالهية ، بسبب طيب عنصرهم ، وطهارة طينتهم ، يعتقدون أن لا قوام للرعية بدون وجودهم ، وأن لا غنى لها عنهم ، إذْ هُم يحفظون أموالها ، ويحقنون دماءها ، ويوفون لكل ذي حق حَقَّه ، وينتقمون للمظلوم في أموال الرعية ودمائها ، وأنه يجب عليها طاعتهم ، والخضوع لسطوتهم وسلطتهم ، وامتثال أوامرهم واجتناب نواهيهم ، ويرمون الرعية بالتقصير فيما يجب عليها .

والرعايا يخاطبونهم قائلين : لا مزية لكم علينا كما زعمتم ، ولستم أطهر عنصرا ، ولا أطيب طينة ، بل نراكم أناسا استولى عليكم حب الرئاسة وأسَرَتْكم الشهوة واستعبدكم الهوى ، فاستمالكم إلى سلب

راحتكم وراحة رعاياكم ، حرصا على التغلب ، وطمعا في توسيع دائرة السلطة ، وكسب الافتخار مَيْناً ، وأما اعتقادكم أن لا قوام لنا إلَّا بكم فأنَّى لكم صدق هذا الاعتقاد وقد أصبحتم كَلّاً[٢٦] على كواهلنا : نحن نغرس ونحرث ، ونغزل ونَحُوك ، ونفصِّل ونخِيط ، ونبني ونشيد ، ونخترع الصنائع ، ونتفنن في المعارف ، وأنتم تأكلون وتشربون ، وتلبسون وتسكنون ، وتتمتعون بلذة الراحة . وأما ما تعللتم به من حفظ أموالنا وحقن دمائنا إلى آخر ما ادعيتم ، فذلك إنما نَشَأَ عن العظمة والكبرياء اللذين تَثْبُت أصولهما في نفوسكم ، أفلا تعلمون أن الحارس والمرابط إنما هو منَّا ، وأن الحافظ والحاقن والمنتقم إنما هو القانون والشريعة الحقة . وما أنتم إلّا منوطون بحفظها ، والعمل في الناس بها . فإن قمتم بذلك على وجه الاستقامة كان لكم علينا ما يقوم أودكم ، فكيف ساغ لكم أن تلعبوا بأموالنا ، وتعبثوا بدمائنا ، وتلقوا بنا في هاوية الشقاوة ، ثم تبتغوا طاعتنا وامتثالنا ، وترمونا بالتقصير والتهاون فيما وجب علينا .

وذلك الذي ذكرناه فيما إذا لم يكن الملوك من المتغلبين المباينين للرعايا جنسا ومشرباً ، وأما المتغلبون من الملوك ، والمتغلب عليهم ، فكل منهما يزعم فوق ما ذكر أنه الوسيلة لمنفعة الآخر والواسطة لمصلحته ، وأن الآخر قَابَلَ حسنته بالسيئة ، ومنفعته بالمضرة .

مثلا ، إن الحكومة الانجليزية المتغلبة على الهنود تخاطبهم بقولها : إني عَمَّرت لكم المدن (كبمباي) و (كلكتا) و (كراجي[٢٧]) وأمثالها ، وزينتها بالأبنية الشاهقة ، والقصور الشائقة ، ووطأت شوارعها ، ووسَّعت مسالكها ، ورقَّشتها بالاغصان ، وزخرفتها بمروج وبساتين ، ومهدت لكم سبل التجارة ، وسهلت لكم أسباب الزراعة ، وفتحت أبواب الثروة بما مددت من الأسلاك البرقية في أرجاء بلادكم ، وأنشأت من الطرق الحديدية في أنحائها ، وحفرت من الترع والأنهار ، ووضعت من القناطر ، وكذلك أسست لكم المدارس ، ورفعت عنكم ظلم النَّوَّابين وقهر الراجاوات ، وأنتم مع ذلك أبيتم إلّا الشقاق والنفاق ، ونبذ الطاعة وسلب الراحة ..

---

(٢٦) الكل (بفتح الكاف وتشديد اللام) : الضعف ، أو التعب ، أو الثقل . والأخير هو المقصود .
(٢٧) المقصود : كراتشي .

وان الهنود يجيبونها متظلمين مستغيثين منها قائلين لها : إنك ما عمَّرت تلك المدن[٢٨] إلَّا بعد أن خربت بلاداً كانت زينة الأرض وفخار الأبناء : (شيو) و(وشنو) و(كهكلي) و(مرشد آباد) و(عظيم آباد) و(أكبر آباد) و(إله آباد) و(دهلي) و(رايبور) و(فيض آباد) و(لكهنو) و(حيدر آباد) وغيرها من البلدان ، وإنك ما مددت الأسلاك البرقية ، ولا أنشأت الطرق الحديدية ، ولا حفرت الترع والأنهار ، ولا وضعت القناطر ، إلا لنَزْف مادة ثروتنا ، وتسهيل سبل التجارة لساكني جزيرة بريتانيا[٢٩] وتوسيع دائرة ثروتهم ، وإلَّا فما بالنا أصبحنا على فقر وفاقة ، وقد نفدت أموالنا ، وذهبت ثروتنا ، ومات الكثير منا يتضور جوعا ؟ فإن زعمتِ أن ذلك لنقص في فطرتنا ، وضيق في مداركنا ، فيا للعجب من أبناء (بريتوس)[٣٠] الذين مضت عليهم أحقاب متطاولة يهيمون في أودية التوحش والتبربر ، إذ يعتقدون النقص وعدم الاستعداد في أولاد (برهما) و (مهاديو)[٣١] مؤسسي شرائع الانسانية وواضعي قوانين المدنية .

وأما المدارس التي تَمُنِّين علينا بتأسيسها فلم تكن لمصلحة تعود علينا ، إذْ لو كانت لذلك لاحتوت على العلوم والفنون والصنائع، مع أنها لم تنشأ إلَّا لتعليم اللغة الانجليزية المتعجرفة الخشنة لأبناء اللغة (السنسكريتية) ، اللغة المقدسة السماوية ، حتى تستميلهم في إدارة مصالحك في تلك الممالك الشاسعة .

وأما دعواك رفع ظلم النوابين وقهر الراجوات عنا ، فممَّا يضحك الثكلى ، ويبكي المستيئس الذي جاءته البشرى ، فإن الظلم إذ ذاك كان قاصرا على البعض ، وظلمك الآن قد عمَّ وطَمَّ ، وإن الثروة والأبهة والجلالة والشأن التي يزدهي بها الآن أهالي بريتانيا كان المتمتع بها وقتئذ أبناء وطننا ، إذ النوابون والراجوات وغيرهم من الأمراء والكبراء ، وحاشيتهم ، وخاصتهم ، كانوا من أبنائنا ومشاركينا في الجنسية . وكنا نتيه بهم فخارا على سائر الممالك والأقطار ، فكيف بك أن تمني علينا بما

---

(٢٨) من الواضح ان هذه كلها مدن. تعنيها كلمة «البلاد»، وكلها مدن في الهند وباكستان.
(٢٩) لا توجد جزيرة بهذا الاسم ، والمقصود : بريطانيا ، او الجزر البريطانية .
(٣٠) يبدو أنه يرجع الى الكلمة اللاتينية أو الفرنسية ، بمعنى Britons الانجليزية ، اي البريطانيون .
(٣١) برهما ومهاديو يشيران الى الهنود في مواجهة البريطانيين .

مَنَنْت زوراً ومَيْناً[٣٢] . وإنَّا لا نراك أيتها المتغلبة علينا إلا كالعَلَق[٣٣] مصصت دماءنا ، بل كالسَلاَّخ سلخت جلودنا لتتخذيها أحذية لنعال البريطانيين . على أنك لم تكتفي بهذا وذاك بل تريدين أن تستعملي عظامنا النخرة لتصفية السكَّر في معاملك .

وتبَصَّر في شأن الملوك بعضها مع بعض فإن كل واحد منهم يرى بما أقيم من الحجج القاطعة أنه على صراط العدل وحَدِّ الاستقامة لا يُقْدِمُ على محاربة ، ولا يحجم عنها ، ولا يضع غرامة ، أو يأخذ من ممالك الآخر شيئا إلَّا وهو في ذلك محق عادل ، مثلاً : ملك الروسيين[٣٤] يحتج لحرب العثمانيين بأن أنين النصارى من رعاياهم قد ذهب براحته ، وتجافى به عن مضجعه وحرك فيه حاسة الشفقة حتى دعته الرحمة الانسانية للأخذ بناصرهم واستنقاذهم من أيديهم ، وتحريرهم من رق عبوديتهم ، من ......[٣٥] والعثمانيون يدحضون حجته قائلين (أولا) لو كنت ممن تحركهم الشفقة والرحمة لكان الأحق بنيلها رعاياك المتحدون معك في المذهب من أهالي (لهستان) ، فما دعواك هذه الا محض الرياء والمواربة . و (ثانيا) إننا لا نعامل رعايانا إلَّا كمعاملة الآباء للأبناء بدون تفرقة بين مذهب ومذهب ، وجنس وجنس . وأوضح دليل على ذلك بقاؤهم على مذهبهم ، حافظين للغاتهم وجنسيتهم ، ولو أننا كنا نفرق بين المذاهب والأجناس كما تدَّعي لحملناهم على رفض مذاهبهم ، وتغيير لغاتهم ، وكنا قادرين على ذلك في وقت لم يكن لك فيه إسم ولا رسم ، بل لم تكن شيئا مذكورا .

وكذلك إمبراطور الفرنساويين بما ثبت عنده من البراهين البينة على طمع الجرمانيين وحرصهم وشرههم يرى لنفسه الحق في افتتاح الحرب عليهم . وامبراطور الألمانيين بما تحقق لديه من كِبْر الفرنساويين وعُجْبهم ، ومجاوزتهم الحد في أطوارهم ، يحسب أن من الواجب عليه أن يضعَ عليهم غرامة باهظة ، ويتسلط على قطعة واسعة من بلادهم لتذليل نفوسهم وإضعاف قوتهم ، ليدفع بذلك شرهم ، ويأمن على نفسه وأمته من تعدِّيهم .

---

(٣٢) المَيْن : الكذب .
(٣٣) العلق : نوع من الديدان مصَّاص للدماء يعيش في الماء الآسن .
(٣٤) يشير الى قيصر روسيا في حربه مع تركيا التي اشتعلت عام ١٨٧٧ .
(٣٥) يبدو ان رشيد رضا قد تعذر عليه قراءة الكلمة .

ودقّق النظر في شئون العقلاء والحكماء ، وذوي الآراء والمذاهب الذين يعتقدون أن الحق واحد في نفس الأمر والواقع ، لا يتعدد ، كيف أنهم بعد إتفاقهم على أن القواعد المنطقية هي ميزان النظر ، وبها يعرف صحيح الفكر من فاسده ، قد انتهج كل واحد منهم منهجا واتخذ مشربا يناقض به الآخر ، ويعتقد أن دلائله المؤدية هى المنطبقة على ذلك الميزان وأن لا إنطباق لدلائل غيره عليه .

وأرْجـعْ البصر الى أحـوال السارقين والقاتلين ونحوهم من مرتكبي الفواحش والشناعات في العالم الانساني ترى أنه لا يصدر عمل من هذه الأعمـال المجمع على قبحها من فاعلها إلا بسبب هذه الخُلَّة الذاتية ، أعني اعتقاده كمال نفسه والنظر إلى أعماله بعين الرضى ـ ضرورة أن الفعل إنما يكون بعد الارادة ، التي لا تكون إلا بعد ترجيح الفعل على الترك ورؤيته خيرا منه ، وهو عين الرضى به .

ومن غرائب آثار هذه الخلة إبرازها لحقيقة واحدة بصور مختلفة في نظر شخص واحـد على اختلاف مراتبه وشئونه ، فإنك ترى زيدا من الناس مثلا وهو في رتبة دانية رؤوفاً بالفقراء ، رحيما بالضعفاء ، شفيقا على المـظلومـين ، ذامـاً للبخل وللشح ، مادحا للكرم والسخاء ، مهتما بقضـاء حوائـج ذوي الحـاجـات ، مدعيا للعفة ، كارهاً للانكباب على الشهوة ، مستهزئاً بذوي التكاثر والتفاخر ، مبغضا للكبرياء ، متنفّرا عن الارتشـاء ، مشمئـزاً من الاهمـال في المصـالح العـامة ، والتهاون في الواجبات ـ مستهيناً بالمستبدين بآرائهم ، المعجبين بأقوالهم وأفعالهم ، مستقبحا تقديم المفضول على الفاضل لغرض يعود على ذاته ، مستبشعاً لاعطاء المراتب لغير أهلها وحرمان مستحقيها منها ، لائما على الغضب واسراع العقوبة ، مستفحشاً للسفاهة والبذاء ، محباً للوطن ، محاميا عن الحرية ، زاعما أنه لو آل الأمر اليه لقام بصلاح العالم . وإذا ارتقى إلى رتبة سامية تجده قسِيَّ القلب على الفقراء ، زاعماً أن التكفف صناعة اتخذها أرباب السفالة والبطالة هرباً من عناء الكسب ـ جافي الطبع على المـظلومين ، مستدلا بأن المتظلمين أولو مكر ودهاءٍ (أورياء) يعلنون خلاف ما يسرون ، ويستترون تحت حجاب المسكنة والالتجاء للتغلب على حقـوق غيرهم ـ بخيلا ، شحيحا ، متمسكا في ذلك بأن من مقتضيات الحَـزْم أن تُحْرَز الأموال ، وتودع المخازن لوقت اللزوم أو (إن الكرم

والسخاء قبيحان عند السويليين من الافرنج) ـ متوانيا في الأخذ بيد المحتاجين متعللا بتراكم الأعمال عليه في وظيفته المهمة ، وعدم تمكنه من إسعافهم ـ شَرِهاً شهْوياً ، محتجاً بأنه بشرهه وانصبابه الى الشهوة يؤدي حق الطبيعة ـ فخورا برتب وشئون ساعده على نيْلها البخت والصدفة ، بدون استحقاق . مع أنه ما أدى حقها ساعةً من دهره مُرْضياً نفسه في ذلك بكلمة « العبد العاجز » أو (افتخار أو لمون)[٣٦] متكبرا ، يظن أنه وقور من الواجبات ، وأن عليه إقامة الحجاب على بابه ، والذائدين عن أعتابه ، قياما بحَقٍّ رتبته ولازم شأنه ـ مرتشيا ، يقنع نفسه بأن ما يأخذه حَقٌّ تبيح له الشريعة أخذه ، إمَّا لأنه جعالة على عمله أو هدية من صديق ـ مهملا في المصالح العامة ، متهاونا فيها ، معتذرا بأنه من آحاد الناس ، ليس في طوعه تقويمها . وما من مساعد يعاضده عليها . وقد أدى الواجب على شخصه ـ مستبدا برأيه ، معتقدا إنه قد بلغ من العقل والدراية الى حد تنحط دونه جميع أفكار العالم ، ويقصر عن إدراك غايته مدى أنظارهم ، مع أنه أعمى البصر والبصيرة ، لا يرى ما تحت قدميه ـ مُقَدِّما للمفضول على الفاضل ، مستندا إلى سلامة قلب ذلك المفضول ولين عريكته وطلاقة وجهه . أي أنه (يهزٌّ له القاووق) ، وفي رواية (يمسح له جوخ) وأنه (سطري لجنابه العالي)[٣٧] ـ رافعا الى أسنى المراتب من لا يليق لأدناها ، حاسبا نفسه طبيبا روحانيا خبيرا بأخلاق العالم[٣٨] وطبائعهم ، حكيما لا ينظر في أعماله إلا الى المصالح العامة ـ غضوبا سريع العقوبة يحسبها سياسة وتدبيرا مَدَنياً ـ سفيها بذيئا ، يرى أن الناس لا يستحقون سوى قبيح فعله وفحش قوله ، ولا يدركون مَزِيَّةَ الآداب ، ولا يقدرون الأديب حق قدره ـ خائنا لوطنه ، ساعيا في خَرابه وإذلال أهله (كأقيا لتيس[٣٩] اليوناني) ويعد نفسه في ذلك مجبورا ملجأ ـ طالبا للاستعباد ، متشبثا بأن الحرية لا تليق بالأهالي لعدم استعدادهم لها[٤٠] ، بل إنها مما يوجب فسادهم لو نالوها

(٣٦) كان السيد رحمه الله يملي . وقلما كتب بيده مقالا . وكان تلاميذه كاللقاني واديب اسحق يكتبون كل ما يقوله حتى الكلم والأمثال العامية التي يمزج بها الكلام عادة كهذه الجمل في الموضعين ، وكانت ذائعة في معاشري الحكام من الترك ، ولكن اكبرهم الاستاذ الامام كان يتصرف في العبارة ويجيز ذلك السيد (هامش محمد رشيد رضا) . اما كلمة « لمون » العامية هذه فهي « ليمون » الفصيحة .

(٣٧) عبارات عامية ـ كما هو واضح ـ غير مستغلقة المعنى

(٣٨) العالم هنا بمعنى الناس او البشر .

(٣٩) لا ندري من هو اقيالتيس هذا ، فليس عند الاغريق شخص بهذا الاسم .

(٤٠) الاشارة هنا قد تكون للخديو توفيق الذي صرح بمثل هذا القول .

ـ آسيـا من صلاح العـالم[٤١] . إذ يراهم ـ لنقص قريحتـه ـ ناقصي الاستعـداد فاقـدي القـابليـة ، يزعم أنه لو كان لهم نوع من التهيؤ للاصلاح لأتَمَّه لهم بسعيه واجتهاده .

ومن أغرب آثارها[٤٢] أن المتخلق بها ، مع كونه متصفا بأرذل الأخلاق وأشنع الخصال ، يعمى عن أنه متصف بها ـ مثلا يكون قَسِيَّ القلب ، ويعتقـد نفسه رحيما ، ومتكبرا ، ويرى نفسه متواضعا ، وهكذا باقي الخصـال مع أنه لو تلبس غيره بأدنى رذيلة لأدركها وشد عليه النكير فيها ، حتى إنك ترى كل واحد « كأنه » قد جعل على إحدى عينيه نظارة معظمة (ميكرسكوب) ليقف على دقائق معايب معاشريه ، وعلى الأخرى نظارة رصدية (تلسكوب) لئلا يفوته أعمال البعداء عنه ، وعلى إحدى أذنيه موصلة الصوت (تليفون)[٤٣] لاستراق أخبار الناس كيلا يَعْزب عنـه شيء من نقائصهم ، و على الأخرى حافظة الصوت (فنوكراف) ليستحفظ قبائحهم ، لئلا يغيب عنه شيء منها ، ويقتدر على استحضارها وقت الحاجة عندما يتحرك دولاب حقده وحسده ، مع أن أقرب الأشياء اليـه نفسـه . وهو لا يرى شيئا من معايبها ، فهو أعمى حديد البصر وأصم قوي السمع .

فتعسا لها من خلة قضت على نوع الانسان بالاختلال وسوء الحال ، وآذنته بالشقاء والعناء ، وأوقعت الخبط في الأعمال والخلط في الأقوال ، ولَبَّست الحق بالباطل ، والزائف بالصافي ، والجيد بالرديء ، وحسَّنت القبيح وقبحت الحسن ، وأبرزت المعوجَّ مستقيما والمستقيم معوجا .

ومن نَظَرَ بعينِ الحق وسَبَرَ الحقائق بنور البصيرة لا يجد لهذه الخلة أعنى (اعتقاد كُلِّ كَمالَ نفسه ونظره الى أعماله بعين الرضى) علة وسببا سوى حب الذات ، الذي هو غشاوة على عين العقل ، تمنعه من استطلاع الحقائق على ما هي عليه ، ووقوفه عند حد الصواب في سَبْرِ الأفكار ، بل هو متغلب على جميع الاحساسات النفسانية وحاكم على كُلِّها بالتغيير . بل لا يختص حكمه بها إذ يتعدى الى الاحساسات الطبيعية أيضا فانك

---

(٤١) البشر او الناس .

(٤٢) الضمير هنا يعود الى تلك الخلة ، أو الاعتقاد بكمال النفس ، او ما نسميه : الغرور .

(٤٣) في عام ١٨٧٦ عرض الكساندر جراهام بل آلة تطورت فيما بعد إلى التليفون . ويبدو ان الافغاني كان قد قرا عن الاختراع في الصحف وقتها ، وكذلك الحال مع الفونوغراف .

ترى مشـوه الوجـه مختـل الخلقة رث الثياب الذي قد تجسدت عليه الأدران والأقذار إذا نظر إلى صورته بهذه الصفة الرديئة في مرآة مثلا لا يشمئز ولا يستنكر ، واذا وقع بصره على من بلواه في ذلك أخف من بلواه ، انفعلت نفسه واستنفر واستبشع .

وهذا الوصف ، أعني حب الذات ، الذي هو علة الشقاء والعناء من الأوصاف اللازمة لذات الانسان ما دام موجودا . فلا ينفك الانسان عنه ولا هو يزايله ، فإذن لا حيلة ولا خلاص من بلاياه ونكباته إلا باستعمال الانسان عقله ورجوعه إليه في جميع أموره ، والخروج من ربقة عبودية سلطان حب الذات ورفض أحكامه . وذلك أن يحكم على نفسه بما يراها عليه في مرآة غيره لا في مرآة نفسه (ما أجملك أيها الانسان المعجب في مرآة نفسك وما أقبحك في مرآة غيرك) .

وهذا الذي ذكرناه هو العلاج الحقيقي والوسيلة العظمى لوقوف كلٍّ عند حده ، وسعى كلٍّ لاستكمال نفسه ، اللذين هما مدار السعادة .

ولسنا نذم حب الذات بجميع أنواعه . فإنَّ منه ما قد يعود بسعادة على طائفة من الطوائف ، أو أمة من الأمم ، وهو حب الذات الداعي الى طلب المحمـدة الحقـة[٤٤] وهـو الذي يرتقي بصاحبه الى توجيه أفكاره وأعماله نحو المصالح العمومية بدون أن يطلب في ذلك شيئا سوى الحمد وخلود الذكر ، والسلام على من اتبع الهدى ، ورجَّح العقل على الهوى .

(٤٤) الحق مصدر يستوى في الوصف به المذكر والمؤنث والمفرد والجمع (هامش رشيد رضا)

الحكومة الاستبدادية

[ظهرت هذه المقالة ـ لأول مرة ـ بجريدة « مصر » في ١٤ فبراير ١٨٧٩ . ثم أعاد رشيد رضا نشرها في « المنار » في عددي ٤ ، ١٤ نوفمبر ١٩٠٠ ، مشيرا الى بعض عباراتها التي سقطت بسبب تهرؤ نسخة جريدة « مصر » . وقد رجعنا الى نسخة الجريدة المحفوظة بدار الكتب المصرية ، واستكملنا العبارات الناقصة في نسخة « المنار » .

ومن الملاحظ أن محرر « مصر » قد وضع للمقالة مقدمة قصيرة على عادته في تقديم مقالات الأفغاني . وجاء في هذه المقدمة :

« لحضرة أستاذنا الفيلسوف الشهير ، آية الحكمة ، السيد جمال الدين ، أعزه الله »

لم ترد هذه المقدمة عند رشيد رضا ، وإنما استعاض عنها بالعبارة التالية :

« من مقالات حكيم الشرق السيد جمال الدين الأفغاني ، تغمده الله برحمته »

وهذه هي المقالة كما جاءت عند رضا ، مصححة على نسخة جريدة مصر ، مع الاحتفاظ بالهوامش التي وضعها رضا :]

إن طول مكث الشرقيين تحت نير استبداد المستبدين ، الذين كان اختلاف أهوائهم الناشيء عن تضاد طبائعهم ، وسوء تربيتهم ، مع عدم وجود رادع يردعهم ، ومانع يمنعهم ، وقوة خارجية تصادمهم في سيرهم ، سبباً أوجب التطاول على رعاياهم وسلب حقوقهم ، بل اقتضى التصرف في غرائزهم وسجاياهم ، والتغير في فطرتهم الانسانية ، حتى كادوا أن لا يميزوا بين الحسن والقبيح ، والضار والنافع ، وأوشكوا أن لا يعرفوا أنفسهم ، وما انطوت عليه من القوى المقدسة ، والقدرة الكاملة ، والسلطة المُطْلقة على عالم الطبيعة والعقل الفعال الذي تخضع لديه البسائط والمركبات ، ويطيع أمره النافذ جميع المواليد من الحيوان والنبات . وإن امتداد زمن توغلهم في الخرافات التي تزيل البصيرة ، وتستوجب المحو التام والذهول المستغرق ، بل تستدعي التنزل الى المرتبة الحيوانية ، ومداومتهم من أحقاب متتالية على معارضة العلوم الحقيقية التي تكشف عن حقيقة الانسان ، وتعلمه بواجباته وما يلزمه في معاشه ، وتبين له الأسباب الموجبة للخلل في الهيئة الاجتماعية ، وتمكنه من دفعها ، والسعي في إطفاء نورها بما ورثوه عن آبائهم من سفه القول

وسخف الرأي والجدل في اضمحلال كتبها وضياع آثارها واستبدالها بما أوقعهم في ظلمات لا يهتدون الى الخروج منها أبدا[٤٥] .

كل هذه الأسباب تمنع القلم عن أن يجري على قرطاس بيد شرقي في البلاد الشرقية بذكر الحكومة الجمهورية وبيان حقيقتها ومزاياها وسعادة ذويها الفائزين بها . وإن المسوسين بها أعلى شأنا وأرفع مكانة من سائر أفراد الانسان . بل هم الذين يليق بهم أن يدخلوا تحت هذا الاسم دون من عداهم ، فإن الانسان الحقيقي هو الذي لا يحكم عليه إلا القانون الحق المؤسس على دعائم العدل ، الذي رضيه لنفسه يحدد به حركاته وسكناته ومعاملاته مع غيره ، على وجه يصعد به الى أوج السعادة الحقيقية ، وتصده عن أن يرقم على صفحات الأوراق ما يكشف عن ماهية الحكومة المقيدة ، ويوضح عن فوائدها وثمراتها ، ويبين أن المحكومين بها قد هزتهم الفطرة الانسانية فنبهتهم للخروج من حضيض البهيمية ، والترقي إلى أولى درجات الكمال ، والقاء أوزار ما تكلفهم به الحكومة المطلقة ، وتطلُّب مشاركة أولى أمرهم في آرائهم وكبح شرَه النهمين منهم الطالبين للاستئثار بالسعادة دون غيرهم . ولهذا أضربنا صَفْحاً عن ذكرها ، وأردنا أن نذكر في مقالنا هذا الحكومة الاستبدادية بأقسامها ، فنقول :

إن الحكومة الاستبدادية باعتبار عناصرها الذاتية ، وأقانيمها الحقيقية التي هي عبارة عن أمير أو سلطان ، ووزراء ، ومأموري إدارة وجباية ، تنقسم الى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : الحكومة القاسية وهي التي تكون أركانها ، مع اتسامهم بسمة الامارة والوزارة والادارة والجباية ، شبيهة بقطاع الطريق . فكما أن قاطع الطريق يقطع طرق السابلة ، ويسلبهم أموالهم ومؤنهم وثيابهم التي تقيهم الحر والبرد وسائر مواد حياتهم ، ويتركهم في البوادي والقفار حفاة عراة جياعا تقطعت بهم حبال الوسائل ، ولا يلاحظ أن فيهم الهَرِمَ والصغير والعاجز والضعيف الذين لا يستطيعون التخلص من المهالك ، ولا يقتدرون النجاة ، ولا يبالي بموتهم وهلاكهم عن آخرهم ، ولا تأخذه في ذلك الشفقة والرحمة . كذلك هؤلاء الأركان يغتصبون

(٤٥) استعمل « استبدل » هنا بما هو الشائع عند المتأخرين عامة . والذي في القرآن العزيز أن الباء بعد « استبدل » و « تبدل » تدخل على المبدل منه لا على البدل . فليتنبه له الكتاب . (هامش المنار)

ضياع رعاياهم وعقاراتهم ، ويستولون على مساكنهم وبساتينهم ، وينتزعون بالضرب والحبس والكي وغيرها من أنواع العذاب ما بأيديهم من ثمرات اكتسابهم ، ويدعونهم في مخالب المصائب ، معرضين للأسقام والآلام ، وأهدافا لسهام البلايا ، التي ترميهم بها عواصف الرياح الزمهريرية والسمومية ، ولا يخشون اضمحلالهم وابادتهم بالكلية ، ومحق حياتهم بالمرة[٤٦] بل يستبشرون بذلك كأنما هم أعداؤهم ، ولا يشعرون أنهم قواد السلطة وأساسها . ومن أفراد هذا القسم الحكومة الجنكيزية[٤٧] والتيمورية وغيرهما من حكومات التتر والبرابرة كما تشهد بذلك التواريخ .

القسم الثاني : الحكومة الظالمة . وأولياء هذه الحكومة تماثل الأخساء الذين يستعبدون أناسا خلقوا أحرارا ظلما واعتداء. فكما أنهم يكلفون عبيدهم بأعمال شاقة وأفعال متعبة ، ويجبرونهم على نقر الأحجار ، وخوض البحار ، وفلق الصخور ، وقلع الجبال ، وطي المفاوز وجوب البلاد ، في صرَّة الشتاء وهجيرة الصيف ، ويؤلمون أبدانهم بالسياط اذا لجأوا آناً ما إلى الراحة التي تجذبهم الطبيعة اليها ، ويحجبونهم بأشغالهم المستغرقة لأيام حياة هؤلاء المظلومين عن مزايا جواهر عقولهم المقدسة ، حيث لا يجدون فرصة من دهرهم للنظر في الآفاق ، وفي أنفسهم ، كي يرتقوا من الاحساس البهيمي إلى عرش الإدراك الإنساني ، ويشاركوا أبناء جنسهم في اللذائذ الروحية ، ويجتنوا ثمار عقولهم ليؤازروهم بنتائجها من الصنائع البديعية ، والمخترعات الرفيعة ، فيسعدوا مع السعداء . ومع ذلك يحرسون حياتهم ، ويحرصون على استبقائها استيفاءً للخدمة منهم بتقديم قوت من أردأ ما يُقْتاتُ به لسد الرمق ، وثياب خشنة رثة لتحفظهم من أظفار العواصف وبراثن القواصف . فلا يكون حالهم مع سادتهم إلّا كحال البهائم والأنعام الأهلية ، لا يعيشون إلا لغيرهم ، ولا يتحركون إلا برضاه ، بل بمنزلة آلةٍ غير شاعرة بأيدي مُستعبديهم يستعملونهم كما

(٤٦) قيل لحاكم شرقي ان رعيتك يموتون في عمل السخرة الفلاني الذي كلفتهم به فلو رفقت بهم فقال : « وهل نحن استلمناهم بالعدد فنخشى ان ينقضوا » (هامش المنار)

(٤٧) وضع رشيد رضا « الحكومة الانكليزية » وحاول ان يشرح ذلك في الهامش (المصدر السابق ص ٥٨٠) وبالرجوع الى الاصل تبين أن الافغاني يقصد الحكومة الجنكيزية نسبة الى جنكيزخان .

يشاءون .

كذلك هؤلاء الولاة مع رعاياهم ، فإن الرعايا لا يزالون يتحملون المتاعب والأوصاب ، ويكدون أيام سنيِّهم ، ويسهرون لياليها ، مشتغلين بلا فتور بالغرس والحرث ، والحصد والدرس ، والندف والحلج ، والغزل والنسج ، مهتمين بالحدادة والنجارة ، والملاحة والتجارة ، ساعين في حفر الأنهر وإنْباع المياه ، وإنشاء الجداول والجسور ، متكبدين آلام التغرب في الحر المبيد والبرد المميت ، كي ينالوا (أي الحكام) أرغد العيش بطيب المطعم والمشرب والملبس والمسكن ، ويحوزوا الراحة والرفاهية والحظ والسعادة . وهؤلاء الظلمة لا يفترون عن السعي في سلب ما بأيديهم جبراً ، وغصب ثمار مكاسبهم وفوائد متاعبهم رغماً ، ولا يدعون لهم مما اكتسبوه بكدِّ يمينهم ، وعرق جبينهم ، سوى ما تقوم به حياتهم الدنيئة ، حتى تراهم بعد اقتحام هذه الأخطار وتحمل تلك المصاعب ، لا يقتاتون إلّا بكسرات خبز رديئة ناشفة ، يبلونها بدموعهم المنسكبة من جور وُلاتهم الفاتكين ، ولا يسترون أبدانهم الا بخرق رثة مرقشة بدمائهم السائلة من سياط حكامهم الجائرين . ولا يسكنون إلا في الأكنَّة المنخفضة ، والاخصاص الخسيسة ، كأنهم أنعام حرمتهم الطبيعة من المزايا الانسانية ، ولا يشاهدون الا بوجوه مغبرة مقشرة ، وأبدان مقشفة معفرة . وتدوم عليهم هذه الحال الرديئة التي نشأوا عليها ، والمعيشة الدنيئة التي اعتادوها ، حتى يقنعوا بها ولا يتعلقوا سواها . بل يتنزلون بسوء تصرف هؤلاء الولاةمما منحوه من فضيلة العقل الى رتبة البهيمية ، ولا يحسون بمعيشة أكمل مما هم فيه ولا يتألمون إلا بالآلام الجسمانية .

ومن أقسام هذه الحكومة غالب حكومات الشرقيين في الأزمان الغابرة والأوقات الحاضرة ، وكذلك أكثر حكومات الغربيين في الدهور الماضية ، ومنها أيضا الحكومة الانكليزية الآن في البلاد الهندية .

القسم الثالث : الحكومة الرحيمة وهي تنقسم الى قسمين : القسم الأول منها الحكومة الجاهلة . ودعائم هذه الحكومة تحاكي الأب الرحيم الجاهل . فكما أنه يحث أبناءه على اقتناء الأموال ، واكتساب الثروة ، واستحصال السعادة ، والاقتصاد في المعيشة ، بدون أن يبين طرقها ، ويمهد لهم سبلها ، لعدم علمه بها ، ويدعوهم رأفةً الى المجاملة والموادعة ، ورفع الشقاق والنزاع من بينهم ، بغير أن يحدد لهم

الواجبـات ، ويقـدر الحدود اللازمة للادارة المنزلية[٤٨] لقصور إدراكه عنها ، فكأنه يدعوهم إلى أمر مجهول مطلق لا يهتدون اليه سبيلا .

كذلك حال هؤلاء الدعـائم الرحمـاء الجهـلاء يطلبـون من رعاياهم السعي في المكاسب والصنائع ، والتمسك بالتجارة والفلاحة ، والتشبث بالعلوم والمعـارف ، ويغـرونهم على مجـاراة الجـيران ، ومبـاراة أهـل العـرفـان ، والتعلق بأسبـاب النجـاح والفـلاح ، بلا تشييد المدارس المفيدة ، وتأسيس المكاتب[٤٩] النافعة ، وتسهيل طرق المعاملات ، وبث فنـون الزراعة ، جهلاً منهم . ويريدون من أولئك الرعايا التباعد عن الشقاق والنفاق ، والاحتراز عن الاعتداء والاعتصاب[٥٠] ، والتجنب عن الفساد والعناد ، والحَيْف[٥١] والميل في الحقوق ، والاحتراس عن كل ما يخل بالراحة العمومية ، بلا تقنين ناموس عادل ، حافظ للحقوق معين للحدود ، فاصل للقضايا ، قاطع لما يطرأ من النوازل ، جامع لجميع ما يحتـاج اليـه الانسان في اجتماعاته المدنية . ومن أفراد هذه الحكومة سلطنـة بعض السلاطين المجبولين على الشفقة المطبوعين على الرأفة ، الذين كانوا يبكون على سوء أحوال رعيتهم مع جهلهم بما يصلح شأنها . والسِّيَرُ بذلك ناطقة .

القسم الثـاني منهـا : الحكومة العالمة . وهي تنقسم الى قسمين : القسم الأول : الحكـومـة الأفينـة . وأقـانيمهـا تضاهي الأب العالم المأفون[٥٢] . فكما أن شفقة هذا الأب تسوقه الى العناية بأحوال أبنائه ، وتقسره عليها ، وأن علمه بأسباب الترف والثروة وعلل المعيشة الهنيئة المـرضيـة يقـوده الى الاهتمـام بتـأديبهم بأحسن الآداب ، وتعليمهم الفنون ، وتمرينهم على الحرف ، ويجبره على أن يبين لهم قوانين العشرة ، ويحدد لهم حقوقهم . ولكن بعد ذلك يتركهم وشأنهم ، لضعف رأيه ، وقصر نظره ، وجهله بأن ملازمة الشبان للآداب واجتنائهم ثمار معارفهم التي اكتسبوها ، واجتهادهم في المكاسب لا تكون الا بقوة حافظة ، مالم

---

(٤٨) يستخـدم الافغـاني هنا ـ وبعد ذلك ـ مصطلح « الادارة المنزلية » بالمعنى القديم الذي وضعه فلاسفة الاغريق لما يعرف اليوم باسم « الاقتصاد »

(٤٩) المكاتب : الكتاتيب .

(٥٠) الاعتصاب : التجمع في عصابات

(٥١) الحيف : الظلم .

(٥٢) الأفين : ناقص العقل . والمأفون : ناقص العقل أيضا ، والاثنان بمعنى واحد .

تحنكهم التجارب لما جُبلوا عليه من الميل الى الشهوات ، والانعكاف على البطالة ، والتقاعد عن الفضائل ، فيهوون في هاوية التعاسة ، وتذهب مساعيه سدى .

كذلك هؤلاء الأقانيم[٥٣] يعمرون بيوت العلم ، ويشيدون دور المعارف ، وينشئون المعامل ، ويوسعون نطاق التجارة ، ويواظبون على تشريع سياسة مدنية ، تثبيتاً للحقوق ، واستتباباً للراحة ، على مقتضى ما أحاطوا به من أحوال رعاياهم . ولكنهم ، لعدم تدبرهم في العواقب ، وعدم تبصرهم بأن افتقار انتظام أحوال العباد ، وسير أمورهم على نهج العدل ، ونيلهم غاية بغيتهم من مساعيهم الى العلة المبقية كافتقارهم الى العلة الموجدة ، لا يواظبون على أعمالهم هذه ، ولا ينظرون إليها نظرةً ثانية بل ينبذونها ظهرياً ، ويتركونها نسيا منسيا ، فيتطرق إليها الخلل ، ويعتريها الفساد ، ويسري إليها الانحلال ، لما جُبل عليه الانسان من الحرص والشَرَه ، والميل إلى الجور والاعتداء ، المستلزمة لمخالفة القانون فيقع كُلٌ فى العطب والنصب والشقاء والعناء ، ويستولي عليهم الفقر والفاقة ويصيرون كأرض موظوبة[٥٤] ، بتوالي تطاول ايدي جائريهم ، وتعاقب اعتساف معتديهم . ويشبه أن تكون حكومة المأمون[٥٥] وبعض سلاجقة ايران من أفراد هذا القسم .

القسم الثاني : الحكومة المتنطسة[٥٦] . وأساطينها الحكماء . تضارع الأب المتدبر المتبصر . لا يبرح ساعيا في اعداد الاسباب الموجبة لسعادة أبنائه زمن حياتهم ، وتهيئة معداتها القريبة والبعيدة ، ولا يتجافى آناً ما عن مواظبة دقائق حركاتهم وسكناتهم ، وتفقد شئونهم واستكناه أحوالهم ، ولا يتقاعد لمحة عن تأييدهم في سيرهم بآرائه السديدة وأفكاره الصائبة ، خوفا من التواني والكسل والاهمال والفشل ، وخشية من عروض الموانع التي تصدهم عن البلوغ للغاية .

فنجد هؤلاء الحكماء الأساطين يعلمون أن قوام المملكة ، وحياة الرعايا ، بالزراعة والصناعة والتجارة ، ويعرفون أن كمال هذه الأمور

---

(٥٣) الاقانيم : الجواهر او الاصول ، ومفردها الاقنوم : الجوهر والأصل .
(٥٤) هي التي رعيت مرارا حتى لم يبق فيها كلا ولا نبات (هامش المنار)
(٥٥) الخليفة المامون العباسي
(٥٦) نَطس : استقصى الامر ودقق فيه النظر ، وكذلك : تنطس . والمعنى هنا : حكومة الخبراء .

واتقانها لا يكونان إلا بأمرين ، أحدهما وهو في الواقع علتهما الأولى : العلوم الحقيقية النافعة والفنون المفيدة ، التي لا يمكن حصولها ، والفوز بها إلا بمدارس منتظمة ، ومدرسين ماهرين ، ومتخلقين بأخلاق فاضلة ، شفوقين على المتعلمين شفقتهم على أبنائهم ، وثانيهما إعداد آلات الزراعة وأدوات الصناعة ، وتسهيل طرق التجارة البرية والبحرية . ويفقهون أن حفظ اساس المدنية ، وصون نظام المعاملات ، وفصل المنازعات ، وكَفُّ أيدي المتعدين ، ومنع المدلسين ، وكبح الأشرار ، وردع الفجار ، لا يكون إلّا بالمحاكم الشرعية والسياسية المؤسسة على دعائم العدل والانصاف . وإنها لا تتحقق الا بقانون حق ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ـ حتى إرش الخدش[٥٧] ـ إلا محفوظا بأمناء يقظين ، محروسا بعُدول نشطين ، محفوظا بعلماء فقهين ، معززا بقضاة مُقْسطين ، مؤيدا بَحكام أعفّاء وأعوان بررة ، يدركون ببصيرتهم الوقادة مصالح العباد ، ومناهج تعمير البلاد ، ووسائل درء المفاسد الداخلية ، وطرق منع النوازل الخارجية ، وأن القيام بذلك لا يكون الا بضرب ضرائب عادلة عليهم يجمعها جُباةٌ عدول ، تصرف في منافعهم العامة لدى الضرورة بلا حيف وميل ، وانتخاب طائفة من ابطالهم الموصوفين بالصداقة وعزة النفس وعلو الهمة لحفظ الأمنية[٥٨] الداخلية ، ودفع الأعداء الخارجية ، ويشعرون بأن استكمال سعادة المملكة ، وصيانة استقلالها ، لا يكونان الا بارتباطاتها السياسية وعلائقها التجارية مع الممالك الأخرى ، وإنها لا تتم إلا برجال عارفين ، دهاة ، متبصرين ، محبين لأوطانهم (لا كحسن أفندي فهمي شيخ الاسلام الأسبق في الآستانة[٥٩] الذي كان يقول لعدو وطنه الجنرال إغناتيف سفير الروسية فيها : إنك عيني اليمنى ، وإن حيدر ابني عيني اليسرى ، كما ذكره حضرة مدحت أفندي في كتابه المسمى بأسّ الانقلاب) متدربين محنكين بالسياسة عالمين بالحوادث قبل ظهورها ، محيطين بطرق التجارة ، فيقومون بواجبات ما اقتضته حكمتهم، وما أحاطوا به علما، ولا يتهاونون آناً ما عن أداء حقوق رعاياهم ، ولا يفتدون راحة أنفسهم بسعادة أولئك الضعفاء . وزد

(٥٧) الارش شرعا بدل الدم أو الجناية او هو للاطراف كالدية للنفس (هامش المنار)

(٥٨) الأمنية الامن .

(٥٩) قيل ـ ومصدر ذلك هو الافغاني نفسه ـ ان حسن فهمي هذا كان من اعداء الافغاني وحساده خلال إقامته في تركيا (١٨٦٩ ـ ١٨٧١) وإنه تسبب في طرده منها .

على ذلك أنهم يدرون أن غالب أفراد الانسان طبع على الحرص ، وفطر على الشر ، وجبل على الشهوة ، وخلق متهاوناً بواجباته متوانياً عن إصلاح شؤونه ، ونشأ على المكر والحيل ، وغرز فيه حب الاعتداء على حقوق الغير وعدم الاكتفاء بما ملكته يداه ، وغرس فيه بغض الشرائع والقوانين ، حينما يراها سدا يمنعه من سلوك سبيل الغدر ، وحاجزا يردعه عن مقتضيات الشره ، وغلًّا يكف يديه عن التطاول . وإنهم يفهمون أن كل ما يقع في العالم الانساني من المرض والصحة والفقر والغنى والنَصَب[٦٠] والراحة ، بل كل ما يقتضي الشقاء والسعادة ، ويوجب الصلاح والفساد ، لابد وأن يكون لارادة الانسان وحركاته الاختيارية فيه دخل تام ، ويدركون أن الانسان ما دام على هذه السجية والغريزة فهو كمريض تنازعته أمراض خطرة مختلفة ، لا ينجو منها الا بتمريض طبيب ماهر يعرف العلل والعلاج ، ويتفقده آناء الليل وأطراف النهار ، فيهتمون حكمةً وشفقة بتتبع أحوال الرعايا مثل ذلك الطبيب الماهر ، ولا يبرحون عن موازنة أعمالهم وأفعالهم وحركاتهم ، ولا ينفكون عن مقايسة آرائهم وأخلاقهم ، ولا يفتُرون عن تعديل ثروتهم وغنائهم ، وتقويم علومهم ومعارفهم وتجارتهم وزراعتهم ، وإحصاء عددهم ، وتعداد أحيائهم وأمواتهم ، ولا يتوانون عن مقابلة الصادر والوارد في ممالكهم ، والمعادلة بين قوة حكومتهم واقتدارها واقتدار الغير وقوته ، لكي يقتدروا على تدارك مصالح البلاد قبل تمكن الفساد ، ويقدروا على جبر الكسر وسد الثغر ، ورَفْو الخَرْق ، وإزالة جراثيم الرزايا والمصائب ، وابادة أسباب الخلل والمصاعب . واذا لم يمكنهم القيام باستقصاء دقائق التعديل والتقويم ، وجزئيات الموازنة والمقايسة مباشرة ، انتخبوا رجالا يقظين عارفين بأحوال الدول وقواها ، متبصرين بشئون الممالك وأسباب سعادتها وشقائها ، عالمين بفنون التجارة والزراعة والصناعة ولوازمها ، مهندسين محاسبين لأداء هذه المصالح ، وتسجيلها في السجلات بغاية الدقة والاتقان ، وعرض كلياتها على هؤلاء الولاة الحكماء ، مع بيان موارد النقص والخلل وايضاح أسبابها . وغير خاف أن تسجيل المعادلات وحفظ الموازنات للدول ألزم من تقييد التاجر معاملاته في دفاتره اليومية ، فإنه لا يلزم من إهمال في التقييد والتثبيت ،

(٦٠) النصب ـ بفتح النون والصاد : التعب والاعياء

إلا أن يضيــع رأس ماله على جهل منه ، ويصبح مفلسا ، وهذا ضرر خاص به . وأمــا إهمــال الدول في حفــظ المعاملات وتسجيل الموازنات فيــوجب خراب البلاد وهلاك العباد ومن أجل هذا تجد للدول الغربية عناية تامة بهذا الشأن المسمى عندهم بالاستاتستيك(٦١) .

فهاك يا أيها الانسان الشرقي صاحب الأمر والنهي حكومة رحيمة حكيمة وعليك بها ، والقيام بشأنها ، وحفظ واجباتها ، وإلاّ فبحياتك التي أفديتها براحة العالم أن تعفونا عن تحمل ثقل تشدقك بالرحمة والعدالة والحكمة والفطنة . أتريد أن تظلمنا ونكافئك بالشكر ؟ وتغصب حقوقنا ونجاريك بالثناء ؟ أو تظن أنك تقدر أن تَغُرَّ كُلَّ العالم وتعمي بصائرهم ؟ وأن تنزل بالملك عندهم منزلة الحق ؟ وأن تجلس جورك مجلس العدل ؟ وأن تقيم سيئاتك مقام الحسنات ؟ وأن تُقْعِدَ رذائلك مقعد الفضائل ؟ ولعلك اغتــررت بتمجيــد المتملقين ، وتعظيمِ المتبصبصين(٦٢) ، وتبجيل المتزلفين أمامك . ويحك ، لو كنت تعلم مقامك في النفوس ، ومنزلتك لدى أربــابِ البصــائــر والعقول لو دعت هذه الدنيا الخؤون التي ألهتك ، وفارقْتَ حياتك العزيزة التي طالما افتديتها بالمروءة والانسانية .

وأمــا أنتم يا أبناء الشرق ، فلا أخاطبكم ، ولا أذكِّركم بواجباتكم ، فانكم قد ألفتم الذل ، والمسكنــة والمعيشــة الدنيئة ، واستبدلتم القوة بالتأسف والتلهف . صرتم كالعجائز لا تقدرون على الدَّرْء(٦٣) والاقدام ، والجلب والدفع والرفع .فإنا لله وإنا اليه راجعون .

---

(٦١) الاستاتستيك : علم الاحصاء ، وكان علما حديث النشاة في ذلك الوقت . ومن الواضح ان الافغاني نقل الاسم عن الفرنسية .

(٦٢) المتبصبص : الطامع او الراغب في الملق .

(٦٣) الدرء : التدافع

دائرة المعارف

[ظهرت هذه المقالة بجريدة « مصر » في ٢٥ أبريل ١٨٧٩ . ثم أعادت نشرها ـ في ذلك الوقت ـ صحف : مرآة الشرق ، الأهرام ، الجنان . وقد قدمها محرر « مصر » بالعبارة التالية :

« بقلم مجلى الكمال ومظهر الجلال ، أستاذنا النسيب ، الطاهر الأرومة ، الفيلسوف الأجل ، السيد جمال الدين الأفغاني »

وقد كتب الأفغاني المقالة عقب ظهور دائرة معارف البستاني في ذلك الوقت . وكان هو نفسه من أشد المتحمسين إلى ظهورها ـ كما سنرى . فقد شجع بطرس البستاني على المضي في تأليفها ، وعاونه بالمعلومات والمواد . ومن أبرز معاوناته ما كتبه البستاني عن البابية . فقد كان الأفغاني مصدر هذه المادة أثناء إقامته بالقاهرة .]

إن الانسان باعتبار أُقْنومَيْه المتجاذبين المتدافعين، وهما جوهره العقلي النوراني ، وهيكله الهيولاني الظلماني ، يقسم إلى قسمين أحدهما ، وهو القسم الأعظم سوادا ، الأكثر افرادا ، وهو الذي تنقلب فيه جنبته البهيمية الظُلمانية على أصله العقلي الذي به قوام انسانيته فتستعمله لقضاء أوطارها ، من جلب الملاذّ الحسية الجسدانية ، وتمهيد طرق الشهوات الخسيسة الحيوانية ، فلا يهتم إلّا بالمآكل والمشارب والتفنن فيها ، ولا يسعى إلّا لتزيين الملابس ، وتشييد المساكن ، لا يدرك اللذائذ العقلية ، ولا يتطلبها ، ولا يسعى في تحصيلها ، بل ينكرها ، ويسخر ، ويهزأ بمن يجتهد لنيلها ، والوصول اليها ، ولا يعقل الفضائل الحقيقية فيميل الى التحلّي بها ، ولا يفقه الرذائل فيجنح عنها ، ولا يشتاق الى المحامد الحسنة فينزع اليها .

وهذا القسم ، وإن كان على صورة الانسان إلا أنه في الحقيقة من البُهم والعجموات ، بل أحطمنها منزلة ، فإن حيواناً ما من الحيوانات لم يهمل شيئاً مما أودع الله فيه من الخواص التي تنادى به الى كماله الواجب له ، بخلاف هذا القسم من الانسان فإنه قد أهمل أشرف خواصه ، وهي خاصة العقل التي بها يمتاز عن غيره من أصناف الحيوانات . وقد ذهب عليه أن المأكل والمشرب والمسكن ، إنما هي مقاصد بالتّبع لا بالذات ، يرام نيلها لاستبقاء الحياة كى يكتسب بها

المعارف العقلية والملكات الفاضلة .

والقسم الثاني هو الذي يبتغي لذة أخرى فوق اللذائذ الجسمانية ، بل كثيرا ما يَكُفُّ نفسه عن اللذائذ الحسية ، ويغادرها رغبة في استحصال تلك اللذة ، وهو ينقسم الى قسمين : أحدهما السلاطين والأمراء ، وذوو المناصب والرتب . فمن هؤلاء من يتقشف في معيشته ، مأكلا ومَشْرباً وملبساً ، ويصرف فكرته آناء الليل وأطراف النهار ، ويتجافى عن مهاد الراحة والدعة الى وهاد التعب والمشقة ، ويتباعد عن السكون والطمأنينة الى الاضطراب والحركة . بل قد يقتصر من لوازم حياته على الضروريات التي لا يمكن العيش الا بها ، ولا يبالي بفقد ما عداها من الحاجيات والكماليات ، فهو بالحقيقة مُعَذِّب الجسم ، مؤلِّم البدن ، يحمل نفسه على تحمل كل ذلك سَعْياً في توسيع الممالك وفتح البلدان ، وقهر السلاطين ، واستحصال المراتب العالية والمناصب السامية ، ليُمَكِّن بذلك هيبته من القلوب ، وعظمته في النفوس ، وينال من الناس مَحْمَدَةً وثناء . ويكون ذلك غاية لَذَّاته ، ومنتهى مطلوبه ، ولا يعد ما سواه لذة .

وهؤلاء ، وإن طلبوا لذة روحانية إلَّا أنهم راموها من غير وجهها ، وأتوها من غير بابها ، فان أعمالهم هذه لا توجب توقيرهم من النفوس ولا انطلاق الألسنة بالثناء عليهم ، خصوصا من ذوي العقول والبصائر ، لما أنه لم يترتب عليها فائدة في العالم الانساني . ومع ذلك قد اخطأوا المرمى ، لأنهم قد اتخذوا لمقصدهم هذا وسائل القتل والنهب والقهر والسلب ، وإحقاق الباطل ، وإبطال الحق ، وتخريب البلاد ، وتدمير العباد . وهذه الوسائل المشئومة قد انتزعت محبتهم من القلوب ، وأسكنتها الضغائن والأحقاد عليهم ، ونَفَّرت منهم الطباع ، وبَدَّلت التعظيم بالتحقير ، والمدح بالذم ، والثناء بالثلب ، لدى العارف ، والعامِّي ، والعالم ، والجاهل . وها هي كتب التواريخ مشحونة بمثالبهم ومعايبهم ، وأطلال القرى ورسوم المدن المخضبة بدماء ساكنيها تشهد بشناعة أعمالهم ، وقبح مساعيهم ، وخروجهم عن حد الانسانية الى خطة السَّبْعية[٦٤] والافتراس ، حتى نرى أن أفضلهم وأنزههم لا يوصف الا بعدم الظلم والجور والارتشاء ، وغير ذلك . وليس بخافٍ أن هذه

(٦٤) نسبة الى السبع او الاسد ، اي الافتراس

الأعدام[٦٥] لا تعد مدائح ، اذ ليس لهم حق في التعدي ، حتى يُمْدحوا بالكف عنـه . على أن مادحيهم بهـذه الأعدام لم يأتوا ذلك إلا رياءً و نفاقا ، وقلبهم ينكر عليهم . وما مدحهم بذلك الّا كمدح بعض الآحاد بأنه ليس بسارق ولا مختلس مثلا .

الثـاني : الحكمـاء المصنِّفـون ، والعلمـاء المـؤلفـون ، والعـرفاء المخترعون . وهؤلاء هم الذين رفضوا مقتضيات الجَنَبَة[٦٦] والبهيمية ، ونزهوا أنفسهم عن الصفات الخبيثة السبعية ، وبذلوا راحتهم ، وصرفوا نفيس عمرهم في تحلية عقولهم بأنوار العلوم الحقيقية والمعارف العقلية ، ونفوسهم بالصفات والأخلاق الكاملة . بل أبت نفوسهم الشريفة وهممهم العَلِيَّة أن تقف بهم عند هذا الحد من الكمال ، أعني تحصيل الفضائل القـاصرة على ذواتهم . بل بذلوا الوسع وأجهدوا النفس في نشر العلوم والآداب ، ووضـع القوانين العادلة واختراع الصنائع النافعة والفنون العالية ، وغير ذلك مما لا يقوم للنوع الانساني قائم إلّا به ، لا يختصون بذلك جنسا دون جنس ، ولا وطنا دون وطن ، ولا يبتغون بذلك سوى لذّة الكمال العقلي واستحصال المحمدة الحقة بما قَلَّدوا به أعناق أفراد النوع البشري من نتـائج أفكارهم وآثار أعمالهم ، فصار توقيرهم في النفوس وتعظيمهم في الأفئدة فَرْضاً على كل شخص من النوع الانساني بالطبع ، إن أنكره لسانه شهدت به جوارحه وجنانه . بل حازوا السلطنة الحقيقية في المملكة الانسانية لا يعزلون عنها بموتهم ، ولا تزول سلطتهم المعنوية الحقيقية مادامت السموات . أنظر الى سلاطين اليونان والرومان والفرس والكلدان قد محيت أسمـاؤهم من صفحات الأذهان لا يَطّلع عليها إلا المتـوغلون في قراءة التـواريـخ وسـير الأمم . وأما فيثاغورس وسقراط وأرسـطو وأفـلاطون وبـرزجمهـر وجاماسب[٦٧] فلا تزال الأنفس رطبة بذكـراهم ، ناطقـة بفضـائلهم ومزاياهم ، والنفوس معترفة بعوارفهم ، ومذعنة بعظمتهم . وإن هؤلاء العظماء الفضلاء من الشرقيين والغربيين في الأزمان الغابرة والأوقات الحاضرة ، بعد حلول جميعهم من الشرف مكانا عَليًا واستحقاقهم للمحمدة الحقة والثناء الخالص يتفاوتون فيهما

---

(٦٥) المقصود الانعدام ، ولكن المحرر الذي صاغ المقالة جمع « عدم » على « أعدام »
(٦٦) الجنيبة هي الدابة ، وجمعها جنائب . والجنبة هنا هي البهيمية .
(٦٧) لا ندري من المقصود بهذا الاسم في هذه الصورة .

على حسب تفاوتهم فيما حازوه من الفضائل ، وما ترتب على مؤلفاتهم ومصنفاتهم ومخترعاتهم من الآثار والفوائد . فمن كان منهم في المعارف أوسع دائرة وبالآثار أعَمَّ فائدة ، وأتى من الأعمال ما يقيم نظام الهيئة الاجتماعية لنوع البشر كان أحق بالمدح وأجدر بالثناء . فيجب على كل من وضع قدمه في أول درجات الانسانية أن يقدم له الشكر والثناء على قدر طاقته قياماً بأداء الحق ، واستنهاضا للنفوس الخاملة لأن تنال ذلك المقام الاسمى والشرف الأعلى .

ولهذا رأيت من الفرض عليَّ أداءَ الشكر أصالةً عن نفسي، ونيابة عن كل عارف باللغة العربية الشريفة ، أن أنشر عطر الثناء على حضرة العالم الفاضل المتبحر بطرس أفندي البستاني بما أودعه في مؤلفه « دائرة المعارف » من الفوائد الجليلة والمنافع العميمة ، التي قلد بمنَّتها أعناقنا ، قائلا إن هذا المؤلف الفاضل فضلا عن سائر مؤلفاته ، كَمَحيط المحيط وقطر المحيط ، وغيرهما ، قد أتى لنا بكتاب « دائرة المعارف » محيطا بجميع ما يحتاج إليه الانسان في معاشه ومعاده . إذ قد حوى جميع التواريخ من سير الأمم والسلاطين وأخبار الأنبياء والحكماء والقديسين ، وجغرافية البلاد ، وعلوم الطبيعة والكيمياء والنباتات والحيوانات والحسابات والجبر والهندسة والفلك ، وغير ذلك من الفنون الجلية . فمن وهبه الله أدنى عقل غريزي ، وكان له أقل إلمام بمباديء العلوم فله أن يستغنى بهذا المؤلف عن تجشم الجلوس بين أيدي الأساتذة ، لأن صعوبة العلوم بصعوبة الوقوف على اصطلاحاتها . وهذا الكتاب قد كشف حجاب الخفاء عن جميع الاصطلاحات بأوضح بيان وألطف عبارة ، وأرق إشارة . غير أنني مع ذلك لا أتمالك أن أظهر أسفي من أن هذا المؤلف لم يبرز بتمامه في عالم الوجود . ولست أتوهم أنه من فتور في همة المؤلف الفاضل ، ولكنه القصور في رغبة الشرقيين. فَنُوجِّه اليهم الخطاب قائلين يا أبناء الشرق ، أفلا تعلمون أن سلطة الغربيين وسيادتهم عليكم انما كانت بارتفاع درجتهم في العلوم والمعارف وانحطاطكم فيها . فلم لا تتقدّ أحشاؤكم بنيران الشوق لهذا المؤلف البديع وأمثاله حتى يبرز بمعدات رغبتكم وكمال شوقكم من عالم القوة الى الفعل ؟ هل رضيتم بعدما كان لكم ذروة الشرف بواسطة العلوم والمعارف أن تدوم لكم تلك الحالة الوخيمة التي أوصلتكم اليها الجهالات

والضـــلالات ، حتـى ما عادت ترق لكم قلوب الاعـداء ، فضـــلا عن الاصدقاء ؟ فهلموا لاقتناء المؤلفات واقتناص صيد المعارف ، واعتصموا بعـرى الاجتهـاد في نيل العلوم ، واستضيئوا بسنا الحق لتسترجعوا مجدكم وتنالوا حقيقة استقلالكم فتفوزوا مع الفائزين .

خطبة زيزينيا

[كانت هذه المقالة في الأصل خطبة ألقاها الأفغاني بقاعة مسرح زيزينيا في الاسكندرية . وقد نشرتها جريدة « مصر » بعنوان « حكيم الشرق » ، وجعلت لها المقدمة الطويلة التالية في عدد ٢٤ مايو ١٨٧٩ :

« في عشية يوم الجمعة الماضي وفد على الاسكندرية سيدنا فهرست كتاب الكمال ، وفذلكة حساب الجلال ، أستاذنا الأجل ، الفيلسوف الأكبر ، السيد جمال الدين الأفغاني ، فابتسم له الثغر عن درر الهناء به ، وغرر الثناء عليه . وسعى اليه النبهاء والوجهاء ، وما من جارحة فيهم إلّا وهي تود لو كانت أذنا فتلتقط درره وجواهره ، أو عينا لتجتلي مطالعه ومناظره .

« وأعد له وجهاء الثغر ، وفي مقدمتهم جناب الفاضل الوجيه الحريص على حب العلم ورجاله ، جبرائيل افندي المخلع ، وجناب الوجيه المكرم نجل الوجيه دي منشى ، مآدب فائقة الحسن والظرف ، تاخذ باللب والطرف ، جامعة لمحاسن الكمالات ، وكمالات المحاسن ، متوفرة أسباب الهناء والسرور ، كاملة وسائل الأنس والحبور ، بما أبدى الوجهاء المشار اليهم من اللطف والاكرام . بل كانت مجالس فضل وإفادة تلتقط بها الاسماع مما يلقيه سيدنا المشار اليه (من) درر الكلمات التي هي وسائط الآداب وصياقل الألباب .

« ثم اتصل ببعض شبان الاسكندرية الوجهاء النبهاء خبر قدوم سيدنا الأجل ، المشار اليه ، إلى الاسكندرية ، فوفدوا عليه ليمتعوا الأبصار بأنواره كما تمتعت الاسماع باخباره ، ثم سالوه أن يخطب فيهم خطبة عمومية يستفيدون من بيانها حكمة وأدبا ، فأجابهم الى ذلك . وخرجوا من لدنه يطلقون ألسنتهم بالثناء عليه ثم شكلوا لجنة منهم للاهتمام بشئون محفل الخطاب ، فاستقر رأيهم على أن يكون ذلك في مساء الأربعاء في قاعة زيزينيا . ورفعوا الأمر إلى حضرة أستاذنا المشار اليه فوافق عليه ، ثم رأى أن يجعل لهذا السعي أثرا مفيدا حسيا ، فضلا عن أثره الأدبي المعنوي ، بأن يكون الدخول لذلك المحفل بأوراق تعين قيمتها لاعانة فقراء الاسكندرية . وكلف بذلك أعضاء اللجنة فترطبت ألسنتهم بالشكر له .

« وفي مساء الأربعاء الماضي كانت قاعة زيزينيا محفلا لنبهاء الناس ، أحدقت فيه الأعين من الحجرات والمقاعد بروح الفضل والحكمة المتجسم في ذات سيدنا الاستاذ . وانفتحت الأسماع لالتقاط درر ألفاظه الحكيمة ، والتشنف بجواهر أقواله الفلسفية ، فقام أعزه الله في ذلك الجمع خطيبا ، يصقل الألباب ، ويمهد مناهج الآداب بالكلام البريء من الكلف ، الخالي من الترف ، حتى تمنت الجوارح لو كانت كلها آذاناً تلتقط درر حكمته ، وودت الأعضاء لو كانت بأسرها عيونا تتمتع بأنوار رؤيته .

« وقد وعينا من نطقه الكريم ملخص خطابه الفائق الوضع ، الجيد الوقع ، الذي ارتفـع له حجـاب السمـع ، وانخفض له جانب الطبـع ، فاثبتناه مع الاعتراف بانحطاطه عن الأصل ، فما هو الا رسم لحقيقة ذلك الخطاب . وشتان ما بين الحقيقة والرسم ! »

وهذا هو نص الخطبة التي نسبناها الى المكان :]

يا أيها السادة ويا أيتها السيدات .

أرى من الواجب أولا أن أثني على الجراثيم الشريفة الشرقية التي مضت عليها الدهور ومرت العصور ، وهي في حالة الكمون ، لمنع الموانع الخارجية وقسر القواسر الداخلية . ومع ذلك لم تفقد مزاياها العالية ، ولم تَقْدُم سجاياها السامية ، بل برزت ونمت ، فرأينا أصولها الشريفة سادة شرفوا هذا المحضر ، لاعلاء كلمة العلوم ورفع منار المعارف ، وتأييد أمر الفضل اعتقاداً أن العلم سلطان عادل حكيم ، إذا حل ببلد قوم تبعه الغنى والثروة لأنهما لا يحصلان إلا بالتجارة والزراعة التي لا تحصل إلا بالعلم ، ولزمه الطمأنينة والراحة لأنه يعين الحدود ويُبين الحقوق ، فيكون لكل من الناس خط لا يتخطاه ، وحد لا يتعداه ، ووليته الحرية لأنه يُبينّ للانسان مقدار نفسه ، فيعرف بذلك قدر غيره ، ولا يخضع لمن يتوهم فيه السيادة خضوعا أصم ، ولا يطيع لمن يعتقد به الرئاسة طاعة عمياء ، فلا يؤخذ إلّا بالقانون ولا يدين إلّا للشريعة ، وتلته الشفقة لأنها لا تحصل إلا بأن يدرك الانسان ما ألَمَّ بغيره من المصائب إدراكاً يجسِّم ذلك في خيـاله ، حتى كأنه يشعر بألمه . وهذا الادراك هو عين العلم ، وعلمـاً بأن الجهـل سلطان غشوم جاهل يتبعه الفقر والفاقة ، ويواليه الارتباك والاضطراب، ويألفه الذل والعبودية، وتلْزمُه القسوة والشراسة. ولذلك فإني أقدم الشكر للأفاضل الكرام الأرومات ، الشرفاء الأصول ، الذين اجتمعـوا في هذا المقام لاحياء العلم الموجب لتلك المزايا ، ودفع الجهل الداعي لهذه المعاني .

وثانيا ، إنه لمعلوم أن الأمة المؤلفة من طبقات الناس تماثل الشخص الواحد المؤلف من الأعضاء والجوارح . فكما أن قوام الأعضاء ونموها يكـون بالقـوة الحيوية ، تقوى بازديادها وتضعف بضعفها على نسبة واحدة ، كذلك جسم الأمة لا تحصل لطبقاته القوة إلا بروحه الحيوية

التي هي عبارة عن الميل إلى المعالي والشوق الى الكمالات . وليس بخاف عنكم ما ألمَّ بروح الجنسيــة في الأمم الشرقيــة من الضعف والوهن المستلزم لضعف سائر الطبقات ، فلا تؤاخذوا من قام فيكم خطيبا ، إن رأيتم في صوتـه تهـدجا وفي عباراته قلقا ، وفي معانيه اضطرابا ، فما الخطباء إلاَّ من طبقات الأمة التي ألم بها الضعف بروحها الكلي فسرى الى طبقاتها وأعضائها . ولهذا فاذا رأيتم في خطابتي نقصا ، فلا بد من التجاوز عنه لكوني رجلا شرقيا .

وإذ تقرر لي ذلك فإني أشرع في بيان المطلب ، فأقول : لا أريد أيها السادة أن أذكركم بمجد آبائكم الكرام ، وإنكم إمَّا أن تكونوا من أبناء المصريــين أو من حفـدة الفينقيــين ، أو من سلالة الكلدانيــين . وإن المصريــين قد بلغـوا من الهندسة ذروتها ، ومن الحساب غايته ، ومن المساحة قاصيتها ومن فن جَرِّ الأثقال منتهاه ، وعلَّموا اليونان الحكمة والفلسفة . بل إن شخصا واحداً منهم قد بعث في اليونان روح المعرفة وعلمهم فنَّ تدبير المنزل على حين كانوا همجا متوحشين ، وأبان لهم كيفية الزراعة والصناعة على حين كانوا يتعيشون بالصيد والقنص ، وأن جل علمائهم ومعظم حكمائهم لم ينالوا الفلسفة إلا بما تعلموا في مدرسة مصر العظيمة .

ولا أذكـركم بالفينيقيـين وأنهم وضعوا أصول الصناعة ، وخاضوا عباب البحار . وكانت انجلترا واليونان من مستعمراتهم . ولا تزال أسماء بلاد أسبـانيـا وسـلافينـا شاهدة بأنهم رفعوا على تلك الأقطار ألوية تمـدنهم ، وأن أهلها كانوا لا يعرفون الصناعة ولا التجارة . بل كانوا يقـدمـون لجـدودكم كنوز الطبيعة ، ومعادنها الثمينة ، ليأخذوا منهم الأقمشة والآلات وسائر ما يحتاجون اليه ، وأنهم علموا اليونان الخط . وكان أعظم حكمائهم منسوبا اليهم وهو تاليس(٦٨) الصوري .

ولا أعيـد ذكـر الكلدانيـين جدودكم الأول الذين أنشــأوا صنــاعة النحت ، وقسموا الفلك بالدوائر ، وعرفوا معدل الأنهار ومنطقة البروج ودائرة نصف النهار ، ووضعوا الاسطرلاب وعرفوا القطب واخترعوا الكرة ذات الحلقتين .

لا أذكـركم بجميع ذلك لأنكم تعلمونه علم اليقين ، ولا تخافون فيه

---

(٦٨) طاليس الفيلسوف الاغريقي ، وينسب الى صور في لبنان .

منكـرا أو معترضا ، فإن الهرمين ، والمسلات ، وأعمدة الكرنك ، تفقأ بأصـابعهـا الدهرية أعين المعترضين الذين يرمون الشرقيين بالـهمجية والنقص في الفطرة ، وإن تلول نينوى ، وأطلال صور وبعلبك ومنفيس وثيبة[٦٩] ، ما بقيت إلا لتثير الغبار على أبصار المنكرين الذين ينظرون الينا بعين الاستخفاف والاحتقار ، وانما أريد أن أعطف نظركم الى حالتنا الحاضرة ، فإنكم تعلمون بما حصل لنا من الانحطاط ، وما حاق بنا مِنَ الذل والهـوان ، وان النـوائب قد خفضت منـارنا والأجانب اقتسمت ديارنا . ولا شك أن هذا حادث من الحوادث فلا بد له من علة يوجد بها . ويعـدم بعـدمهـا . وبعبـارة ثانية إنه قدوضع في دائرة الوجود عوالم متعـددة ، ولكل منها مركز يكون بمنزلة شمس تجذب توابعها بحبال الجذبات اللستيكية التي تدفع تارة وتجذب أخرى ، وترسل إليها رسل الأشعة حاملة عناصر الحياة ، وإنه قد وضع في كل نبات وفي كل حيوان من التغذية ما هو حافظ لنفسه ، ومن التوليد ما هو حافظ لنوعه . ولا شك أن ما وضـع فينا من قوى الادراك لم يكن الا لننال مرادنا من السعادة . فلابد أن يكون لحرماننا من تلك الأمنية مانع . واذا سبرنا الموجودات سَبْراً فلسفياً فلا نجد لتأخرنا غير سببين أصليين ، وهما التعصب والاستبداد .

فأما الأول فهو عبارة عن سوء استعمال الدين . فإنَّا اذا نظرنا بعين التـأمـل البصـير الى الشارعين من عهد (مهادبو) الى زرودشت الى موسى ، الى عيسى ، الى محمد (صلعم) لا نجد في شرائعهم إلا الدعوة لمعـرفـة مبـدأ الحق ، وهو الله ، والحث على الفضائل ، وفعل الخير ، والزجر عن الرذائل والشرور . وبعبارة ثانية لا نلقى بها الا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولكنا إذا نظرنا الى الكثير من الذين تبعوهم ، فإنا نراهم قد استعملوا تلك الشرائـع للشقـاق والنفاق ، واتخذوها وسائ لاضرام الفتن ووسائل لالقاء الإحَن حتى أمكن للشاعر العربي يقول :

إن الديانات ألقت بيننا إحَناً .. وأودعتنا أفانين العداوات .

وما مثل هؤلاء إلا كمثل رجل قلد السيف لقتل الأعداء فاستعمله في قتل الأحباء . فبئس ما كانوا يفعلون .

---

(٦٩) ثيبة هي طيبة المدينة المصرية القديمة .

وأما الاستبداد فهو أن تكون أمة من الأمم مقيدة بسلسلة رأي واحد من الناس لا تتحرك الا بارادته ولا تفعل إلا لرضاه . فإذا كانت الأمة على هذه الصورة لزمها لا محالة أن يصرف كل منها ما أودع فيه من العقل والذكاء لمرضاة شخص واحد فيكون الكل فانياً فيه . ومن المعلوم أن الرجل الواحد ، ولو انفرد في العقل والذكاء والهمة وعلو النفس ، لا يستطيع جلب السعادة لنفسه فضلا عن جلبها لأمة كبيرة . وهاهنا يمكن لي أن أبشركم بأن قد زال عنا هذا المانع بما نلناه من الحكومة الشورووية[٧٠] . فلم يبق إلا أن تسعوا في صيانتها وتأييدها . ولا تكتفوا بمجرد حصولها اذ لا يخفى عنكم أن الحكومة هي كسائر الأجسام الطبيعية والاجتماعية . بما يطرأ عليها من التحليل[٧١] .

وحيث أنا شعرنا بالألم ، وعلمنا بسقوطنا في هذه المهواة[٧٢] ، وأن أنفسنا تميل الى الخروج منها ، فلابد لنا من البحث عن الدواء الحقيقي لهذا الداء الحادث ، فإذا رجعنا إلى بصيرتنا النورانية وفطرتنا الأصلية علمنا بأنه لا يمكن الخروج عن هذه الخطة إلا بالسبب . فان المتحرك لا يسكن والساكن لا يتحرك إلا بالعلة . ولا أرى لخروجنا من علة سوى الغيرة . فهي المحركة للنفوس الداعية الى المجاراة والمباراة ، والباعثة على الاهتمام والاقدار ، وعلى قدرها تأتي العزيمة وترتفع القيمة . وعلى حسب تأصلها في الأنفس وضعفها يكون صعود الأمم الى معارج العز والثروة ، وهبوطها الى دركات الذل والفاقة .

ولا شك أن الغيرة لا تحصل إلا بحزب من الوطنيين يعلمون أن لا شرف لهم إلا بجنسهم ، ولا قوة إلّا بأمتهم ، ولا فخر إلّا بوطنهم ، وأنهم إذا أرادوا تحصيل الشرف بالانتماء الى غيرهم يكونون بمنزلة الرقعة في الثوب الجديد ، أو بمنزلة العبد الذي يفتخر بسيده . ولهذا أرجو منكم يا أيها السادة ان تقيموا حزبًا يصون لوطنكم حقوقه ويحفظ عليه بهاءه. على أني لا ألومكم على انتماء بعضكم الى الأجنبيين[٧٣]، فان ذلك لم يكن الا فرارًا من الظلم وحرصا على الحقوق الانسانية والمدنية. ولكني أومل

---

(٧٠) الصواب : الشورية ، وكانت تلك الصيغة الخاطئة في النسبة شائعة في كتابات العصر .
(٧١) المقصود : التحلل .
(٧٢) المقصود : الهوة .
(٧٣) جمع غريب لأجنبي .

منكم ان تؤيدوا أمر الوطن وتشيدوا فيه الحكومة الشورية ليستقيم به أمر العدل والانصاف، فلا يعود بكم من حاجة الى حماية الاجنبي، بل تمـزقـوا أوراق الانتمـاء، وتـذاكر الحمايات، حتى يكون شرفكم منكم واليكم، وحمايتكم في ظل قوانينكم، ولا تكونوا رقعة بالية في ثوب الاجنبي الجديد.

ولا شك أنكم تعلمون أن الحزب الوطني لا تحصل له القوة ، ولا يكون له البقاء ، ما لم يكن لأهل الوطن لغة جامعة ، مهذبة التراكيب ، جيدة الأساليب . فان لم يكن لهم ذلك لا تستقر فيهم المعارف ولا تقيم بأحيائهم العلوم ، وان ذهب جمـاعـة كثـيرة منهم الى أوروبـا وتعلمـوا اللسان الأجنبي ، فإن معارفهم المكتسبة تكون سريعة الزوال ، ووطنهم يكون كالبلد الذي لا ماء فيه ، يجلب لأهله الماء من ضواحيه ، فهو عرضة للظمأ وسوء الحال ، وأهله على شفا الاضمحلال .

فإن سأل سائل : كيف يمكن بث الغيرة وانشاء الحزب الوطني واحياء اللغـة ؟ قلنا إن أعظم الأسباب الموجبة لحصول هذه المزايا هو إنشاء قاعة للخطابة يقوم فيها الخطباء الألباء ، وينطقون عن الغيرة والحمية بما يبين لنا الحقوق ويعين الواجبات ، ويذكرنا بمجد آبائنا وذل أبنائنا ، ويرينا حالة الأجنبيين ، وما هم عليه من القوة والثروة والمجد والسطوة ، فنعلم أسباب السقوط ووسائل الهبوط ، ويتبع ذلك إنشاء الجرائد الحرة القائمة بأمر الوطن الآخذة بأطراف الحق ، فإنها تقرِّب الأقصى باللفظ المـوجـز ، وتنبيء بأخبـار السلف ، وتبـين لنا أحوال جيراننا ، فترينا المصالح والمفاسد لنجتلب تلك ونجتنب هذه . ولا شك أنه لابد في عالم المدنية من كل منهما ، ولا يمكن البلوغ إلى غاية السعادة إلا بهما . ولا فرق بينهما إلا أن الخطابة تحرك الدم بحركة الخطيب وقوة المشافهة ، وأن الجرائد تثبت المطالب في الأذهان باعادة النظر الى مالا أثبت في الصحائف .

ولكني أجلكم ياأيهـا السـادة عن أن تحسبـوا أنكم تنـالون مزايا المـدنيـة ، وتحـوزون المعـارف والعلوم ، وتستكملون أسبـاب التقدم والسعادة ، وتبلغون ذروة المجد والشرف ، إن كان العلم فيكم مقصوراً على الرجال . بل أعيذكم من أن تجهلوا أنه لا يمكن لنا الخروج من خطة الخسف والجهـل ، ومن محبس الذل والفـاقـة ، ومن ورطة الضعف

والخمـول ، ما دامت النسـاء محـرومـات من الحقـوق ، وغير عالمات بالواجبـات ، فإنهن الأمهـات اللواتي تصدر عنهن التربية الابتدائية والأخلاق الأولية . ولا شك أن أول ما ينقش في لوح ذهن الانسان يكون ثابتـا صعب الزوال . وقـد قيل : العلم على صغر كالنقش في الحجر . وأقول إن هذا النقش هو السبب الأصلي في اختلاف المذاهب ، وتنوع المشارب ، فإن وجدت فيه الكدوره[٧٤] ، فلا صفاء في الذهن ولا سلامة في المشرب ، ولكن اذا كانت الأمهات عالمات ، عارفات بحقوق الانسانية ، متأدبات على ما تقتضيه أحكام الشرف والمدنية ، فلا شك أن أولادهن يتخلقون بأخلاقهن ، ويكتسبون منهن تلك المزايا الفاضلة . وعندي أنه إذا حصل التساهل في تربية المرأة ، وكانت رجال الأمة جميعا راسخين في العلم والمعارف ، مترقين في درجات الكمال ، فلا يمكن بقاء الأمة على تلك الحال المكتسبة إلا مدة بقاء أولئك الرجال . فاذا انقرضوا ، وخلفهم الأبناء المتخلقون بأخلاق أمهاتهم على مابهن من النقص في الكمالات العلمية ، رجعت أمتهم الى ما كانت عليه من الخسف وسوء الحال .

أقول هذا وفي يقيني أن حِلْمَكم يقيني الملام ، وأن تلطفكم يضمن لي حسن الختام .

(٧٤) الكدورة : الكدارة اي عدم صفاء الماء ، وتعكره .

السياسة الانجليزية في الممالك الشرقية

[ظهرت هذه المقالة في العدد الثالث من السنة الخامسة من جريدة « النحلة » بلندن أثناء زيارة الأفغاني في أواخر ١٨٨٢ ، كما ذكر محرر مجلة « المنار » التي نقلناها عنها بعد تعذر الحصول على اعداد « النحلة »]

بلغنا أن الحكومة الانجليزية قد عرضت لائحة في المسئلة المصرية على الدولة العثمانية تسكينا لروعها ، وتطمينا لبالها ، تذكر فيها أنها ما قصدت الاستيلاء على مصر ، ولا تود وضع اليد عليها ، ولكن سوف تبقى العساكر الانجليزية في البلاد النيلية الى مدة زوال القلاقل ، وحصول الراحة ، وتشكيل المجالس والمحاكم . ولا تود الدولة البريطانية أن تمس حقوق الحضرة السلطانية بمداخلتها في مصر .

نعم . هذه هي السياسة الانجليزية في جميع البلاد الشرقية ، عملت بها في الممالك التي أرادت الاستيلاء عليها ، وقد حذقت فيها وجربتها مرات عديدة ، حتى إذا خاض العاقل فيها رأي أن لا سياسة للانجليز سواها كأنها عرفت عقول الشرقيين ، وعلمت ما فطروا عليه من السذاجة وشدة الاعتقاد بمواعيد عرقوب ، فتأخذهم على غرة وتستلب بلادهم ، وهم في أمن منها يثقون بعهودها ، ولا يعرفون أن هذه الحكومة إنما تقتنص بأوهاق الايمان(٧٥) ولا تسلك في فتوحاتها إلّا مسلك الوداد ، حتى إنها قل ما تملكت بلداً بالقوة القاهرة . وإن الشر لا يأتي إلّا من معاهداتها .

أليست هي التي أزالت السلطنة التيمورية التي كانت منبثة في جميع أرجاء الهند بمداخلتها الودادية ومواعيدها المؤكدة ؟ أليست هي التي نقضت الحكومة النظامية في بنغالة بعساكرها التي وضعتها للمحافظة على تلك البلاد ؟ أليست هي التي أزاحت السلطنة الكهنورية(٧٦) بنفس جنودها الذين أقامتهم لتوطيد الراحة فيها ؟ أين ذهبت حكومات أمراء الكرناتك ومدراس التي كانت مطمئنة بالعساكر الانجليزية ومعتمدة على

(٧٥) الوهق ، محرك ويسكن ، الجبل يرمى في انشوطة فتؤخذ به الدابة والانسان . الجمع اوهاق (هامش المنار)

(٧٦) كذا في الاصل المخطوط وهو مما تركه لنا الاستاذ الامام ، ولكنه بغير خطه ولعلها اللكناهورية (هامش المنار)

معـاهـداتهـا ؟ أين حكومة بنجاب وممالك أمراء السند ؟ أين حكومة المراتيين في بونه ؟ ذهبت كلها لاعتماد أهلها على وعود الانجليز وحماية عساكر الملكة . وما أبادهم ، لعمري ، سوى تلك العساكر نفسها التي وضعت لصيانتها من الفساد الداخلي ، فاحذروا ياأهل الديار النيلية من أن يحل ببلادكم ما حل بغيرها . ولا غرو أن يحذو الفتى حذو والده .

وقد بلغنا منذ قدمنا لوندن[٧٧] أن معظم الأوامر التي يجريها الخديو تكتب أولا في الوزارة الخارجية بلوندرة ، ثم ترسل الى المندوب الانجليزي بمصر ، والمذكور يقدمها لحضرة الخديو ليجريها كأنها صادرة عن أمره باختيـاره ، ولا أمـر له فيهـا ولا اختيار ، وربما هذا كان الباعث على استقالة رياض باشا من الوزارة .

هذه هي السياسة الانجليزية التي كشفت عنها غطاءها التجارب ، وبهذه السياسة جالت في ميدان جميع فتوحاتها ، فلا أظن أنها تتمكن بعـد الآن من احتـلال عقول الشرقيين بهذه المواعيد[٧٨] . وما أظن أن السلطان ورجال دولته بعد ما علموا نبأ معاهدات الانجليز في الهند أن يعتمـدوا عليهـا ، ويثقـوا بأصحـابهـا ، ولا ريب أنهم قد اطلعوا على المعـاهـدات الانجليـزية التي طبعت في أربعة مجلدات بمطبعة (نول كشور) في بلدة لكناهور . ومنها علموا كيف يستولى الانجليز على البلاد بحـرفة العهود الفارغة والمواثيق الباطلة ، وفيما قلناه عبرة لمن يعتبر ، وسوف نعود إلى الخوض في هذا الموضوع متصلا .

(٧٧) كذا في الاصل المطبوع ، وهي لندن ، وهي ايضا لوندرة ولندرة كما كانت تكتب وقتها .

(٧٨) إن امير مكة حسين بن علي وأولاده قد خيبوا آمال السيد جمال الدين فانخدعوا بالوعود الانكليزية على قول الذين يحسنون الظن فيهم بغباوتهم ، والذين يدافعون عنهم - ويرى آخرون انهم خائنون لامتهم لا مخدوعون ، فإنهم يطلبون الملك ، ولم تسم هممهم الى طلبه إلا من طريق الانكليز ، فساعدوهم على أخذ البلاد العربية ليشتركوا معهم وتحت ظلهم في التمتع بحكمها (هامش المنار)

أسباب الحرب بمصر

[ظهرت هذه المقالة ـ كما يقول رشيد رضا ـ في ذات العدد من صحيفة « النحلة » الذي ظهرت فيه النبذة السابقة . ويبدو أنها ظهرت بغير توقيع . فقد ذكر رضا في تقديمه لها :

« وقد رأينا في نفس العدد المذكور من تلك الجريدة نبذة عرفنا من مشربها واسلوبها انها لأستاذنا حفظه الله ، خصوصا وان بين عبارتها وعبارة صاحب الجريدة ما يدل على أنها مدخولة فيها . فنقلناها جازمين بأنها بنت فكره ، فإنه رضي الله عنه ما حل بَلَداً إلّا ترامى عليه أرباب جرائدها العربية التماس أن يزين صحفهم ببدائع حكمه ، وابكار افكاره ، فيجيب سؤالهم ناحيا فيما يكتبه نحـو ما هو ولوع به من الحمـايـة عن الشرق وبنيـه ، والذود عن الأمم الاسـلامية ، والسعي في توحيد كلمتهم ، وتحذيرهم من دسائس الغربيين ، كاشفـا لهم الحجـاب عن وجه سياسة الأمة التي يريد تحذيرهم منها بما لم يستطع ساستها الى كشفه سبيلا ، لو ارادوا له كشفا »

وليس هنـاك ما يمنع من أن يكون الأفغاني صاحب المقالة على أي حال . فالمعلومات الواردة فيها نجدها في بعض مقالاته الأخرى ، ولو بصيغ مختلفة . ووجهة النظر التي تحملها نجدها أيضا في تلك المقالات .

لقد نشرتها « المنار » في ذات العدد السابق الذي نشرت به النبذة القصيرة السابقة .]

لقد ذهب الناس مذاهب شتى في أسباب الحرب التي قَدَحَتْ الانجليز زنادها على المصريين، فمنهم من زعم ان الطمع في الاستيلاء على البلاد النيليـة الخصيبة كان الباعث على ذلك ، ومنهم من اعتقد أن مصالح بريطانيا في خليج السويس حملت الانجليز على فعل ما فعلوا ، وظن قوم أنهم انـدفعوا الى تجشم تلك الخسائر الباهظة غيرة على حفظ نفوذهم السيـاسي والتجاري بالديار المصرية ، والتأمين على استيفاء ديونهم ، وهلم جرا .

تلك ، لعمري ، تعليلات سارت بها الجرائد رجماً بالغيب أو تمويهاً على عيون الناس .

أمـا أسبـاب الحرب الحقيقية فهي ما كان ثبت في عقول الانجليز والفـرنسيس من أن جلالة السلطان عبـد الحميد قد سعى منذ تولي الخلافة والملك في جمع كلمة المسلمين المنتشرين في أقطار الهند وأفريقية

وسورية والعراق واليمن والحجاز ومصر ، وغيرها من البلاد لكي يجعلهم عصبة مستمسكة بعروة الخلافة الوثقى ، وأمة تتساند إلى بعضها[٧٩] كالبنيان المرصوص ، وأن يكون السواد الأعظم من المسلمين في يد أمير المؤمنين يستنجدهم في الملّمّات لمقاومة دول أوربا إذا طمعوا في سلب بلاد المسلمين . فكان الفرنساويون يقاومون نفوذ السلطان وخلافته في مسلمي الجزائر وتونس ، مخافة أن يكون ذلك وبالاً عليهم ، وكانت الانجليز تحاذر من إنقياد مسلمي الهند الى دعوى الخلافة ومن الانضمام الى العصبية الاسلامية . وكانت تلك الدولة القيصرية قد بلغها أن الحضرة السلطانية بعثت برجال الدين الى المسلمين ليدعوا اخوانهم الى طاعة أمير المؤمنين ، وينشروا بينهم رسائل تولد في عقولهم فروض الانقياد الى الراية النبوية إذا نشرها السلطان ودعاهم إلى التشمير عن ساق الجد لنصرته والجهاد في سبيل الملك والدين .

وما زاد في طنبور[٨٠] الانجليز نغمة إلّا النشرات التي كان السيد (نصرت علي) ينشرها في دهلى[٨١] بايعاز السلطان ، فلما أخذت مشروعات السلطان ومندوبيه تضرم نار الغيرة الدينية ، وتثير الحمية الاسلامية في نفوس بعض من الهنود ، اضطرت الحكومة الانجليزية بالهند إلى اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمنع سريان تلك العدوى . وعثرت في أثناء ذلك على رسائل منتشرة بين المسلمين كانت قد طبعت في القسطنطينية بدار الطباعة الشاهانية ، وأرسلت إلى الأقطار الهندية لانهاض همة المسلمين ، فألقت القبض على كثيرين من الذين وجدت عندهم من تلك الرسائل وحاكمتهم ، ومن ذلك الوقت شرعت انجلترة تتوجس في تلك المقدمات نتائج وخيمة في ممالكها الهندية ، فكمنت بالمرصاد تترقب الفرصة الملائمة لتمزيق شمل تلك العصبية الاسلامية التي يصفها الافرنجيون باسم (بانسلاميزم)[٨٢] وفيما كانت تضرب أخماسا في أسداس ، وتقدم رجلا وتؤخر أخرى ، بلغها أن الحضرة السلطانية قد باشرت تنفيذ مشروعاتها بالديار المصرية ، وضم مسلمي تلك البلاد أيضا الى العصبية الاسلامية ، بواسطة الشيخ محمد ظافر ،

---

(٧٩) الوجه الصحيح أن يقال يتساند بعضها الى بعض (هامش المنار)
(٨٠) الطنبور : آلة موسيقية ، أو آلة للري ، أو اسطوانة لتحبير الورق في آلات الطباعة ، أو غير ذلك .
(٨١) دهلي : دلهي .
(٨٢) Pan Islamism عبارة انجليزية او فرنسية تعني : الجامعة الاسلامية .

والسيـد أحمـد سعد المدني ، وبسيم بك ، وراتب بك ، وأحمد عرابي وأحـزابـه ، فأصدرت الدولة البريطانية أمرها الى مندوبها بمصر بأن يستقصي حقيقة الخبر .

أما ذلك المندوب فكان بادي بدء يعتقد أن الحرب الأهلية عبارة عن عصبية عسكرية جُلُّ سعيها في اصلاح شؤونها وطرد الضباط الشركس من مصـاف الجهادية المصرية ، ولكن خيل اليه بعد ذلك أن الحضرة السلطانية قد اغتنمت من ثورة العساكر المصرية ، واتخذت عرابي باشا آلة لقضاء أغراضها ، وتوطيد نفوذها في القطر المصري وضم المصريين الى العصبية الاسلامية ، فرفع المندوب الانجليزي تلك الأخبار الى لورد جرانفيل ، وأثبت وجود عصبية دينية قد تردت برداء عصبية سياسية وطنية ، تدعى تحرير الفلاحين من ربقة المرابين والأجانب . وفي الحقيقة ليست سوى عصبية اسلامية دينية تحت قادة السلطان أمير المؤمنين غرضهـا الوحيـد مقاومة دول أوروبا وانهاض همة المسلمين في الهند والجزائر وتونس وبلاد العرب ، فتداركت انجلترا العواقب ، وصممت على إذلال تلك العصبية الاسلامية قبل أن يستفحل أمرها ، لأن الانجليز تعتقد أن مصر باب الهند وخليج السويس دهليزها فإن استفحل أمر عرابي باشا وحزبه لحق بهم المصريون على اختلاف أجناسهم ، وتبعهم السـوريـون والعرب ، وأنشأوا أمة عظيمة الشأن شديدة البأس تضر الانجليـز ومستعمـراتهم في الهنـد . فرسـخ في عقول رجال السياسة البريطانية أن منع إفشاء الوباء خير من علاجه بعد انتشاره ، وصمموا على إخراج عرابي باشا وأحزابه من الديار المصرية ، إما بالحسنى وإما بالاكراه ، طمعاً في إطفاء نار الفتنة ، وتمزيق شمل العصبية الاسلامية المتظاهرة بشعار الوطنية ، فلما آيسوا من إخراجهم بالحسنى ، عولو على إذلالهم بالأسـاطيـل المدرعة ، والمدافع المثمنة ، والجنود البحرية والبـريـة ، ومـا انثنـوا حتى فتكوا بهم في ملحمة التل الكبير ، وكانت القاضية على عرابي باشا وأحزابه ، وقد ثبت في عقول كثيرين أن إذلال عرابي وأنصاره قد أذل العصبية الاسلامية إذلالاً لا عز بعده ما توالى الفرقدان .

نبذة من مناظرة خيالية

[ظهرت هذه النبذة بجريدة « أبو نظارة » بباريس في يناير ١٨٨٣ ونقلتها « المنار » عنها ، ولكننا لم نتمكن من العثور على عدد « أبو نظارة » فاعتمدنا على « المنار » وحدها]

إنكم قد ضللتم عن رشدكم ، وتهتم في بيداء غوايتكم ، وما يقوم لكم دليل في تقاعسكم عن الذود عن أوطانكم ، ولقد غلب عليكم الجبن ، واستولى عليكم الضعف ، وأضعف جنانكم الخوف والخشية ، ألا ترون أن كل أمر صعب عند الشروع فيه ؟ أفلا تشعرون أن صعوبة المسالك بمقدار عظم المقاصد ؟ وأن الراحة محفوفة بالمشاق ، وأن أفضل الأعمال أحمزها ؟[٨٣] أفترضون بالعبودية للأجانب ، والاستكانة للأباعد ، وإن موت المرء خير من بقائه في هذه الدنيا مع قلة مدتها وسرعة زوالها ، رقًا لا يملك من الأمر شيئا ؟ أتظنون أن هذا التعلل يدفع عنكم غضبَ رب الجنود ؟ لا وحقه . إنكم إن لم تدافعوا عن أوطانكم بنفوسكم وأموالكم لا تنالون منزلة لديه ، ولا تجدون مخلصا من سخطه ، وتبقون في ذل العبودية ما دامت الأرض باقية ، وكل عذاب دونه لحقير ، فتشجعوا وثبِّتوا أقدامكم ، وسكِّنوا روعكم ، وإعلموا أن الظفر مقرون بالصبر ، وأيقنوا أن الراحة والسعادة في أثر المشقة ، وأن سنة الله قد جرت من الأزل ، أن لا ينال الانسان مرغوبه إلَّا بعد التعب ، فلا تقدموا هذه الحجج الداحضة ، ولا تظهروا الفشل في طلب حقوقكم ، ولا تتسربلوا بالجبن فإن كل جبان محروم ، فاسعوا في اتفاق كلمتكم ، وإجعلوا صدوركم مِجَنًا لسهام أعدائكم ، مجدين في خلاص بلادكم ، وإعلموا أن الأمم الغابرة والحاضرة ما نكست رقابها ، ولا كسرت أطواق العبودية ، إلا بتحمل المشاق والخوض في غمرات الموت .

---

(٨٣) أحمز الأعمال امتنها ، ا هـ من القاموس ، زاد في شرحه ، وقيل أمضها واشقها .

(هامش المنار)

رسالة الى « البصير » ومحررها خليل غانم

[ظهرت هذه المقالة على صورة رسالة بجريدة « البصير » في باريس في ٨ فبراير ١٨٨٣ . وقدمتها الجريدة على صفحتها الأولى بالكلمة التالية :

« وردت الينـا الرسالة الآتية من جناب الفيلسوف العلامة ، السيد جمال الدين الأفغاني ، فجعلنا لها من جريتنا المحل الأول ، اعترافا بقدر صاحبها ، وإظهـاراً لعـدم تغرضنا . وحيث انها تتعلق بسياسة « البصير » في المسالة الشرقيـة ، فلا بد لنـا أن نبسـط في العـدد القادم ملاحظات تكون عبارة عن جوابنا . وأما الرسالة فهي هذه بنصها الشائق ، ومعناها الرائق »

وفي العدد التالي في ١٥ فبراير ١٨٨٣ (ص ص ١ ـ ٢) اجاب محرر الجريدة اللبنـاني خليل غانم (١٨٤٦ ـ ١٩٠٣) على ما أثاره الأفغاني في رسالته من دفاع عن الدولة العثمانية ، فقال ان غاية سياسة الصحيفة في « تبكيت وتونيب وتعييب الدولة العثمانية العلية » هي « تنبيه رجالها من غفلتهم » غيرة على ارتفـاع شأن بلادهم ، وإصلاح حال الأمة الخاضعة لاستبدادهم . وأضاف المحرر أن الجريدة لم تغر دولة أوربية بالممالك العثمانية ، لأنها حريصة على وحدتها وسلامتها . وكان المعروف أن « البصير » قد صدرت في باريس بدعم وتأييد من فرنسا .

وقد حرص محرر الجريدة ـ وهو نفسه من أعضاء البرلمان العثماني الذي حله السلطان عبـد الحميـد ـ على أن طريق تقدم الدولة العثمانية مرهون بالرجوع الى الدستور الذي ابطله السلطان ، وضبط الحكم ، وإقامة العدل بين الجميع من رعاياها .

وقد نقلت « المنار » مقالة الأفغاني عن « البصير » في العدد الأول من المجلد ٢٦ ، وجعلتها بعنوان « كتاب في الدفاع عن الدولة العثمانية » ، ولكننا فضلنا العنوان الذي جعلناه على راس هذه المقدمة .]

سيـدي الخليل ، بما فطر عليه من العقل الغريزي الذي دلت عليه عقائل أفكاره ، وأنبأت دقائق أفكاره عن فسيح مجاله وسعة مضماره ، كان الواجب عليـه قبـل الخـوض في أحـوال الشرق والسلوك في بيداء سيـاستـه ، وهتـك الستر عن قبائح رعاته وشنائع ساسته ، أن ينظر ببصـيرتـه الوقادة الى ما أَلَمَّ بالشرقيين من البلايا ، وما أحاط بهم من الرزايـا ، فإنهم لتفريطهم في إصلاح شئونهم من قبل قد أشرفوا على الهلاك ، وصاروا بعجزهم عن صيانة حقوقهم غرضا لكل نابل ، وطعمة لكل آكل ، تستملك الأباعد بلادهم وتستعبد رجالهم ، وتستلب أموالهم .

لا ريب أن الأمـة الخاضعة للأجانب لا يمكنها العروج الى مدارج

الكمال التي لا تنال إلا بهمة عالية تأبى العبودية ، ولا نجاة لهم من هذه المصيبة التي تقهر النفوس ، وتوجب الذل والخمول ، إلا بالتفافهم تحت راية واحدة على الذود عن حقوقهم ، من دون ملاحظة الاختلاف في الجنسية ، لأنهم بتقارب أخلاقهم ، وتلاؤم عاداتهم ، وتوافق أفكارهم ، صاروا كأنهم جنس واحد ، وإن اختلفت لغاتهم . فخضوع بعضهم لبعض مع تناسب طبائعهم لا يبعث على الذل والاستكانة ، ولا يزيل النخوة التي هي الداعية الى كل فضيلة وكمال ، واذا تفرقت كلمتهم ، وتشتت قوتهم ، لا يمكنهم الخلاص من مخالب الذين ينتهزون الفرصة لاسترقاقهم ، فيجب على كل شرقي دفعا لهذه النازلة ، وصيانة لأمته عن ذل العبودية ، أن يسعى جمعا للكلمة في تشييد مباني الحكومات الباقية في الشرق ، فإن الأجانب ما وضعوا أيديهم على بلد إلا عاملوا أهله معاملة الآلة .

ولهذا يمكنني أن أقول إن سيدي الخليل في مقالاته التي حررها إنهاضاً لهمم الأمة العربية ، وإن كان ما أراد منها إلّا خير أبناء جنسه ، قد حاد عن صراط السياسة القومية بتعرضه للدولة العثمانية ، وكان عليه أن يفقه أن هذه الدولة في هذه الأيام ، بمنزلة نظام لأجناس مختلفة من الشرقيين يحفظها عن التفرق والضياع ، ويمكن كل جنس منها أن يسعى رويداً رويدا في إصلاح شئونه ويرتقي الى مدارج عزه ، على حَسْب كده وجده . واذا انقطع هذا النظام وتفرقت الكلمة ، وتشتت الجمع ، واستقلت كل طائفة بأمرها ، فإنها لا تستطيع وقتئذ صون نفسها عن تطاول الأجانب ، ولا تطيق مقاومة الأباعد الذين لا يريدون إلا استعبادهم ، فيصبح كل هذه الأجناس عبيداً أذلاء لا يملكون من أمر أنفسهم شيئا ، فلا ينتظر لهم إذاً كمال ، ولا يرجى لهم فلاح أبدا ، وربما اضمحلت جنسيتهم التي نيطت ببقاء لغتهم . وهذا هو الموت الذي لا بعث بعده ما دامت الأرض دائرة .

ولا شك أن سيدي الخليل لو لمح ببصره لرآني محقا في مقالتي هذه ، ورجائي منه بعد الاغماض عما جرى به قلمي أن يتخذ لكبح شَرَه الأجانب اتفاق كلمة العثمانيين مسلكاً لجريدته الغراء ، ويبني خدمته لعموم الشرق على أساس سياسته ، لا زال هادياً للعباد إلى سبيل الرشاد .

الشرق والشرقيون

[ظهرت هذه المقالة ـ لأول مرة ـ في جريدة « أبو نظارة » بباريس في ٩ فبراير ١٨٨٣ . ثم أعادت نشرها جريدة « البصير » بباريس في عددي ١٥ ، ٢٢ فبراير من العام ذاته . وبعدها نقلتها مجلة « المنار » بالقاهرة في عددي ٨ ، ٩ بالمجلد ٢٥ .

وكانت نسخة « المنار » منقولة عن « أبو نظارة » التي نشرت المقالة ـ على طريقتها في استخدام اللهجة العامية ـ بعنوان « الشرق والشرقيين » ، ثم تولى محمد رشيد رضا تصحيح الكلمات والعبارات العامية في النص ، وردها الى الفصحى .

قدمت جريدة « البصير » المقالة بهذه العبارة :

« للعالم العامل والفيلسوف الكامل ، جمال الدين الحسيني الأفغاني »

وقدمتها « المنار » بهذه الفقرة :

« نشرها السيد في جريدة « أبو نظارة زرقاء » التي كانت تصدر بباريس أيام وجوده فيها سنة ١٣٠٠ (سنة ١٨٨٣) وهي مصدرة بمقدمة حكيمة في العقل والنفس والأخلاق ـ التي هي يتفاضل بها البشر افرادا وجماعات ، ويعلو بعض الأمم بعضا في ارتقاء الحضارة ، ويتسابقون في جلبة السعادة والسيادة ـ ويليها المقصد في شعبتين ، إحداهما بيان ما كان للشرقيين من حظ ارتقاء العقل في العلم والبصيرة ، وارتقاء النفس في الأخلاق العالية ، ثم ما انتهى اليه حالهم من إهمال النعمتين ، والتدهور عن القمتين ، والشعبة التالية في الشواهد التاريخية على ذلك بما كان من اضاعتهم لمالكهم ، وتخريب بيوتهم بأيديهم » .

وبالرغم من جهد « المنار » في تصحيح عامية « أبو نظارة » وتقسيم المقالة الى عناصر ، فقد وجدنا من الأفضل إثبات النص بغير تقسيمات « المنار » ، مع مراجعته على نسخة « البصير » ، وتصحيح عامية « أبو نظارة » ، والاستعانة ببعض شروح « المنار » ، وإكمالها بالشروح اللازمة .]

الانسان انسان بعقله وبنفسه . ولولا العقل والنفس لكان الانسان أخسَّ جميع الحيوانات ، وأشقاها ، لأنه في حياته أضيق مسلكاً ، وأصعب مجازا ، وأوعر طريقا منها . قد حفت به المكاره ، وأحاطت به المشاق ، واكتنفت به الآلام . لا يمكنه أن يقوم بمعاشه وهو منعزل عن أبناء نوعه ، ولا يطيق الحر ، ولا يتحمل البرد ، ولا يقدر على الذود عن نفسه . وليس له من الآلات الطبيعية ما يثقف به معيشته . وهو محتاج

في ضروريـات حياته ، ومفتقر في الكمال فيها الى الصناعة . ولا يمكن الحصول عليها إلّا بإجالة الفكرة والتعاون مع من يشاركه في العقل من النوع البشري .

والعقـل ما به تستنبط المسببات من أسبابها ، ويستدل بالعلل على معلولاتهـا ، ويُنْتَقَلُ من الملزومات الى لوازمها ، وتستكشف الآثار حين ملاحـظة مؤثـراتها ، وتعرف العواقب ضارها ونافعها ، وتقدر الأفعال بمقاديرها ، على حسب ما يمكن أن يطرأ عليها من الفوائد والخسائر في عاجلها وآجلها . ويتميز الحق من الباطل في الأعمال الانسانية نظرا الى عواقبهـا ـ وإنَّ العقـل هو الهادي الى مهيع[٨٤] السعادة ومنهج الأمن والراحـة . لا يضـل من استرشده ولا يغوى من استهداه . ولا يحوم الشقى حول مَنْ رَكَنَ اليه . ولا يعثر في المداحض[٨٥] من اعتمد عليه .

ولا يلتبس الحق بالباطل عَلَى مَنْ استنار بنوره ـ وان الخير كله به . وليس الشر إلّا بالحَيَدان عن صراطه القويم . من فقده فاتته السعادة لا محـالة ، ولو أخـرجت له الأرض أفـلاذهـا[٨٦] ، وأسبغت عليه الدنيا نعيمها ـ وإن الأمم ما سادت إلا بهدايته . وما ذَلَّت بعد رفيع مقامها وعظم منزلتها إلّا بعد أن أعرضت عن خالص نصحه ، وتوغلت في بيداء غوايتهـا ، واستعملتـه في مسالك ضلالتها ، واستخدمته لقضاء أوطار طبـائعهـا الخسيسـة التي تجلب عليهـا الشنـار[٨٧] ، وتـوجب المَعَرَّة والصغار . والنفس هي منشأ أخلاق كريمة ، وأوصاف عقيلة ، هي قوام الاجتمـاعات المدنية والمنزلية ، وأساس التعادل في المعاملات ، وميزان التكافؤ في المؤازرات ، ومقياس التوافق في المعاونات ، ولا يمكن التآلف بين القوى المتفرقة ، لاقتناء ما تقوم به حياة الانسان إلا بها ، ولا تلتئم أهوية النفوس المختلفة لاكتساب ضروريات معاشها إلا بسببها . وهي التي تجعل الأفراد الانسانية ، مع تضاد طبائعها ، بمنزلة شخص واحد يسعى بأعضائه المتخالفة في أشكاله وجوارحه ، المتباينة في هيئاتها ، إلى مقصد واحد لا يمكن الوصول اليه إلّا باستعمالها ، بحركات قد اختلفت مع وحدة جهتها أو ضلعها ـ وسيادة الأمم الغابرة والحاضرة هي من

---

(٨٤) المهيع ـ بفتح الميم وتسكين الهاء : الطريق الواضحة .
(٨٥) المداحض : الاماكن الزلقة .
(٨٦) الافلاذ : الكنوز
(٨٧) الشنار : العار .

أخص نتـائجهـا ، لأنهـا لا يمكن حصولها إلّا باتفاق كلمة آحادها ، واجتماع آراء أفرادها . ولا تتفق الكلمة ولا تجتمع الآراء ، إلا بالتكافؤ في المسـاعي ، والتـوازن في تحمـل المشـاق ، والاشتـراك في المنافع ، والمساواة في الحقوق ، والتعادل في التمتع بثمرات الأعمال ، بلا تفاضل ولا استئثار . وكل هذه في وجودها وبقائها تحتاج إلى الأخلاق الكريمة والأوصاف العقيلة ، التي بها يعرف الانسان حقه ، ويقف عنده . ولا تَشَتَّتت أمَّة ، ولا ذل قوم ، ولا اضمحلت سلطنة ، ولا تفرقت جمعية ، إلا بفساد أخلاقها ، وتطرق الخلل في سجاياها ، لأنها بفسادها ، وتطرق الخلل فيها ، توجب تخالف الأيدي ، وتباعد الأهواء ، وتضارب الآراء ، وتبـاين الأفكـار ، فيستحيل حينئذ الاجتماع ، ويمتنع الاتفاق . واذا أمعن البصير في حقيقة الأخلاق الرذيلة ، يعلم أنها بذاتها ، تبعث على التفرق والاختلاف ، وتمنع عن الاجتماع والائتلاف ، وما ينشأ عن ذات الشيء لا يمكن زواله ، ما دامت ذاته باقية . فاذا تمكنت الأخلاق الرذيلة من أمـة ، فلا يرجى لها نجاح ، ولا يحصل لها فلاح ، ما لم تسع في تعديلها ، ولم تدأب في تقويمها . ويمكن أن يقال أن بين كمال العقل ، وطهارة النفس ، وتخلقها بالأخلاق الفاضلة ، تلازماً ، لأن العقل إذا بلغ كماله يقهر الطبيعة ، فحينئذ تسلم النفس عن سَوْراتها ، وتخلص من عكر مذماتها ، فتنقاد للعقل مستسلمة له ، خاضعة لحكمه ، ويستعملها العقـل على نهج الحق والعدل ـ وليست الأخلاق الفاضلة إلا أن تزن أعمالها بميزان العدل ، ولا تحيد في هواها عن صراط الحق .

وبعد هذه المقدمة ، يمكن لنا أن نقول إن الشرق بعد ما كان له من الجاه الرفيع ، والمقام المنيع ، والسلطنة العظيمة ، وبسطة الملك ، وعظيم الشوكة ، وكثرة الصنائع والبدائع ، ووفور الامتعة والبضائع ، ورواج سوق التجارة ، وذيوع العلوم والمعارف ، وشيوع الأدب والفنون ما هبط عن جليل مرتبته ، وما سقط عن رفيع منزلته ، ولا استولى الفقر والفاقة على ساكنيه ، ولا غلب الذل والاستكانة على عامريه ، ولا تسلطت عليه الأجـانب ، ولا استعبـدت أهله الأبـاعـد إلّا لاعـراض الشرقيين عن الاستنـارة بنور عقولهم ، وتَطرُّق الفساد في أخلاقهم . فإنك تراهم في سيرهم كالبهـائم ، لا يتـدبرون أمرا ، ولا يتقون في أفعالهم شراً ، ولا

يكـدون لجلب النـافع ، ولا يجتنبون عن الضار[٨٨] . طرأ على عقولهم السُّبـات ، ووقفت أفكـارهم عن الاجالة في اصلاح شئونهم ،.وعميت بصـائـرهم عن إدراك النوازل التي أحاطت بهم .. يقتحمون المهالك ، ويمشون المداحض[٨٩] ، ويسرعون في ظلمات أهوية نفوسهم التي نشأت عن أوهـامهم المُضِلَّة ، ويتبعون في مسالكهم ظنونا قادهم اليها فساد طبـائعهم ، لا يحسـون المصائب قبل أن تمس أجسادهم ، وينسونها كالبهيمـة بعد زوال آلامها واندمال جراحها ، ولا يشعرون ، لاستيلاء الغبـاوة على عقـولهم واكفهـرار ظلمات غشاوة الجهل على بصائرهم ، باللذائذ التي خُصَّ الانسان بها من حب الفخار وطلب المجد والعزِّ وحسن الصيت وبقاء الذكر ، بل لاستيلاء الغفلة على عقولهم يحسبون أن يومهم دهرهم ، والتقمقم كالسارحة[٩٠] شأنهم ، لا يدرون عواقبهم ولا يدركون مآل أمـرهم ، ولا يتـداركـون ما فاتهم ، ولا يحذرون ما يتَرَبَّصهم من أمـامهم ومن خلفهم ، ولا يفقهـون ما أكمن لهم الدهـر من الشـدائد والمصاعب . ولذا تراهم قد راموا الذُلّ وألفوا الصَغَار وأنسوا الهوان ، وانقادوا للعبودية ، ونسوا ما كان لهم من المجد المؤثل والمقام الأمثل ـ وبعـد انحدارهم عن ذروة العقل الذي لا كرامة للإنسان إلَّا به غلبت عليهم الخسة والنذالة . ورانت على قلوبهم القسوة والجفاء . وتمكن من نفوسهم الظلم والجور ، واستولى عليهم العُجْب ، لا عن جاه يدعو إليه ، ولا عن فضيلة تبعث عليه . وتظاهروا مع الذل المتمكن من قلوبهم بالكبر والعـظمـة ، وفشـا بينهم الشقاق والنفاق ، وتلبسوا بالغدر والخيانة ، واستشعـروا الحسد والنميمة ، وتسربلوا بالحرص والشره ، وتجاهروا بالوقاحة والشراسة ، واتسموا بالخشية والجبانة ، وانهمكوا في الشهوات الدنيَّـة ، وخـاضـوا في اللذات البدنية ، وتخلقوا بالأخلاق البهيمية ، متـوسـدين الكسـالة والفشل ، واتصفوا بصفات الحيوانات الضارية يفترس قويهم ضئيلهم ، ويستعبد عزيزهم ذليلهم ، يخونون أوطانهم . ويظلمون جارهم ، ويستلبون أموال ضعفائهم ويخوسون[٩١] بعهودهم ،

(٨٨) اجتنب يتعدى بنفسه . قال تعالى : الذين يجتنبون كبائر الاثم . (هامش المنار) اي أن الصواب عدم استخدام حرف « عن » .

(٨٩) أي فيها ، وهي جمع مدحضة ، حيث تدحض الرجل ، اي: تزل . (هامش المنار)

(٩٠) السارحة : البهيمة التي تسرح للمرعي ، والتقمقم : اخذ الشاه ما على وجه الارض بمقتمها واكله ، وكذلكم تتبع الانسان ما على المائدة واكله كله . (هامش المنار)

(٩١) يخوس : يكذب . ويحنث .

ويسعون في خراب بلادهم ، ويمكنون الأجانب من ديارهم ، لا يدفعون ذمارا ، ولا يخشون عارا . عالمهم جاهل ، وأميرهم ظالم . وقاضيهم خائن ، ليس لهم هاد ، فيرشدهم الى سبيل نجاتهم ، ولا زاجر فيكفّهم عن التمادي في غيهم ، ولا وازع يقدع[٩٢] الجائرين عن نهش عظام فقرائهم ـ وصاروا جميعا ، بسخافة عقولهم وفساد أخلاقهم ، عرضة للهلاك ، وأشرفوا على الزوال . تأمل فيما أقص عليك من أعمال الشرقيين من قبل حتى تعلم أنهم هم الذين بحيدانهم عن سُنَّة العقل ، قد أوقعوا أنفسهم في الذل الدائم ، وجلبوا ـ بعدم تدبرهم في عواقب أمورهم ـ الخراب والدمار الى بلادهم وأضعفوا ـ بسوء سياستهم ـ سلطنتهم القوية ، ومكنوا أعداءهم من بلادهم ، جهلا منهم بنتائج أعمالهم . وها هو ذا :

إن العثمانيين قد اتفقوا مع الروس على مقاسمة البلاد الايرانية حينما تغلب الأفغانيون على أصفهان أيام الشاه سلطان حسين . ولو نظروا بنظارة التدبر الى الأمة الروسية ، وما لها من العلاقات مع اليونانيين والرومانيين والسربيين[٩٣] والبلغاريين وغيرهم من رعايا السلطنة العثمانية ، وما يمكنها أن تحوزه في مستقبل أمرها من القوة والبسطة ، لما اختلجت ببالهم محالفتها ، ولا خطرت في أذهانهم مؤامرتها[٩٤] . بل كانوا يسعون في قلع أُسِّها قبل استحكامه ، وقطع شجرتها قبل أن تشج[٩٥] عروقها . وإنهم جاهروا الايرانيين بالحرب من طريق بايزيد . وقد كان عباس مرزا بجيوشه يقاومون الروسية[٩٦] ، ويدفعونها عن بلادهم فوهنت قوتهم ، وضعفت مريرتهم ، واستملك الروس ـ بسبب هذا الاقتحام ـ أكثر بلاد أذربيجان . ولو استشار العثمانيون عقولهم وقتئذ لأشارت عليهم بأن ضعف الايرانيين وقوة الروس هما معا علة لتزعزع أركان السلطنة التركية ، ولكنهم اتبعوا خطوات أنفسهم ، وتزينت لهم أوهامهم ، وظنوا أنهم يحسنون صنعا ، فأسرعوا في هلاك أنفسهم وهم لا يشعرون . وكان عليهم ـ اهتداء بنور

---

(٩٢) يقدع : يمنع .

(٩٣) الرومانيون نسبة الى رومانيا والسربيون (الصربيون) نسبة الى الصرب في يوغسلافيا .

(٩٤) يقصد : التآمر .

(٩٥) يشج : يشق .

(٩٦) الروسية : روسيا .

العقل وسلوكا في مسلك السياسة الحقة[٩٧] ـ أن يلاحظوا الجامعة القوية التي بينهم وبين السلطنة الايرانية ، فيتفقوا معها في كبح شره الروسية وإضعاف قوتها أمناً من غوائلها وحذرا من آفات مطامعها . وإنهم ، أي العثمانيين ، جبهوا سفير « تبو سلطان » سلطان « ميسور » بالرد ، حين عرض عليهم من طرف سيده استبدال البصرة ببعض البلاد الهندية التي كانت في حوزته ، فامتعضوا من هذا الطلب ، وردوا السفير خائبا . وكان غرض (تبو سلطان) من طلبه هذا ، أن يكسر سورة الانكليز ، ببسط السلطة العثمانية في الهند وتمكنها منها . وذهل العثمانيون ، تهاونا منهم في العلاقات التامة التي بينهم وبين الهنديين . وأن سلطتهم لو امتدت إلى تلك الممالك لَدَخَلَ جميع حكامها بلا معارضة تحت لوائهم ، وقَدَروا حينئذ على قَدْع الحكومة الانكليزية عن تطاولاتها في الهند ، وسدوا عليها طرق فتوحاتها في المشرق . وما شعروا تساهلا في السياسة ، وتغافلا عن منهج العقل ، أن بسطة الحكومة الانكليزية في الآسيا ، توجب تحكمها في بلادهم ، وطمعها في الاستيلاء عليها كما وقع الآن ، حتى مكنوا عساكرها مدة طويلة من شق الأراضي المصرية ، ذاهبة الى أقاصي الشرق للتغلب عليها .

وإن شاه إيران (فَتْح علي شاه) ـ إرضاءً للانكليز ـ هدد الأفغانيين بالحرب ، وقتما أرادوا أن يزحفوا الى الهند لانتزاعها من أيدي الانكليز . ولو استنار الايرانيون وقتئذ بنور عقولهم ، لانكشف لهم ، أن قوة الانكليز في الهند إذلال لهم ، وخطر على بلادهم ، ولعلموا أنهم والأفغانيين ، غصنا شجرة الايران ، قد تشعبوا من أصل واحد ، ونشأوا في أرض واحدة ، تجمعهم وحدة الجنسية وتؤلفهم الأخوة الحقيقية ، لأنهم متساهمون في العز والشرف ، ومتشاركون في الذل والهوان . وما فرقت كلمتهم إلا أوهام واهية نشأت عن الظنون الدينية ، وليس منها في شيء . ولو راجع كُلٌّ عقله لرأي وجوب اتفاقهم تحت راية الوحدة استرجاعا لمجدهم السابق وتداركاً لما فاتهم بسبب الشقاق من الشرف والفخار وعلو الكلمة بين الأمم . وإن الأمير (دوست محمد خان) أمير الأفغان قد جعل بلاده ـ تعاميا منه ـ عرضة لهجمات

(٩٧) الصواب ان يقال : الحق ، لانه مصدر يوصف به المذكر والمؤنث والمفرد والجمع على سواء . (هامش المنار)

الانكليز . فإنه بعد المحالفة مع (رنجيت سنك)[٩٨] ومعاهدته على مقاومة الانكليز ، قد تركه اغتراراً بالمواعيد الانكليزية في ميدان الحرب وحيداً . وتقهقر بعساكره ، فانهزمت جيوش (رنجيت سنك) ، وتغلب الانكليز على جميع أراضي البنجاب المتاخمة للأفغانستان . ولو استهدى الأمير (دوست محمد خان) إذ ذاك عقله ، وسلك في سياسته سلوك بصير يتدبر نتائج أفعاله قبل أن يشرع فيها ، لتحقق لديه أن صيانة بلاده عن هجمات الانكليز إنما تكون ببقاء الحكومة البنجابية حريزة[٩٩] ، حتى تكون سدًّا مانعا بين أفغانستان وبين الحكومة الانكليزية . فكان يدافع عنها كما يدافع عن حكومته .

وإن نواب البنجالة ونواب الكرناتك قد مهدوا للانكليز سبل دخولهم في الأراضي الهندية . وإن نوَّاب لكهنو[١٠٠] أيَّد مقاصدهم في إذلال السلطنة التيمورية . وان نوَّاب دكن[١٠١] قد أعانهم على إبادة حكومة (تيبو سلطان) وإذلال راجة[١٠٢] (برودة) وقهر الذين قاموا سنة ١٨٥٧ لانقاذ بلادهم ودفع شر المتغلبين عليها من الانكليز . وكان هؤلاء - جهلا منهم بمنافعهم وعمى عن نتائج أفعالهم المضِرَّة - مكنوا الحكومة الانكليزية ثقة بمواعيدها من الأراضي الهندية ، وجعلوا على أعناقهم نير العبودية . وما عقلوا أن قوام كُلٍّ بالآخر ، وأن بقاءه قد نيط ببقائه ، وأن كُلًّا للآخر بمنزلة العضو من الجسد . فاذا تمكن الداء من عضو ، سرى في الجميع ، ولزم منه انحلال البدن كلية - والآن ترى الحكومة الانكليزية ، بعد استبعادهم وسلب أموالهم ونزع أيديهم عن الملك ، تعارضهم في ديانتهم ، وتزاحمهم في تجارتهم ، وتعاقبهم على نياتهم ، وتعاتبهم على أعمال آبائهم - وإن أهل بخاري فرحوا بتسلط الروسية على قوقند ، والتركمان تبجحوا من غلبتها على بخاري ، والأفغان والفارس[١٠٣] قد سروا من استيلائها على التركمان . وكل هذا غفلة منهم على المضار التي تنشأ عن قوة الروسية ، وبسطة سلطتها في تلك الأراضي . وقد

---

(٩٨) الصواب : رانجيت سينج .
(٩٩) حريزة : حصينة .
(١٠٠) نواب - بفتح النون وتشديد الواو : نائب الحاكم او محافظ ، ولكهنو : مقاطعة هندية .
(١٠١) دكن : حيدر أباد .
(١٠٢) راجة : راجا ، لقب الامير او الملك في الهند .
(١٠٣) الفارس : فارس او ايران .

ألقاهم جهلهم بمصالح أنفسهم وإغضاؤهم عن الاستنارة بأنوار عقولهم في التهلكة ، وأشرفوا كلهم بغرورهم على الزوال والاضمحلال .

إن مدحت باشا(١٠٤) وأعوانه ، لو نظروا ببصيرتهم الى أركان سلطنتهم المتداعية الى السقوط ، وشعروا بهداية عقولهم أن دعائم حكومتهم كادت أن تَنْهَدَّ بما ألم بها من المصائب ، وعلموا بتدبرهم أن البلايا تترصدهم من جوانبهم ، لما تقحموا غروراً وضلالة في خلع عبد العزيز وقتله وقتما تترقب الأعداء سقطاتهم وتغتنم هفواتهم . ولكنهم ، اعتمادا على واهي آرائهم ، واغترارا بدسائس الحكومة الانكليزية ، قد جلبوا الهلاك والاضمحلال على أمتهم ، ويظنون أنهم هم المصلحون .

وإن اسماعيل باشا(١٠٥) حبا بالاستقلال ، وعمىً عن نتائج أفعاله السيئة التي نشأت عن حرصه باسم الملك ، قد ألقم الافرنج جميع اموال مصر، وما استدانه من صرًّا في الأوربا (اوربا) بالأرباح الباهظة . ثم سعى الافرنج في خلعه عن الملك ونفيه عن الديار المصرية إرادة استملاكها . ووضع اليد عليها - ولو تروى في حالة الشرقيين ، وتأمل فيما أصابهم من الذل والصَّغار ، لأجل تفرق كلمتهم ، لازداد خضوعا لسلطانه ، وسعى صيانة لنفسه في تشييد مباني سلطنته ، ونَزَع عن قلبه حب الاستقلال ، وعلم أن الذين لا يفترون عن السعي في فتح الممالك لا يمكن أن يساعدوه في مقاصده .

وإن وزراء توفيق باشا - جهلا بمقدار أنفسهم ، وعُجْبا بآرائهم الفاسدة وإثباتا لأوهامهم الباطلة - قد جلبوا الانكليز بغاية جهدهم الى القطر المصري ، وملكوهم إياه . وهم يظنون أنهم يستظهرون بهم على أعداء الخديو . فلو تدبروا في سياسة الحكومة الانكليزية ، ورأوا أطماعها في أرض مصر ، لما جلبوا هذه المصيبة على أنفسهم ، وعلى خديوهم ، وعلى سلطانهم ، ولما ألقوا أنفسهم في فم الأسد ، خوفا من وَعْوعَة الكلب .

فقد ظهر ، من كل ما ذكرته من سير الشرقيين قدحاً في حالاتهم ، أنهم ما سلكوا في سياستهم سبيل الرشد والهدى ، وما استفادوا من عقولهم

(١٠٤) مدحت باشا : السياسي العثماني الذي وصل الى منصب الصدر الاعظم واتهم بقتل السلطان عبد العزيز ، ونادى بالإصلاح حتى عرف بأنه « أبو الدستور » .
(١٠٥) اسماعيل باشا : خديو مصر (١٨٦٣ - ١٨٧٩)

شيئا ، ولا تَدَبَّروا في عواقب أفعالهم ونتائج أعمالهم ، ولا نظروا بنور البصيرة في حالهم ومآلهم. بل تاهوا جهلا منهم بمنافعهم في بيداء الغواية ، وحادوا عميً عن غاية مسيرهم في تيه الضلالة ، حتى خربوا بأيديهم ديارهم ، وأبادوا بسوء تصرفهم بلادهم ، ومَكَّنوا الأجانب بمساعيهم الفاسدة من رقابهم . وكان الواجب على أحفادهم الذين احترقوا بنارهم ، وتدنسوا بعارهم أن يعتبروا بالمصائب التي جلبتها اليهم غَفْلات أسلافهم ، وأن يتقوا البَلِيَّات التي قادتها الغباوة الى آبائهم ، وأن يسعوا في جمع الكلمة ، وأن يتَحَذَّروا من الشتات والتفرقة ، ويجتنبوا الأغراض الشخصية ، ويعرضوا عن دواعي الخطوات الوهمية ، ويتنحوا عن مضال الاستبداد والاستئثار . ولكن تراهم ، لسبات عقولهم ، يقتفون آثارهم ، ويتبعون أغلاطهم معرضين عن العقل وارشاده جاحدين للحق وآياته ، ارتفعت عنهم الامانة ، وفشت بينهم الخيانة ، وانقطعت بينهم عرى الوداد ، وانحلت عقدة الجنسية . كل ينظر إلى نفسه ويسعى لمنفعة شخصه ، جهلا منه أن سعادته منبثة في جميع آحاد الأمة ، ولا يمكنه أن يفوز بها إلاّ بسعادة الكل . ولذلك فقد صاروا ـ بعد العبودية ـ فقراء لا يملكون شيئا ، حائرين في معاشهم ، ضالين عن رشدهم في مبدئهم ومعادهم . وكاد أن يقضي عليهم بذلٍ أبدي وموت دائميٍّ ، بتلاشي جنسيتهم ، وتناثر جمعيتهم ـ ومع كل هذا ، ما فاتهم أوان التدارك ، ولا ضاق عليهم زمان ، ولا سدت عليهم الأبواب ، ولا انقطعت دونهم الأسباب . ولكن قد تمكن منهم القنوط ، وغلب عليهم اليأس ، وفترت هممهم وضعفت عزائمهم ، واستكت آذانهم عن استماع النصائح ، وعميت أبصارهم من رؤية الحق ، وقست قلوبهم عن الاذعان له ، فتراهم ، امتدادا في غيهم ، يريقون دماء هداتهم ، ويتبعون آراء غواتهم . فلا حول ولا قوة إلاّ بالله .

الحق والباطل أو نتائج سياسة الانجليز في مصر

[ظهرت هذه المقالة بجريدة « البصير » في باريس في ٥ ابريل ١٨٨٣ . وقدمها المحرر على الصفحة الأولى بهذه العبارة :

« للعلامة العامل والفيلسوف الكامل السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني »

ثم أوردت تحت التقديم فقرة هذا نصها :

« قد طبعت ترجمة هذه المقالة في جريدة الجوستيس الفرنسوية ، وهي اهم الجرائد الراديكالية في فرنسا . ونقلها عنها بعض جرائد فرنسا . ونشر قسم منها في الستندرد والدالي تلغراف والغلوب والدالي نيوز ، وهي من اعظم الجرائد الانكليزية ، وفي النيو فري برس أشهر جرائد النمسا .

« وحيث أنه قد حصل لها شأن عظيم في عالم السياسة رأينا من الواجب ان نثبت أصلها العربي في « البصير » لكي لا يحرم العرب ما تضمنت من جزيل الفوائد وجليل الحكم »]

ما اختلف رأيان في أمر إلا كان أحدهما حقاً والآخر باطلا . إن الحق أوسع الاشياء تواصفاً ، وأجلاها برهاناً ، وأوضحها بيانا . ولقد صنف الحكماء فيه كتبا ، وبينوا سننه ، وذكروا شواهده ، وقسموه الى أقسامه من حقوق الملل والدول والرعاة والرعايا ، وشرحوا في مصنفاتهم أن الحق قوام الاجتماعات الانسانية ، منزلية كانت أو مدنية ، وأن مدة دوام الاجتماعات وبقاء الدول بمقدار دوام الحق فيها وبقائه ، لأن بالحق يحصل التكافؤ بين القوى المجتمعة لاكتساب الأمنية والسعادة اللتين هما غاية سير الأمم في حياتهم .

فاذا حصل الانحراف عنه زال التكافؤ فاضمحل الاجتماع ، ووقفت الأمم دون بلوغ غايتها .

ولو تأمل البصير في زوال الأمم الغابرة لا يرى له سببا سوى الحيدان عن الحق . وان الحق مهما كان لديه من الظهور والبروز ، وسعة المجال في التواصف ، أضيق الأشياء تناصفا وتعاملا ، وأخفى الأمور عمن أراد أن يسلك مسالكه ، ويزن بميزانه أعماله وأفعاله ، لأن الحق يكون للانسان وعليه . فاذا كان عليه فحينئذ يشاب إدراكه المتبجس من محض عقله بالحاسات الطبيعية ، ويمتزج بالأوهام الناشئة عن عاداته ،

فيخفى عليه محجته ، ويسلك مدحض الباطل ، ظنا منه أنه على الحق ، غير حائد عنه ، وهذا هو السبب لاختلاف الأمم في آرائهم ومسالكهم . ولا يعرف الحق بنفسه إلاّ من انقادت طبيعته لعقله ، وأزال ناشئة العادات عن لوح ضميره ، فصار عقلاً صِرْفاً ، يخضع لحكمه ويهتدي بنوره ، لا يجد الباطل فيه سبيلا ، ولا يضل عن رشده أبداً .

وقليل من يتحقق في الانسان بهذه الصفة وان كانت حماة الحق كثيرة .

أنظر الى الحزب الحر[١٠٦] في الحكومة الانكليزية كيف كانوا يحامون عن حرية الأمم ، ويحثون الدول على إطلاق ربق العبودية عن الشعوب ، ويدافعون عن الأيرلنديين ، ويجاهرون بذمائهم الحزب المحافظ ، ويذكرون شنائع أعمالهم في حرصهم على الفتوحات عند اعتزالهم عن الحكم . وكانوا يندون على دزرائيلي في إقدامه على حرب الأفغانيين ، قائلين له إن شير علي خان[١٠٧] حر في بلاده ، له أن يقبل سفير الروس ويرفض سفير الانكليز ، وليس لأحد أن يعارضه في أمره هذا ، مع أنه كان لدزرائيلي أن يقيم الحجة عليهم قائلا إن رفض شير علي لسفير الانكليز واقتباله لسفير الروس ـ وقد كان مصادقا لنا ومعاهدا إيانا ـ دليل على اتفاقه مع الروسية ، ومحالفته لها ، فيجب علينا أن نتدارك هذا الامر قبل ظهور نتائجه الوخيمة كي لا نجلب بأيدينا مضرة على البلاد الهندية . ولما آل الأمر إليهم ، وأخذوا زمام الحكم بأيديهم ، ما حرروا بلادا ، ولا أعتقوا عباداً ولا أطلقوا رقابا ، بل صاروا على الأمم أشد من الحزب المحافظ ، وزادوا في التحريج والتضييق وأحكموا حلق العبودية ، وشددوا ربق الرقبة، وضيقوا المجال على النفوس التي تهوى الحرية وتميل اليها .

وها هو صراخ الأيرلنديين ينبئك عن سيرهم في ساحة سياستهم ، وسلوكهم في مذهب إدارتهم .

وأعجب من كل هذا أن المصريين بأجمعهم ، ولا أستثني منهم أحداً ، أرادوا أن يضعوا في بلادهم أساس الحرية ، بتشكيل مجلس النواب ، تملصا من ربقة الاستبداد الذي يستجلب الوبال على المستبد ومن

---

(١٠٦) المقصود هو حزب الاحرار الذي تزعمه في ذلك الوقت جلادستون .
(١٠٧) امير افغانستان .

استبد عليه كليهما ، وخروجا من مضيق العبودية التي نشأت من الأَيثار والاستيثار بلا ملاحظة المنافع والمضار ، وطلبا للانخراط في سلك الأمم المتمدنة ، رجاء أن يحظوا من السعادة بما حظيت به الأمم ، واتفق معهم خديوهم لَمَّا أن رأى صدق نياتهم وإصابة رأيهم ، وأن حكومته لا تقوى إلَّا باتفاق كلمة الأمة ، وهو نتيجة المجلس الذي تسعى الأمة في تشكيله .

ولما رأى الحزب الحر في الحكومة الانكليزية ميل المصريين الى الحرية ، وسيرهم اليها ، وسعيهم في طلب أسبابها ، ماوَنَوا أن جبهوهم بالرد ، وعارضوهم بالعنف ، ودافعوهم عن الوصول اليها ، وأوجبوا الشقاق بين الراعي والرعية ، علما منهم أن اتفاق كلمة المصريين لاصلاح بلادهم بالادارة الشورورية[١٠٨] يصد الحكومة الانكليزية عن نجاحها في مقاصدها المُشطَّة ، ويمنعها عن استملاك تلك الاقطار بمداخلتها الودادية ، كما فعلت من قبل بالممالك الهندية . وألقوا في روع الخديو ، ودسيسة منهم ، أن هذه المساعي ليست لتأسيس الحرية ونصب دعامة المدنية ، وانما هي لتغيير الحكومة واستبدالها . وساعدهم على ذلك بعض وزرائه الذي جلب إليه الجهلُ العُجْبَ بنفسه ، والاستبداد برأيه . والخديو ، لسلامة قلبه ، ظن أن هؤلاء لا يريدون إلا تشييد حكومته ، ولا يبتغون إلَّا تأسيس مباني إمارته بمقاومة المعارضين ، ومصادمة المقاومين من أهل الوطن ، فأصغى اليهم ، واعتمد بكلِّه عليهم ، وجاهر أعوانه الذين كانوا يسعون في اصلاح البلاد ، ونجاح العباد ، وصون حكومته عن دخل الأجانب بالمقاطعة والمناوأة ، فاضطر أعوانه لَمَّا أن رأوا حيدانه عنهم وميله إلى الذين لا يريدون إلَّا خَتْل المملكة ، واختلاسها من أيدي مالكيها ، أن يقابلوه بما قابلهم به .

وبعد أن خلبوا قلب الخديو بموارباتهم ، لاحظوا ما للأمة الفرنساوية من الحقوق في تلك الأقطار ، فعلموا أن نجاحهم في مقاصدهم لا يكون إلَّا باتفاقها معهم في الرأي دون العمل ، فوجدوا منه مقتحما ، بذل جهده في إمالة آراء الأمة اليهم ، بلا تَرَوٍّ ، في أن حالتها الحاضرة تمنعها من مشاركتهم في الأعمال .

---

(١٠٨) الصواب هو الشورية من الشورى ، ولكن صحف ذلك العهد كانت ترسم الكلمة على هذا النحو مع كثير غيرها .

ثم لمَّا علم الحزب الحرُّ في الحكومة الانكليزية أن سهام موالستهم قد أصابت ، جندوا الجنود ، وألّبوا العساكر ، وساقوهم لفتح الديار المصرية ، متظاهرين بأن الغرض تأييد الخديو في حكومته ، ودَفْعُ المفسدين الذين يريدون خلعه ، وكأنهم أرادوا بسيرهم هذا أن يجعلوا جزيرة قبرس في البلاد العثمانية بمنزلة كلكتا ، وخلع اسماعيل باشا ونصب توفيق باشا كخلع سراح الدولة من البنجالة ونصب مير جعفر ، فيفعلوا في هذا فعلهم في البلاد الهندية . ولا غرو في ذلك فإنه قد سبقهم الى مثله أسلافهم من قبل . وإنما العَجَب أن يصدر هذا الفعل من الذين رفعوا لواء الحرية ، ونادوا بأعلى صوتهم بفك رقاب الأمم عن العبودية ، كأنهم عن إنعزالهم ماكانوا يحامون عن حرية الأمم ، إلّا لأن يأخذوا زمام الحكومة بأيديهم ، فجعلوا المحاماة عن الحق آلة للوصول إلى باطلهم ، أو عموا عن معرفته بعدما استقروا على منصة الحكم ، واستبدوا بالأمر ، كما هو دَأْبُ كل من لم يخلص عقله عن شوْب الهوى واتباع العادات . بل يمكن أن يقال إن هؤلاء في حرصهم على استلاب حقوق الأمم مع دعوى حماية الحرية عجزوا أن يلبسوا باطلهم بلباس الحق ، وأن يقيموا دليلا سفسطيا على مداخلتهم في القطر المصري ، حتى وقعوا في المتناقضات وأتوا بالمتضادات . فإنهم رأوا وجوب الحرية على المصريين لطلبهم عرض ميزانية المراقبين على مجلس النواب ، مستدلين بأن هذا إجحاف بحقوق المراقبين ونقض للعهود المبرمة بين الحكومة الخديوية وبين الحكومتين الفرنساوية والانكليزية في أمر المراقبة . ثم إنهم حرصا على استملاك مصر رفعوا المراقبين بلا استشارة من الحكومة الفرنسوية ولا موافقة منها ، وتشبثوا فيه بأمر الخديو ، وطلب شريف باشا . ولا شك أنهما لم ينطقا إلّا بما لقنوهما مما يؤسسون عليه أساس تملكهم .

متى كانت الحكومة الانكليزية تصغى الى الخديو وتأتمر بأوامر شريف باشا ، حتى يظن أن رفع المراقبين كان مبنيا على مجرد الامتثال والائتمار لا غير ؟ فياله من برهان ما أدحضه ، ومن دليل ما أضعفه ، ومن عذر ما أنكره ! ثم إنهم هم الذين هتكوا حقوق الأمم ، وأوجبوا العطلة في تجارتها بإقامة الحرب في ترعة السويس . والآن ، إغفالاً للدول ، وتسكيناً لجأشها ، تراهم يشكون من وقوع الخلل في التجارة

أيام الحرب لشَغْلهم الترعة بسفنهم الحربية ، بأمر الخديو على حسب دعواهم ، فكأنهم يشكون من أنفسهم ، ويسخرون بأقوالهم هذه من عقول الأمم ، ويتلاعبون بالخديو ورجاله لاستلاب ملكه .

وليت أن صدر هذا الاجحاف بحقوق المصريين عموما ، وحقوق الخديو خصوصا ، من الحزب المحافظ ، حتى لا يقال أنه لا يوجد في الانكليز حزب يحامي عن الحرية ، ويدافع عن حقوق الأمم . وما تظاهر بعض رجالها بهذا الاسم إلّا رياءً ، وسمعة أو مكيدة منهم ، حتى ينتهزوا الفرصة ، ويستلبوا البلاد على حين غرة من أهلها . ودع الآن دعوى محاماة هؤلاء المجازفين عن الحرية بالباطل ، حتى نتكلم في النتائج التي ترتبت على مداخلة الانكليز في مصر ، وما يمكن أن يترتب عليها ، فنقول إن مداخلة الحكومة الانكليزية في القطر المصري أوجبت نفور مسلمي الهند عنها قاطبة ، سنيين كانوا أو شيعيين أو وهّابيين . وقد انتشر بينهم ، وقَرَّ في أذهانهم إمّا من استنباط انفسهم أو بدسائس الدول التي لها مآرب في الهند، أنّ غرض الحكومة الانكليزية وبغيتها الحقيقية من الاستيلاء على مصر أن تجعل هذا الاستيلاء مَدْرَجَة[109] لوضع اليد على الحجاز وإدخال مكة المكرمة في حوزتها . وإذا استتب لها الأمر في تلك البلاد التي هي محتد الديانة الاسلامية ، ومغرس شريعة المسلمين ، وركن دينهم ، فحينئذ تهتم في إزالة هذه الديانة عن وجه الأرض . واعتقدوا بعد دخول العساكر الانكليزية في مصر أن هذه الحكومة في فتوحاتها لا تقنع بالضرائب والجبايات التي تقتنيها من الذين تستعبدهم كالحكومة الروسية ، بل تحرص على تبديل الديانات وتَكُدُّ في تغيير الشرائع فحصل لهم قلق واضطراب شديد ، كما هي عادة الشرقيين في الحرص على صيانة ديانتهم ، والخوف من وقوع الخلل فيها ، وكل ينتظر نجاة ، ويطلب خلاصاً ، ويرى أن بقاء دينه مصوناً عن الفساد لا يكون إلّا بيد أجنبية . وكنت عند استمرار الحرب في مصر ، وأنا أسوح في الهند ، لا أرى رجلا من مسلمي هذه البلاد إلّا قد استولى عليه الحزن والأسف وأيقن أن غرض الانكليز وضع اليد على الأراضي الحجازية .

ولقد أحكم هذه العقيدة في نفوسهم ما كتبه أثناء الحرب صاحب

(١٠٩)المدرجة : الطريق .

جريدة « أخبار عام »[١١٠] بلاهور نقلا عن جريدة انكليزية طلب محررها أن تسعى في احالة الديار الاسلامية الى النصرانية ، قائلا إن مسلمي الهند ما داموا على ديانتهم لا يثقون بالحكومة الانكليزية ، ويحسبونها حكومة أجنبية غير شرعية ، لا يجب طاعتها ولا الاستسلام لها ، فإذن يجب عليها أن تعطف نظرها الى هذه الديانة ، وتسرع لرسوخ أساسها الى معالجة ما أوجب هذه العقيدة . وبالجملة فان الحكومة الانكليزية بمداخلتها في مصر قد ضيعت ما اكتسبته المدد الطويلة بحسن سياسة رجالها من ميل قلوب مسلمي الهند اليها وثقتهم بها ، حتى لا ترى أحدا منهم في هذه الأوقات إلّا قد أصَرَّ أذنيه نحو مَرْو وهراة ، وشخص بصره الى عشق آباد[١١١] يظن أن ديانته لا تصان من الخلل والفساد بالروسيين الذين بغيتهم مصادمة هذه الحكومة . ولا يخفى على المتدربين في سياسة الشرق من الانكليز ما يمكن أن يترتب على هذه الخيالات الجائلة في مخيلة مسلمي الهند . وأظن أنهم ما نسوا النتائج السيئة التي نشأت في سنة ١٨٥٧ من هذه الأوهام الدينية . وهذه الظنون ، على ما علمت ، تمكنت من قلوب الأفغانيين والبلوجيين[١١٢] ايضا ، ولا أدري أسَرَتْ اليهم من الهند أو فشت منهم فيها . والظاهر أن هذه الأقاويل قد انبعثت من سمرقند وعشق آباد ، وطافت بالأفغانستان والبلوجستان ، ثم ملأت أرجاء الهند ، وتمكنت من قلوب أهلها . وإن أثرها إنما يظهر عندما يتخذ الروس بلدة مرو معسكراً لهم ، وليس هذا ببعيد . وعند ذلك فلا علاج . وأما ما يُمَنِّى به الانكليز أنفسهم من قهر الجرمانيين الروسية (روسيا) باتفاق مع النمسة فتسلم الهند من مهاجمتها ، فهو أضغاث أحلام ، لأن النمسة (النمسا) أحلم وأحزم من أن تصير سبباً لضعف دولة يستلزم ضعفها زوال نفسها كلية .

هذا ما يمكن أن يكون من المضرة على الحكومة الانكليزية في آسيا . وأما في أوربا فلا يرتاب أحد في أن أرض مصر كانت بمنزلة حق مشاع بين جميع الافرنج ، يرتعون فيها ويتنعمون بنعمها . فمداخلة الانكليز تغيظ الكل ، لأنهم يعدونها اجحافا بحقوقهم ، خصوصا الأمة

---

(١١٠) إحدى صحف الهند في ذلك الوقت ، كانت تصدر بمدينة لاهور .
(١١١) مرو وهراة من مدن افغانستان ، وعشق آباد من مدن آسيا الوسطى .
(١١٢) البلوجيون : احد اقوام الافغان ، وينطقون ايضا : البلوشيون ، أو البلوش .

الفرنسوية التي لها في مصر من الحقوق ما لا يمكن أن تنساه .

وإن مصر باب للشرق ، ولكل دولة من الدول الغربية مأرب فيها ، فإذا وضعت الحكومة الانكليزية يدها على مصر ، فقد اخذت بمَخْنَق الكل ، وضيقت عليها في تجاراتها وفتوحاتها . فالدول مع ما بينها من المنافسات والضغائن لا يستبعد اتفاقها ، صونا لمصالحها ، على معارضة هذه الحكومة في مداخلتها في أرض مصر .

وبعد هذا وذاك ، إن النفوس في مصر ما قَرَّت ، وإن هيجان القلوب ما همد ، والفتنة ما أطفئت ، والخديو ما استظهر بالحكومة الانكليزية ـ لمَّا تمكن في باله من الوساوس التي ألقاها في روعه أهل الدسائس لنيل أغراضهم ، إلّا لأن يستقل بالأمر ، ويصان منصبه من آفات يمكن أن تطرأ عليه من الحزب الوطني . وأما الآن ، وقد انكشفت له حقيقة مظاهرة الانكليز ، وظهر لديه أن كل هذه الوساوس كانت دسائس منهم للمداخلة في القطر ، وتملكه باسم المراقبة والمحافظة ، فلا شك أنه لا يرضى أن يصير هو السبب لمداخلة الأجانب في وطنه ، وأن يجعله الانكليز آلة للتصرف في مصر فيفعل كما فعل شاه شجاع الأفغاني ، لمَّا رأى أن الانكليز يريدون أن يتخذوه وسيلة لاستملاك الأفغانستان ، فطلب عظماء الأفغانيين سرا ، وقال لهم إن الانكليز قد أنشبوا أظفارهم في بلادكم ، ولست أنا إلَّا آلة في أيديهم فأنقذوا بلادكم ، وإن كان فيه هلاكي . وتوفيق باشا ليس أضعف منه دينا ، ولا أقل حمية ، فمن الواجب أن يقتدي به . وحينئذ لا يعدم المصريون دولة تقوم بمساعدتهم ، لأنه قد أزيحت اللبسة ، وارتفعت الشبهة ، وظهرت مقاصد الحكومة الانكليزية لدى كل الدول .

منافع الوفاق ومضار الشقاق

[ظهرت هذه المقالة بجريدة « البصير » في ٢٦ أبريل ١٨٨٣]

إن للأمم صعودا ونزولاً . وإنها في ارتفاعها وانخفاضها تتناوبها السعادة والشقاوة ، وتعتورها العزة والمسكنة . ما يطمح بصرها إلى ذرى المجد إلاّ وترى نفسها في حضيض المذلة ، وما تشيم سيوف القهر إلاّ وتجندل بها ، وما تمد يدها لفتح الممالك إلا وتنهب دورها ، وتغصب بلادها ، وتستعبد رجالها . إن الفارس (فارس) الأولى تقلص ظلها بعد بسطة الملك بفتوحات اسكندر اليوناني ، وانقرضت السلطنة اليونانية الفسيحة بأيدي الرومانيين ، وأباد العرب المملكة الساسانية الراسخة ، وجَدَعوا أنف الروم . واستولى محمود الغزنوي على البلاد الهندية الواسعة بهجماته المتتالية ، وجعل كلمة الاسلام عالية بقهر الوثنيين ، وإزالة دولة برهما ، وجَثّ هلاكوخان شجرة الخلافة العربية التي وشجت عروقها ، وامتدت فروعها شرقا وغربا . وفتح العثمانيون مدينة قسطنطينية ، وأخنوا على الروم واليونان ، ودوخوا بلادهم . وقام بعد هؤلاء أقوام تفتح البلاد ، وتقهر العباد . ولقد كانت أسماؤها مطوية في طومار[113] الدهر من قبل . أليس لهذه التبديلات من عِلَلْ ؟ أفلا توجد لهذه الحوادث مقتضيات ؟ أفلا تكون لمقتضياتها معدات ؟ بلى . إن الحوادث في عدمها تفتقر الى علل افتقارها اليها في وجودها ، وإن عللها مسببة عن مقتضياتٍ تعدها للوجود ، وتجعلها أن تستتبع معلولاتها .

وليست أسباب هبوط الأمم ، وعروجها ، طلوع نجم ، وأفول كوكب كما ذهب اليه البعض . وليس جَزْرُ قوتها . ومد سلطتها مسببين عن الأسباب الطبيعية ، لأننا نرى أمما كثيرة شبت بعدما شابت ، وبعثت بعدما ماتت ، وصارت عظاما نخرة . والأسباب الطبيعية لا تحيد عن سننها ولا تقف عن سيرها ، ولا تعتريها التبديلات ، ولا يصدها عن مسالكها اختلاف الحركات . هاهي الأمة الايطاليانية أمامك فأنظر إليها يظهر لك صدق مقالي . ولا تغض النظر عن أسبانيا متدبرا فيما كانت عليه ، معتبرا فيما آلت اليه . وإن الأمم ، ما صعدت إلاّ بنفسها ، وما

(١١٣) الطومار : ثنية او طية .

هبطت إلاّ من نفسها ، وفيها سعادتها ومنها شقاوتها . وإنها هي السبب الموجب لضعف قوتها ، ورفع سلطتها وخراب بلادها . وإنها هي التي تجعل نفسها بنفسها عبيدا أذلاء للأجانب ، يحكمون فيها كيفما شاءوا ، ويستعملونها في منافعهم بما أرادوا . إن الانسان بجبلته لا يسعى إلاّ إلى سعادته ، ولا يدأب إلا لجلب الخير الى نفسه ، ودفع الشر عنها ، حيث أنه المتصرف في عالمه ، وبيده سعادته وشقاوته ، فما الذي يهوى به الى مهواة الشقاء ويقوده الى الهلاك ؟ وما الذي يعوقه عن النجاة ، ويمنعه من الخروج من الورطات ، ولو نسبنا شقاوة انسان الى القوة القاسرة ، وعزونا حرمانه الى المزاحمات التي قلما يخلو عنها الانسان في سيره في مسالك سعادته ، فما الذي يمكنا أن نقيمه دليلا على انحطاط أمة قاومت الدول القديمة وغالبت الأمم العظيمة ، وفتحت البلاد ، وقهرت العباد ؟ وما السبب الذي يوجب ترعرع أمة ، وهي لقلة العَدَد فاقدة العِدَد ، ويجعل لها يدا عالية وقوة قاهرة ،؟ هنا يلزم السَّبْرُ والدوران .

إن الأمة العربية (في) صدر الاسلام ماكان عددها يزيد عن المليونين . وإنها مع الفقر المدقع وقتئذ ، وخلوها عن العلوم والصنائع قد أرغمت الأكاسرة ودمغت القياصرة . والآن بلغ عددها ٣٠ مليونا وهي قاصرة عن إدارة نفسها عاجزة عن صيانة بلادها .

إن العثمانيين ، مع قلة العدد ، قد أرعدوا الدول الغربية ، وأذلوا الجبابرة . وتراهم من نصف قرن ، مع سعة بلادهم ، وكثرة رجالهم ، يسترحمون ملوك الافرنج ، ويحتمون بهم ، ويزعمون أن لا حياة لهم على البسيطة إلا بهم .

وإذا رجع البصير الى نور بصيرته ، أفما يحكم بأن هاتين الأمتين قد فقدتا الآن أمرا كان هو السبب لعلو شأنهما وبسطة سلطتهما ورفيع منزلتهما ؟ فيجب علينا أن نسبر حركاتهما الفكرية وأخلاقهما النفسانية ، حتى نقدر أن نجد الأسباب الحقيقية التي أوجب وجودها جلب علو كلمتهما وانعدامها أوجب انحطاطهما، فنقول:

لا يمكن أن تنال أمة من الأمم سعادة ما إلاّ بالتئام آحادها التئام أعضاء الجسد بعضها ببعض . ولا يحصل لها علو الكلمة ، وبسطة الملك إلا أن تصير مسالك حركات أفرادها كأنصاف الدائرة منتهية إلى

نقطة سعادة الكل ، غير خارجة عن محيط الجنسية ، وأن يلاحظ كل منها منفعة الكل أولا وبالذات ، وينظر الى منفعة نفسه ثانيا وبالعرض ، حتى يكون خير الكل كينبوع تتشعَّب منه جداول خيرات الآحاد . وحينئذ يجذب كُلٌ الآخر عند دفعه إياه ، ويقبل عليه عند إعراضه عنه ، فيرتفع الشقاق ويزول النفاق وتعتدل الاخلاق ، لأن كلا يعلم إذ ذاك أن الآخر لا يسعى إلا له ولا يدأب إلا في إيصال المنفعة اليه . وليس له أن ينال الخير إلا به ، فهو بمنزلة نفسه ، ومنه سعادته ، وبه يذود الشر ، فيحبه محبة ذاته ويعامله معاملة نفسه . وإذا بلغ كُلٌ مع الآخر إلى هذه المنزلة من الالتئام ، فلا يمكن أن يتحقق في الأمة فساد الأخلاق ، لأن منشأ الأخلاق الرذيلة المزاحمة في المنافع ، والمنازعة فيها . فمن ذا الذي يوالس الساعي في خيراته ، ومن يغش الباعث على سعادته ، ومن يخون قوام حياته ؟ ولهذا تلتئم الأفكار ، وتتحد الآراء ، وتأتلف الأهواء ، وتترادف الأيدي ، وتتناصر السيوف ، وتجتمع القوى ، فتصير الأمة التي حازت هذه الدرجة من الوحدة مقومة في نفسها ، متمكنة من صيانة حوزتها ، قديرة على قهر الأمم التي تغالبها ، كما وقع للعثمانيين وللأمة العربية من قبل .

وكَوْنُ كل من أحاد هذه الأمة المتلبسة بالوحدة ناظراً الى ما يجلب الخير والسعادة الى الكل ، يبعث كلا على الأفعال الشريفة التي يستفيد من نتائجها مجموع الأمة فتكثر بينها الصنائع النافعة ، وتنتشر العلوم الحقيقية والمعارف الصادقة ، وترتقي بها إلى ذروة المدنية ، وأوج المجد ، متمتعة بثروتها ، متنعمة بثمار مساعيها ، يحف بها الأمن وتكتنفها الرفاهية ، وهي تسود ولا تساد ، ولا تضرب دون نفاذ مقاصدها الأسداد ، كالأمة العربية في الأزمان السابقة .

ولما ظهر أن علة صعود الأمم هي اتفاق الكلمة والاتحاد التام بين أفرادها ، عُلِم أن سبب النزول (هو) التَفرُّقُ وعدم الاتحاد ، وعن تفرق الكلمة ينظر كل إلى نفسه ، ويسعى لمنفعة شخصه ، فتختلف جهات حركات الآحاد ، وتتغاير مسالك المنافع فيكثر النفاق ، ويزيد الشقاق ، ويروج سوق الخيانة والكذب والافتراء ، وتتمكن العداوة والبغضاء ، وتتشتت الآراء ، وتتنافر القلوب ، وتتفلق الآحاد ، ويستولى الكسل ،

وتغلب الجبانة[١١٤] وتحصل الوحشة فتضعف الهمم وتقنط النفوس . وحينئذ تندثر العلوم ، وتندرس المعارف ، وتنطمس مسالك النجاة ، وتخفى محجة الحق ، فتهبط الأمة عن ذروتها وتتناثر طبقاتها ، وتتلاشى أعضاؤها ، وتنحل عقدتها ، فلا يمكنها أن تسوس نفسها ، ولا تقدر أن تذود عن حوزتها ، فتصبح مملوكة ، بعد ما كانت مالكة ، تخضع لكل قاهر ، وتنقاد لكل آمر .

ولقد أوجب هذا التفرق انقسام السلطنة العربية أولا واضمحلالها ثانيا . وقد كانت ممتدة الى جبال بريني[١١٥] وشعاب هيمالايا . والسلطنة التيمورية العظيمة في الهند ما زالت إلّا بهذا السبب بعينه . وإن ضعف العثمانيين في هذه الأيام ما نشأ إلا عن تزعزع أركان الاتفاق الحقيقي بينهم . نعم ، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

ونحن نكتب فيما بعد مقالة نبين فيها الأسباب التي يمكن بها إيجاد الاتفاق وإعادته بعد زواله ونشرع الباعث على حصول الخلل منه والموجب لاضمحلاله . لعل الله يهدي بها من يشاء من عباده[١١٦] .

---

(١١٤) الجبانة : الجبن .

(١١٥) جبال بريني : جبال البرانس في شمال اسبانيا وجنوب فرنسا .

(١١٦) يبدو أن الافغاني لم يكتب هذه المقالة التي وعد بها . فلا يوجد في سجل كتاباته العربية شيء من هذا ، وإن كانت مقالاته السابقة تشير الى بعضه .

الانجليز في الهند ومصر

[ظهرت هذه المقالة بالفرنسية لأول مرة ـ مترجمة عن الأصل العربي ـ في صحيفة L'Intransigeant في ٢٤ ابريل ١٨٨٣ ، ثم نشرتها صحيفة « البصير » العربية بهذا العنوان في ٣ مايو ١٨٨٣ ، وقدمها المحرر بهذه العبارة :

« ملخص ما كتبه درة تاج الحكماء ، وواسطة عقد البلغاء ، السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني الى جريدة « الانترنزيجان » الفرنسوية في سياسة الانكليز بالهند ، وهو ترجمة عن الأصل الفرنسوي ، قال : »

ولما كان الأفغاني لا يجيد الفرنسية ولا الكتابة بها فأغلب الظن أنه أملى المقالة على محرر « البصير » نفسه بالعربية ، ثم ترجمها الأخير الى الفرنسية ، فلما نشرت بها ، عاد الى الاصل العربي فنشره . وربما فقد الأصل العربي فترجم الترجمة الفرنسية ـ مرة أخرى ـ الى العربية .]

إن من تتبع حركات الانكليز في السنين الأخيرة رأى أنهم يهتمون مزيد الاهتمام بالاستيلاء على جميع الطرق المؤدية الى البلاد الهندية . فقد حاولوا منذ مدة أن يضبطوا مضايق أفغانستان وبلوجستان . وهم الآن يريدون البقاء في مصر والتسلط عليها .

وسبب إتباعهم هذه السياسة حرصهم على ممالكهم الهندية ، وخوفهم أن تنتزع من أيديهم في زمن ربما كان قريبا . وما وقع في روعهم من هذا الخوف بعثهم على نهج مسلك يصادمون فيه أمما أخر ، والتمسك بمقاصد ومطامع تذهل رجال السياسة وتهيج الغيرة في صدور الدول .

وان الانكليز يعلمون لا محالة أن سكان الهند على اختلاف أجناسهم ، وتباين مذاهبهم ، وتفاوت مراتبهم ، يكرهون ظلمهم كرها شديدا ، وإن صوت مدفع قريب في إحدى جهات سواحلهم ، أو في بعض أنحاء تخومهم يكفي لاثارة حرب عمومية تمتد نارها من سيلان الى أحصنة هملايا .

وإنهم لا يجهلون ضعف سلطتهم ووهن قوتهم ، وقد تحققوا عدوان رعيتهم الهندية ، وتأكدوا من عدم كفاءة عساكرهم في أوقات الحاجة ، ولذلك صاروا يريدون إفراد الهند ، وعزلها عن سائر العالم ، بأن يضربوا حولها شبه سور من الموانع التي يلقونها في سبيل السياح من

أي أمة كانوا ، مخافة أن يكشف الأجانب سر ضعفهم المحجوب بستار قوة ظاهرية . ومع أن جهدهم مبذول في حفظ ملكهم المترجرج ، لم يتخذوا من الوسائل السديدة ما يقوي شوكتهم ، ويوطد دولتهم ، اذ ليس من عادتهم أن يوالوا الأمم ويستميلوا الشعوب ، بل دأبهم غيظها والاساءة اليها ، والاعتداء على حقوقها والاستخفاف بمصالحها . ألا ترى أنهم ملكوا الهند منذ مائة سنة ونيف ، وأن الهنود صاروا من ثَمَّ عبيدا محرومين من حقوق الانسانية ، لا ينالون مرتبة حربية ولا منصبا سياسيا . وقد فقدوا حرية الضمير ، وهي أشرف الحريات وأقدسها . وكان الواجب على الانكليز أن يخففوا الضرائب ، ويقللوا المكوس ، كي يبقى للأهالي بعد أداء الرسوم شيء من ثمرة أتعابهم ينفقونه في حاجاتهم وتحسين أقواتهم اليومية ، فما التفتوا الى ذلك ، بل عطلوا تجارة الهند وشلوا صناعتها ، بما يقذفون اليها من مصنوعاتهم الأوربية ، وقطعوا الاتصاليات بينها وبين جيرانها الأفغان ، بحرب جائرة شهروها عليهم بغيا وعدوانا ، فكسبوا منها وبالاً وخسرانا .

وقد نشأ عن هذه الحرب التي ركب فيها المعتدون متن الشطط والغواية أن الأفغان صاروا أعداء ألداء للانكليز ، وحالفوا الدولة الروسية على التناصر و التآزر حين تجيء الساعة .

وإذ حبط سعيهم في أفغانستان ، وأخذهم الحسد الشديد من حلول الفرنسيين في تونس ، وشعروا بتفاقم كره الهنديين لهم وميلهم الى اعانة أي دولة تريد مغالبتهم على أجمل أملاكهم الأسيوية ، وقع في قلوبهم خوف شديد أعمى بصائرهم عن الهدى فارتكبوا غلطا جديدا ترتبت عليه نتيجتان لابد أن تضراهم في الاستقبال .

وأما الغلط فهو تداخلهم في مصر بالمكر والاحتيال وهما سلاحهم القوي في جميع الأحوال ، واضمارهم مد سلطتهم الى عبر البحر الأحمر وانشاب أظافرهم في ولايتي اليمن والحجاز .

والنتيجة الأولى التي جرَّها تدخلهم في مصر أنهم غاظوا كثيرا من الأمم الأوربية ، ولا سيما فرنسا . فإن لها في وادي النيل مصالح لا ريب في أهميتها ، ولا خلاف في سابقيتها . ولو تبصروا لعلموا ، مع ما هم عليه من الاغترار بقوتهم ، أنَّ صداقة الأمة الفرنسوية ضرورية لهم في ما عسى أن يطرأ على الشرق من الحوادث الجسيمة ، والانقلابات الفعلية ،

حال كون فرنسا تستغني عن ودادهم ولا تفتقر الى ولائهم ، فلا جرم أن الاساءة اليها غلطة من أعظم الغلطات التي وقع بها كبير وزرائهم .

والنتيجة الثانية التي تضر بانكلترا أيضا هي أن تداخلها الشنيع في مصر أوجب مزيد الغضب للمسلمين عموما ، ولمسلمي الهند خصوصا . ولا يخفى أن مسلمي الهند يحترمون سلطان العثمانيين ، ويغارون على ممالكه ، ويدعون له في جوامعهم . فلما دخل الانكليز البلاد المصرية حدثت ثورة خفيفة في ميريت فأخمدوها بما أشاعوا من أنهم لم يتصدوا لقتال عرابي إلّا لعصيانه ، ولا دخلوا مصر إلّا طاعة لأوامر السلطان .

ولولا هذا الخداع لانتشرت الثورة في جميع الهند الاسلامية غير أن الرجوع إلى مثله في الاستقبال يكون خاليا من الفائدة ، عاريا عن النفع ، خصوصا إذا تأكد الترك أن انكلترا تريد استملاك مصر ، وهي أهم أملاكهم الافريقية ، بقصد أن تستولى فيما بعد على الحجاز واليمن .

وذلك لأن حصول مثل هذا اليقين في أذهان العثمانيين ، مع اعتقادهم ميل مسلمي الهند إليهم يبعثهم على تأييد سياسة الدولة العظيمة الطامحة الى الأقطار الهندية ، وإن لم يكن لهم فيه منفعة حقيقية ، لأن قلوبهم تتشفى من غيظها بكبح أمة تحاول تقسيم بلادهم . ومحافل السياسة في انكلترا تعلم أن التمادي في الاعتداء على حقوق السلطان يسوقه الى مظاهرةِ خصومهم في الهند . وحسبه في ذلك أن يغري علماء مكة المكرمة بالحَث على مناوأتهم والخروج عن طاعتهم ، أو أن يبث الى الهنديين رسلا يدعونهم الى نبذ نيرهم والتخلص من ربقهم .

ولو صرفنا النظر عما عسى أن ينهج الترك في الاستقبال من المسالك السياسية ، لوجدنا مجرد حلول الانكليز في مصر ، مع ماأضمروا من بسط سلطتهم على الحجاز واليمن ، مهد الاسلام وحصنه الحصين ، سببا كافيا لحمل المسلمين في الهند على إعانة كل دولة قصدت بلادهم محاربة الانكليز .

ومن الخطأ المبين أن يتكل الانكليز على مساعدة الطوائف غير الاسلامية ، لأن مظالمهم شملت سكان الهند جميعا . فإذا جاء يوم المحاسبة ، وحان وقت المطالبة ، يشترك الكل في العمل اشتراكهم في الذل المضروب عليهم ، ويتفقون على فك سلاسل أسْرهم اتفاقهم على بغض

ظلمهم . وشواهد ذلك كثيرة أجتزىء منها بأن ناناً صاحب[١١٧] ، وهو من غير المسلمين ، جاهر الانكليز سنة ١٨٥٧ ، بعداوة شديدة أشد من العداوة التي لقوها من فيروزو شاه وبكم صاحب[١١٨] .

وربما شك قوم في ائتلاف الطوائف الهندية ، وميلها الى التعاون والتضافر لجهلهم سير الانكليز في حكم الهند ومعاملة أهلها وسلب ثروتها. ولذلك سأكتب مقالات يزول بها الريب ، ويحصل اليقين .

---

(١١٧) احد امراء الهند وقواد ثورتها على الانكليز سنة ١٨٥٧ .
(١١٨) من زعماء حركة العصيان الهندي ضد الانكليز .

الاسلام والعلم فاعتبروا ياأولي الأبصار

[ظهرت هذه المقالة بجريدة « البصير » في ٣ مايو ١٨٨٣ . وكان الأفغاني قد رد على الفيلسوف الفرنسي رينان حول موضوع « الاسلام والعلم » ، ولكن رده لم ينشر بالعربية . ثم نشرت « البصير » رداً آخر على رينان بقلم « أحد افاضل الفرنسيين الجزائريين » ، لم تذكر اسمه . ويبدو أن هذا الرد الأخير أثار الأفغاني .]

إن رنان[١١٩] الفيلسوف قد ألقى في باريس ، كرسي الحرية ، خطابا جعل موضوعه الاسلام والعلم ، وأظهر فيه أفكاره التي ذهبت به إليها الشواهد التاريخية . وما حاد في خطابه عن سنة الأدب ، وما تجاوز حدود الكمال الذي يقضي بها وجوب احترام الأمم في ما تنتحله دينا .

ومع ذلك فقد امتعض كثير من عظماء الأمة الفرنسوية وتجهموا من مقاله ، وحسبوه خروجا عن النصفة ، ومروقا عن محيط العدل في الحكم ، وتعديا على حقوق من يجب رعايته عليهم من المسلمين عموما ، وسكان الجزائر وتونس خصوصا ، حتى قام من هذه الأمة الشريفة من له الكلمة العالية في الحكومة ، وكتب مقالة تذمَّر فيها من خطاب رنان ، وبيَّن هفواته ، وأقام الأدلة على سقطاته ، وزاد عن الديانة الاسلامية ، ودافع عن المسلمين ، وأبان ماكانوا عليه من الدرجة الرفيعة في الآداب والفلسفة . وما دعاه الى مقالته هذه إلا فضيلة مراعاة الأمم في أديانها ، وحسن السياسة . وما يقدر هذا الكمال أحد حق قدره إلا إذا نظر إلى الأمَّة الانكليزية ، وتتبع معاملاتها مع المسلمين في الهند . إن الانكليز تحكم خمسين مليونا من المسلمين . ولا ترى لهم على نفسها حقا ، ولا يختلج ببالها وجوب مراعاتهم ، ولا احترام ديانتهم . إن قسس الأبروتستانت المغرورين يقومون في شوارع البلاد الهندية على سوقهم ، ويطعنون في الديانة الاسلامية طعنا تقشعر منه الأبدان ، ويفتعلون من الأراجيف ما تصطك منه الآذان ، ويختلقون أقوالا يستبشعها الأوباش ، وينسبون الى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في رسائلهم من الشنائع والفظائع ما تنبو عنه الطباع . وكل هذه بمرأى من

(١١٩) إرنست رينان .

الحكومة ، ومسمع من الأمة الانكليزية . وما تسمع من أحد منها إنكارا ، ولا ترى في وجوهها من هذه التعديات اغبرارا .

وميزان الحق ، والمسيح الجدال[١٢٠] ، وغيرهما من الرسائل المحشوة بالسب والشتم والقدف في شارع الديانة الاسلامية تنبئك عن كيفية معاملة الإنكليز مع مسلمي الهند ، ونهج مراعاتهم .وإذا قام أحد من علماء المسلمين لأن يعارض هؤلاء القسس بكتب رسالة[١٢١] ، أو إلقاء مقالة يُلقى عليه القبض بدعوى إثارة الفتنة ، ويرسل بلا محاكمة الى جزائر أندمان[١٢٢] . إن المولوي رحمة الله الهندي ما هرب إلى مكة المكرمة إلا بهذه التهمة التي تسببت عن المباحثات الواقعة بينه وبين القس فندرك الأبروتستانتي. وإن جواد الساباط ما فَرَّ ليلا من الهند إلى جاوة إلا لتأليف البراهين الساباطية ردا عن دينه وردا لأراجيف القسس الانكليزية .

فأنظر أيها البصير الى التفاوت الكائن بين هاتين الأمتين ، وأنصف .

---

(١٢٠) ميزان الحق والمسيح الدجال عنوانا كتابين في التبشير المسيحي في الهند في ذلك الوقت .
(١٢١) يقصد : بكتابة .
(١٢٢) كانت هذه الجزر النائية في المحيط الهادي مكانا ينفى إليه الاحرار الهنود وزعماء المسلمين .

أحوال فارس الحاضرة

[ظهرت هذه المقالة بمجلة «ضياء الخافقين» في لندن في عدد فبراير (شباط) ١٨٩٢، اثناء وجود الافغاني في العاصمة البريطانية بعد طرده من ايران بأمر الشاه وقد وقعها بكلمة «السيد» وكتبها باسلوب المنشور التحريضي.]

إن لصراخ الفارس دوياً في آفاق الأرض . قد أقفرت البلاد وبارت الأراضي ، وغارت الأنهر ، وتبدد الناس في شاسعات الأقطار شَذَر مَذَر[(١٢٣)] . إن سواد العراق ومدن القفقاز ، وأمصار[(١٢٤)] ما وراء النهر ، وقرى الخوارزم ، وقصبات بين النهرين غُصَّت بوجوه غبرة . ذراري[(١٢٥)] الأماثل ، وسلالة الأفاضل ، يكدون آناء النهار في أعمال خسيسة وحرف دنيئة ، تأنف منها النفوس وتعيا منها الطباع . إن الايران بسعتها قد ضاقت على أبنائها . ونَبَّتْ[(١٢٦)] بأهلها . وليس في تلك البسيطة الرحبة إلا أخصاص حقيرة ، وأكنان صغيرة ، ودور حرجة ، يستكنها شعث غُبْر رَث الثياب كأنهم ينازعون الموت ويراقبون الأجل . الجور قد تمثل في تلك البلاد سلطاناً قاهرا لا يحد طوره ولا يسبر غوره . والقسوة برزت بصور بشعة وهيئات شنيعة تقشعر منها الجلود . جدع الأنوف ، وقطع الآذان ، وشق البطون ، وجَزُّ الرؤوس ، أعمال عادية وأفعال يومية ، لا يستغرب منها السامع ، ولا يستبشعها الرائي . ودونها فظائع تأبى النفوس البشرية عن استماعها ، وتحجم دون ذكرها ، وتضطرب حياءً وخشية كلما خطرت في لوح خيالها . الحكومة قهرت الشَّرْع فأبادته ، وكرهت النظام المدني فمجته ، وازدرت بناموس العقل والفطرة فطمسته . فلا يسود فيها إلاَّ الهوس ، ولا يأمر إلاَّ الشره ، ولا يقوم بالأمر إلا القهر والزور ، ولا يحكم إلا السيف والكي والسوط . يلذها سفك الدماء وتباهي بهتك الأعراض ، وتعجب باستلاب أموال الأرامل والأيتام . فلا أمان في تلك البلاد . وإن قاطنيها لا يرون وسيلة لصون الحياة من أنياب الظلم القاهر إلا الفرار . قد هرب خُمْس الايرانيين إلى الممالك العثمانية ،

---

(١٢٣) يقال : تفرقوا شذر مذر ، اي ذهبوا في اكثر من إتجاه ، او ذهبوا مذاهب شتى .
(١٢٤) امصار جمع مصر ـ بكسر الميم وتسكين الصاد : المدينة الكبيرة .
(١٢٥) ذراري : نسل او ابناء .
(١٢٦) نبت ـ بتشديد الباء : ضاقت .

والبلاد الروسية . وتراهم يجولون في الأزقة والأسواق بين حَمَّال وكناس وزبال وسقاء . وهم برثاثة ثيابهم ، وكُلُوحة وجوههم ، وخساسة حرفتهم ، يستبشرون بالنجاة ، ويشكرون الله على بقية الحياة . لا حَدَّ في الأقطار الإيرانية للضرائب والجبايات والخراج والمكوس . الجرائم ليست لها حقائق ، أحرزها الشرع وحكم بها العقل . والجزاء لا يحده حصر . كل هذا تحت سلطان الهوس والشره والقهر . لا دستور للحكومة . ولا نظام ، ولا قانون . كل يفعل ما قدر عليه ، وتدعو شهوته إليه . ولا رادع لقضاء الحاكم ، ولا مانع لحكمه . يأخذ الجار بالجار ، ويدمر قرية بذنب يدعيه على رجل (ولا ذنب له) ، كُلٌّ مسئول لديه عن الكل . الحاكم يقدر للشاه على حسب عظم الحكومة وصغرها تقدمة (بيش كيش)[١٢٧] . ويلتزمها على نفسه كل سنة شكرا لتوليته (وشهرية له) . ثم إنه يأخذ من كل من يستصحبه لخدمة الحكومة أو خاصة شخصه ، من مدير وكاتب ومعاون ، وشرطي ، وجلاد ، وطباخ ، وفراش ، وسائس ، وبغال ، ، مبلغا جزاء لاستخدامه (ولا شهرية لهؤلاء أبدا) . وهذه القطيعة[١٢٨] الضارية والضباع الجائعة تثب فجأة على البلاد ، فتفترس وتنهش وتبلع ، وتدمر ، ولا شفقة تكف ، ولا عقل يزجر . فالويل كل الويل لقوم قضت الأقدار عليهم بحكومة جائرة وحشية كهذه ! وإن الحاكم وأتباعه ـ للاستحصال على ما نقدوه أولا ، وما التزموا على ذمتهم لا يدعون ، في مَدِّه للحكومة ـ وهي غير معلومة ـ عملا شنيعا وفعلا فظيعا وأمرا بشعا إلا ويرتكبونه .. يعلقون النساء بشعورهن ، ويضعون الرجال مع الكلاب العقور في الجوالق[١٢٩] ، ويسمرون الآذان على ألواح من الخشب ، ويدخلون زِمَاماً في العرنين[١٣٠] ويديرون ذاك المظلوم بتلك الهيئة المحزنة في الأزقّة والأسواق . وان أهون العذاب عندهم الكي والضرب بالسياط .

وإنَّ الحكومة الايرانية لا تمون العساكر . وليست لهم لا شهرية ولا جراية . فإنما تكلهم إلى قدرتهم في الغصب وحذقهم في السرقة . تَدَبَّر فيما يكابده الأهالي ويقاسيه من هذه الحكومة الجائرة الحمقى . أليست هذه

(١٢٧) عبارة فارسية تعني الاتاوة .
(١٢٨) يقصد : القطعان .
(١٢٩) الجوالق جمع جُوالِق ـ بضم الجيم وكسر اللام : الغرارة أو الكيس .
(١٣٠) يدخلون العصى في المؤخرات .

هي الأمة الايرانية التي سادت الأمم في زمانها ؟ أليست هذه هي الأمة الفارسية التي أحيت العلوم في العالم الاسلامي ؟ وأقامت الديانة على دعامة الحق بقوة براهينها ؟ وقومت اللغة العربية بعالي تصانيفها ؟ أسفا على هذه الأمة ! كيف أبادها الجور ، وبددها الظلم ، حتى سقطت عن عداد الأمم العظيمة ، وكاد أن يندرس رسمها وينطمس اسمها ! أين العلماء ؟ وأين حملة القرآن ؟ وأين حُفّاظ الشرع والقائمين بأمر الأمة ؟ وأين نصراء الحق والعدل ؟

بلاد فارس

[ظهرت هذه المقالة بمجلة « ضياء الخافقين » في عدد مارس (آذار) ١٨٩٢ ،. وفيها يستمر الأفغاني في تحريضه للايرانيين على الثورة وخلع الشاه . وقد وقعها بعبارة « السيد الحسيني »]

بسم الله الرحمن الرحيم

حملة القرآن . وحفظة الايمان . ظهراء الدين المتين . ونصراء الشرع المبين . جنود الله الغالبة في العالم . وحججه الدامغة لضلال الأمم . جناب الحاج الميرزا محمد حسن الشيرازي ، وجناب الحاج الميرزا حبيب الله الرشتي ، وجناب الحاج الميرزا أبي القاسم الكربلائي ، وجناب الحاج الميرزا جواد الأقا التبريزي ، وجناب الحاج السيد علي أكبر الشيرازي ، وجناب الحاج الشيخ هادي النجم آبادي ، وجناب الميرزا حسن الآشتياني ، وجناب السيد الطاهر الزكي صدر العلماء ، وجناب الحاج أقا محسن العراقي ، وجناب الحاج الشيخ محمد تقي الأصفهاني ، وجناب الحاج المُلّا محمد تقي البجنوردي .

وسائر هُداة الأمة ، ونواب الأمة ، من الأحبار العظام ، والعلماء الكرام .

أعز الله بهم الاسلام والمسلمين . وأرغم أنوف الزنادقة المتجبرين . آمين .

طالما تاقت الأمم الافرنجية إلى الاستيلاء على البلاد الايرانية حرصا منها ، وشرها . ولكم سولت لها أمانيها خدعا تعكفها من الولوج في أرجائها ، وتمهد فيها سلطانها على غِرَّة من أهلها ، تحاشيا من المقارعة التي تورث الضغائن ، فتبعث النفوس على الثورة كلما سنحت لها الفرص ، وقضت بها الفترات . ولكنها علمت أن بلوغ الأرب ، في عز سلطانهم ، ضرب من المحال ، لأن القلوب تهوى إليهم طراً . والناس جميعا طوع يدها يأتمرون كيفما أمروا ، ويقومون حيثما قاموا ، لا مَرَدَّ لقضائهم ولا دافع لتحكمهم . وإنهم لا يزالون يدأبون في حفظ حوزة الاسلام . لا تأخذهم فيه غفلة ، ولا تعروهم غرة ، ولا تميد بهم شهوة .

فخنست[١٣١] وهي تتربص بهم الدوائر ، وتترقب الحوادث . أيم الله ، إنما قد أصابت فيما رَأتْ ، لأن العامة ، لولا العلماء ، وعظيم مكانتهم في النفوس ، لالتجأت بطيب النفس الى الكفر ، واستظلت بلوائه ، خلاصا من هذه الدول الذليلة الجائرة الخرقى[١٣٢] التي قد عدمت القوة ، وفقدت النصفة ، وأنفت المجاملة ، فلا حازت منها شرفا ، ولا صانت بها لنفسها حقاً ، ولا انشرح منها صدرها فرحا .

ولذا كلما ضعفت قوة العلماء في دولة من الدول الاسلامية ، وَثَبَتْ عليها طائفة من الافرنج ، ومحت اسمها ، وطمست رسمها . إن سلاطين ، الهند وأمراء ما وراء النهر ، جدت في إذلال علماء الدين فعاد الوبال عليهم . سنة الله في خلقه . وان الأفغانيين ما صانوا بلادهم عن أطماع الأجانب ، وما دفعوا هجمات الانجليز مرة بعد الأخرى إلّا بقوة العلماء ، وقد كانت في نصابها .

ولما تولى هذا الشاه[١٣٣] (الحارية الطاغية) الملك طفق يستلب حقوق العلماء تدريجا ، ويخفض شأنهم ، ويقلل نفوذ كلمتهم ، حبا بالاستبداد بباطل أوامره ونواهيه ، وحرصا على توسيع دائرة ظلمه وجوره . فطرد جَمْعا من البلاد بهوان ، ونهنه فرقة عن إقامة الشرع بصَغار ، وجلب طائفة من أوطانها الى دار الجور والخرق (طهران) وقهرها على الاقامة فيها بذُلٍّ . فخلا له الجو ، فقهر العباد ، وأباد البلاد ، وتقلب في أطوار الفظائع ، وتجاهر بأنواع الشنائع ، وصرف في أهوائه الدنية وملاذه البهيمية ما مصه من دماء الفقراء والمساكين عَصْراً ، ونزح من دموع الأرامل والأيتام قهرا (ياللاسلام !)

فاذا اشتد جنونه بجميع فنونه ، استوزر وغدا خسيسا[١٣٤] ليس له دين يردعه ، ولا عقل يزجره ، ولا شرف نفس يمنعه . وهذا المارق ما قعد على دِسْتِه إلا وقام بإبادة الدين ، ومعاداة المسلمين . وساقته دناءة الأرومة ، ونذالة الجرثومة ، إلى بيع البلاد الاسلامية بقيم زهيدة .

فحسبت الافرنج أن الوقت قد حان لاستملاك الأقطار الايرانية بلا

---

(١٣١) خنس ـ بفتح الخاء والنون : توارى وتخلف .

(١٣٢) يقصد : الخرقاء اي الحمقاء والجاهلة .

(١٣٣) المقصود هو الشاه ناصر الدين شاه قاجار ، الذي اغتاله احد انصار الافغاني ومريديه عام ١٨٩٦ .

(١٣٤) المقصود هنا هو ميرزا علي اصغر خان ، امين السلطان ، الذي اغتيل عام ١٩٠٧

كفاح ولا قتال ، وزعمت أن العلماء الذين كانوا يَذُبُّون عن حوزة الاسلام قد زالت شوكتهم ونفد نفوذهم . فهرع كُلٌّ فاغراً فاه ، يبغي أن يسرط[١٣٥] قطعة من تلك المملكة .

فغار الحق ، وغضب على الباطل دمغه ، فخاب مسعاه ، وذل كل جبار عنيد . أقول الحق ، إنكم يا أيها القادة قد عظمتم الاسلام بعزيمتكم ، وأعليتم كلمته ، وملأتم القلوب من الرهبة والهيبة . وعلمت الأجانب طُرًّا أن لكم سلطانـا لا يقاوم . وقوة لا تدفع ، وكلمة لا ترد . وإنكم سياج البـلاد ، وبيـدكم أزمَّة العباد . ولكن ، قد عظم الخطب الآن ، وجلت الرزية ، لأن الشياطين قد تألبت جبرا للكَسْر ، وحرصا على الوصول إلى الغاية ، وأزمعت على إغراء ذاك المارق الاثيم على طرد العلماء كافةً من البلاد . وأبانت له أن إنفاذ الأوامر إنما هو بانقياد قواد الجيوش ، وأن القـواد لا يعصـون للعلمـاء أمـراً ، ولا يرضـون بهم شراً ، فيجب ـ لاستتباب الحكومة ـ استبدالهم بقوات الافرنج . وأرت لذاك البليد الخـائن رآسـة الشرطة وقيـادة فوج الغـزاق[١٣٦] نمـوذجـا (كنت وأضرابه)[١٣٧] . وإن ذاك الزنديق وزملاءه في الالحاد يَجِدُّون الآن في جلب قواد من الأجـانب . والشـاه بجنونه المطبق قد استَحسن هذا ، واهتز به طربا .

لعمر الله ، لقد تحالف الجنون والزندقة ، وتعاهد العتة والشره ، على محق الدين ، واضمحلال الشريعة ، وتسليم دار الإسلام إلى الأجانب ، بلا مقارعة ولا مناقرة .

يا هداة الأمـة ، إنكم لو أهملتم هذا الفـرعـون الذليـل ونفسـه ، وأمهلتمـوه على سرير جنونه ، وما اسرعتم بخلعه عن كرسي غَيِّه لقُضِي الأمر ، فعسر العلاج ، وتعذر التدارك .

أنتم نصراء الله في الأرض . ولقد تمحصت بالشريعة الالهية نفوسكم عن أهواء دنية ، تبعث على الشقاق ، وتدعو الى النفاق ، ويئس الشيطان بقذفات الحق عن تفريق كلمتكم . فأنتم جميعا يدٌ واحدة يذود بها الله عن صياصيٍّ دينه الحصينة ، ويذب بقوتها القاهرة جنود الشِّرك وأعوان

---

(١٣٥) سَرَطَ ـ بفتح السين والراء والطاء : ابتلع .
(١٣٦) يقصد : فرقة القوزاق الروسية التي كان يستعين بها الشاه في حفظ أمنه .
(١٣٧) لا ندري ما يقصده بهذه العبارة التي رسمها بتلك الصورة .

الزندقة . وإن الناس كافة (إلاّ من قضى الله عليه بالخيبة والخسران) طوع أمـركم . فلو أعلنتم خلع هذا (الحـاريَّـة)[١٣٨] لأطاعكم الأمير والحقير ، وأذعن لحكمكم الغني والفقير (ولقد شاهدتم في هذه الأزمان عَياناً ، فلا أقيم برهانا) خصوصا وأن الصدور قد حرجت ، وأن القلوب قد تفطرت من هذه السلطنة القاسية الحمقى ، التي ما سدت ثغورا ، ولا جنـدت جنـودا ، ولا عمـرت بلادا ، ولا نشرت علوما ، ولا أعزت كلمة الاسلام ، ولا أراحت يوما ما قلوب الأنام . بل دمرت ، وأذلت ، ثم بعد ضلت ، وارتـدت . وإنها سحقت عظام المسلمين ، وعجنتها بدمائهم ، فعملت منها لبنات بَنَتْ بها قصورا لشهواتها الدنية . هذه آثارها في هذه المدة المديدة ، والسنين العديدة . تعسا لها ، وتبت يداها !

وإذا وقع الخلع (وتكفيه كلمة واحدة ينبض بها لسان الحق غيرة على دينه) فلا رَيْبَ أن الذي يخلف هذا (الطاغية) لا يمكنه الحيدان عن أوامـركم الالهيـة ، ولا يسعـه إلاّ الخضـوع بعتبتكم ، عتبة الشريعة المحمدية . كيف لا ، وهو يرى أن مالكم من القوة الربانية التي تقلبون بها الطغاة عن كرسي غَيِّها . وإن العامة متى سعدت بالعدل تحت سلطان الشرع ازدادت بكم ولعا ، وحامت حولكم هياما ، وصارت جميعا جنداً لله وحزبا لأوليائه العلماء .

ولقـد وَهَم من ظن أن خلع هذا (الحـارية) لا يمكن إلا بهجمات العسـاكـر ، وطلقـات المدافع والقنابر . ليس الأمر كذلك ، لأن عقيدة إيمانية قد رسخت في العقول ، وتمكنت من النفوس . وهي إن الرَّاد على العلماء راد على الله (هذا هو الحق وعليه المذهب) فإذا أعلنتم (ياحملة القرآن) حكم الله في هذا الغاصب الجائر ، وأبنتم أمره تعالى في حرمة إطاعته لانفض الناس من حوله فوقع الخلع بلا جدال ولا قتال .

ولقـد أراكم الله في هذه الأيام ، إتماما لحجته ما أولاكم من القوة التامة والقدرة الكاملة . وكان الذين في قلوبهم زيغ في ريب منها من قبل . اجتمعت النفـوس بكلمة منكم على إرغام هذا الفرعون الذليل وهامانه الرذيـل (مسئلة التنباك) فعجبت الأمم من قوة هذه الكلمة ، وسرعة نفوذها ، وبهت الذي كفر . قوة أنعمها الله عليكم لصيانة الدين وحفظ حوزة الاسـلام . فهل يجوز منكم إهمالها وهل يسوغ التفريط فيها .

---

(١٣٨) الحارية : الافعى

حاشا ، ثم حاشا .

وقد آن الوقت لاحياء مراسم الدين ، واعزاز المسلمين ، فاخلعوا هذا (الطاغية) قبل أن يفتك بكم ، ويهتك أعراضكم ، ويثلم سياج دينكم . ليس عليكم إلاّ أن تعلنوا على رؤوس الأشهاد حرمة إطاعته . فإذاً يرى نفسه ذليلا فريدا ، تفر منه بطانته وتنفر منه حاشيته ، وينبذه العساكر ، ويرجمه الأصاغر .

إنكم ياأيها العلماء ، والذين قاموا معكم لتأييد الدين ، بعد اليوم في خطر عظيم . قد كسرتم قرن فرعون بعصى الحق وجدعتم أنف الحارية بسيف الشرع . فهو يتربص فرصا تساعده على الانتقام ، شفاءً لغيظه ، ومرضاة لطبيعته ، التي فطرت على الحقد واللجاج . فلا تمهلوه أياما ، ولا تمكنوه أن يقبض زماما . أعلنوا خلعه قبل اندمال جرحه .

وحاشاكم أيها الراسخون في العلم أن ترتابوا في خلع رجل سلطانه غضب ، وأفعاله فسق ، وأوامره جور . وإنه بعد أن مَصَّ دماء المسلمين ، ونهش عظام المساكين ، وترك الناس عراة حفاة لا يملكون شيئا ، حكم عليه جنونه أن يُمَلِّك الأجانب بلادا كانت للاسلام عزًّا وللدين المتين حرزاً . وساقته سورة السفه إلى إعلاء كلمة الكفر ، والاستظلال بلواء الشرك .

ثم أقول إن الوزراء ، والأمراء ، وعامة الأهالي ، وكافة العساكر ، وأبناء هذا (الطاغية) ، ينتظرون منكم جميعا (وقد فرغ صبرهم ونفد جَلَدُهم) كلمةً واحدة ، حتى يخلعوا هذا الفرعون الذليل ، ويريحوا العباد من ضره ، ويصونوا حوزة الدين من شرِّه ، قبل أن يحل بهم العار . ولات حين مناص[١٣٩] . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

---

(١٣٩) لات حين مناص تعبير قرآني بمعنى : ليس الحين حين مناص ، فلات بمعنى : ليس ، وتدخل على كلمة « حين » بصفة خاصة .

ظلامة الأمة .. وضراعة الملة

[ظهرت هذه المقالة بمجلة « ضياء الخافقين » بلندن في عدد أبريل (نيسان) ١٨٩٢ وقد قدمتها بهذه العبارة : « هذه رسالة أخرى قد وصلتنا من مكاتبنا في بغداد . وقد توزعت في البلاد الإيرانية خفية »
ومن الواضح أن الأفغاني كتب المقالة في صورة « منشور » أراد به تأليب رجال الدين على الشاه الذي أمر بطرده ، وانه لم يشأ توقيعها باسمه الصريح ، فاكتفى بتوقيع « السيد الحسيني »]

بسم الله الرحمن الرحيم

حماة الاسلام ، وسراة الأنام ، ودعاة دار السلام ، وأئمة الدين المتين ، وأركان الشرع المبين .

لا زالوا عزاً للمسلمين . آمين .

إن الطغاة قد استضعفوا نصراء الدين ، وهتكوا سياج الشرع في ذراري[١٤٠] طه ويس . فانتقم الله منهم بعدله ، وأحل بهم الخزى ، وجعلهم أذلة :

في العالمين

الشاه في زمن سلطانه قد جد ـ حرصا منه على الدراهم والدنانير ، في اختلاس أموال الأرامل ، واستلاب أملاك الأيتام ، وانتهاب أقوات الفقراء ، واغتصاب أرزاق المساكين ، وارتكب لجمعها كل فظاعة وشنعة ، وعامل الناس بأشد أنواع القسوة .. والتمس لنيلها وسائل خسيسة تأبى عنها نفوس الأوغاد ، وتعافها طباع الأوباش ، فما ترك للجور شِرْعَةً إلّا ووردها ، ولا ثقبة من ثقب الدنايا إلّا وولجها .

ولما أقفر المساكن ، وأفقر السكان ، ودمر البلاد ، وبدَّد العباد ، ساقته سورة الجنون إلى بيع حقوق المسلمين وأملاك المؤمنين للأجانب .. وزَوَّقت له (ألحاده[١٤١] هذه) زندقة وزيره المارق .

فبادر سريعا ، وهلع مستعجلا ، فعقد مع الافرنج عقودا ، وعهد على نفسه عهودا ، وهو لا يكترث بما فيها من الخيانة الفاضحة ، ولا يبالي بما يعقبها من الخسارة الفاحشة ، كأنه عز أن يفارق البلاد من يومه إلى

(١٤٠) ذرارى : نسل .
(١٤١) الحاد جمع لحد وهو الشق الذي يوضع فيه الميت داخل القبر .

الأبد .

فإذن أرغمه الله غيرة على دينه بيد العلماء العظام والأحبار الفخام . وألبسه لباس الخزى والفضيحة ، وجعله مُثْلَة[١٤٢] في العالم ، وأحدوثة بين الأمم .

فاستكلب ، وكشر عن نابه ، وهو يتشبث بأسباب تمكنه من افتراسهم واحداً بعد واحد . ثم إنه الآن قد التزم على نفسه (غرامة لجنونه وجريمة لزندقة وزيره أن يقدم للشركات الافرنجية (كمباني) ست كرورات تومان[١٤٣] (ثلاثة ملايين تومان) .. ثلث للشركة الأولى (كمباني التنباك[١٤٤]) .. وثلث للشركة الثانية التي اشترت منها حقوق بيع التنباك في البلاد العثمانية .

ما هذا الشنار والعار ؟ ما هذا الذل والصغار ؟

كم هتكت الجلاوذة[١٤٥] في جمع هذه القناطير المقنطرة أعراض المؤمنين . وكم دمرت الأوباش في جبايتها بيوت المتقين . وكم خفقت في استلابها قلوب الموحدين . وكم جرت في اقتنائها عبرات الفقراء والمساكين . وكم سالت في اكتنازها دماء المسلمين . وكم خطفت الجباه القساة المعاجر[١٤٦] من رؤوس النساء . وكم صعد صراخ العجزة إلى عنان السماء . وكم بات الرجال بعد الرَّفَه بلا وطاء ولا غطاء .

هذا رهن ـ خوفا من السوط ـ داره . وذلك باع ؛ وجلا من الكي ، عقاره . وذلك استدان ، فزعا من الحبس ، جاره . والآخر سلم ، خشية من المثلة ، دثاره وشعاره . هذه الفظائع قد طمت البلاد ، وعمت العباد ، حتى تجمعت هذه القناطير من الدنانير .

ثم حكم الجنون ، وقضت الزندقة على تسليمها صرة واحدة إلى أعداء الدين . وا إسلاماه ! وامحمداه ! يا أركان الدين ، ويا قادة المتقين ، لا علاج لهذه المصيبة الكبرى والبلية العظمى ، ولا دافع لهذه الفضيحة الشنعى والدنية البشعى إلاّ خلع هذا (الحضاجر)[١٤٧] صيانة لحوزة

---

(١٤٢) مثلة : امثولة .
(١٤٣) التومان : عملة إيران .
(١٤٤) التنباك : الدخان .
(١٤٥) الجلّوذ ـ بكسر الجيم وتشديد اللام وكسر الواو : الغليظ الشديد ، وجمعها : جلاوذة .
(١٤٦) المَعاجر جمع عِجار ـ بكسر العين : ثوب تلفه المراة على استدارة راسها ، ويقال له المنديل في العامية .
(١٤٧) الحضاجر : الحيوان المصاب بالبطنة والسعار .

الاسلام وحراسة لحقوق الأنام ، وانقاذا للدين وأهله من هذه الورطة المهولة التي يتبعها الزوال ، ويتلوها الوبال ، لأن هذه الغرامة الباهظة التي التـزمهـا الشـاه بجنونه على نفسه تثير أحقاد الروسية فتبعثها مضادة للانجليز على استملاك الخراسان .

ولا يتقاعس الانجليز إذاً من مباراتها خوفا من الاستيلاء على الكل وحـذرا من متاخمتها للأراضي الهندية ، فتقتسمان البلاد ، وتسترقان العباد . و لا نرث (نحن المسلمين) من ثورات هذا الجنون ، ونزعات هذه الزندقة إلا الحسرة والعبرة .

ولا عذر لنا وقتئذ وقد كان التدارك ممكنا من قبل .

لا تدفع هذه الغرامة الا الخلع . لا يرفع هذه الجريمة إلا الخلع .

لأن عقود الدول المستبدة (كدولة إيران وأضرابها) شخصية تنحل بزوال القائم بها . فإذا وقع الخلع ، فلا حق للشركات (كمباني) إذاً أن تطالب الخَلَفَ بغرامة التزمها على نفسه السلف .

هذا هو القـول الحق . إن الخلع هو الوسيلة الوحيـدة لانقاذ بلاد المسلمين من هذه التهلكة (لو كان للشاه نعرة وطنية أو نزعة إيمانية أو نهية كاملة لتنازل عن الملك حفظا لحوزة الاسلام . ولكن هيهات ! هيهات !)

فإذا صدعتم يا حمـاة الدين بالحق ، وعلم النـاس أن إطاعة هذا (الطاغية) حرام في دين الله ، وأن بقاءه على الملك خطر على الاسلام وحوزته ، لهرعوا كافة ، وقلبوا عرش غَيِّه[١٤٨] ، وخلعوه عن كرسي جنونه .

أنتم حماة الأمة . وأنتم نصراء الملة . فمن يصون الدين غيركم ومن يحرس الحوزة سواكم ؟ .. البدار البدار ، قبل حلول الذل والصَّغَار .

أنتم المسـؤولون عن العبـاد والبـلاد أمام الله تعالى . ولا لوم على الناس ، لأنهم لا يزالون يأتمرون ما تأمرون ، ويقومون حيث تقومون ، فماذا بعد هذا تنتظرون ؟ الخلع ، الخلع ، ولا علاج سواه .

أقول قول خبير بصير ، إن صيانة شرف الاسلام ، وحراسة الممالك ، وحفظ حقوق المسلمين ، قد نيطت الآن بكلمة ينطق بها لسان الحق غَيْرَةً على الدين وأهله .. ألا وهي (الخلع)

---

(١٤٨) الغَيّ ـ بفتح الغين وتشديد الياء : الضلال .

فمن فاه بها أولا من الهداة الأبرار ، والقادة الأخيار ، فقد حاز الشرف الأتم ، وفاز بالسعادة العظمى في هذه الدنيا وفي العقبى . هذا هو البلاغ .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الفقه الاسلامي

[ظهرت هذه المقالة بمجلة « ضياء الخافقين » في لندن ، في عدد ابريل (نيسان) ١٨٩٢ . ووقعها الأفغاني باسم « جمال الدين الحسيني الأفغاني » وهي عرض لكتاب عن الاسلام ألفه سفير عثماني]

كشف الحقائق صعب . والحكم بالحق عسر . تغر الانسان نظرته الأولى . ويحيد به عن محجة البرهان اتباع الهوى . يعارض الحقيقة القارة[١٤٩] بمسلماته . ويحسب اوهامه الزائفة من بديهياته . لا تثقفه الحكمة . ولا يعصمه المنطق من الزلة ، ولذا استحكم الحِجَاج ، وأزمن اللجاج بين العلماء والحكماء . فما من موضوع إلّا وترى فيه آراء متباينة وأقوالا متخالفة ، وحججا متضاربة ، حتى في الوجدانيات والمحسوسات . فالتبست الفلسفة بالسفسطة . وقامت المشاقيات مقام البينات . إنّ حكماء الافرنج ـ مع سعة العلم ـ قد ضلوا عن الرشد ، وحسبوا أنّ الشريعة الاسلامية بما لها من الأحكام المتقنة والاحاطة التامة بالوقائع التي بها تستقر روابط أبناء البشر في معاملاتهم ، وعليها يفصلون الدعاوي في منازعاتهم ، لا يمكن أن تكون نتيجة جادت بها القرائح التي رئمت[١٥٠] البداوة منذ قرون عديدة . فذهب بعضٌ إلى أنها نسخة من قانون الروم الأولي ، وتوهم الآخرون أن الايرانيين ـ حينما قلبوا عرش أمية وأقاموا أبناء عباس على كرسي الخلافة ـ صاغوا هذه الصيغة ، وأبدعوا هذه الطريقة . وأيدوا هذه الأوهام بظنون توارثتها النفوس حُباً بالعصبية جيلا بعد جيلٍ ، وهي أن الحكمة بجميع فنونها من خاصة يافث (آرى)[١٥١] ، ولاحظَّ لسام فيها إلا قبسات يستمنحها منه ويمن بها عليه .

ولما نظروا إلى المسائل التي سردها الفقهاء في كتبهم ازدادوا تصلبا ، وحكموا جهلا منهم بأن أدلة تبتنى عليه ، وأصولا ترجع إليها بأنها

(١٤٩) الصواب ان يقول : المقرة بمسلماته ، ولكنه درج على مثل هذه الاستخدامات الاعجمية احيانا .
(١٥٠) رئمت : احبت والفت .
(١٥١) ينتمي الايرانيون الى الجنس الآري ، من نسل يافث ابن نوح . والافغاني هنا ينكر أن تكون الشريعة من ابداع الفرس وحدهم دون الساميين العرب .

عوار[١٥٢] تلقفها أئمة الاسلام من الأمم العريقة في الحضارة ، ولا يمكنها لضيق نطاقها أن تنطبق على الوقائع التي يقضي بها الزمان ، في كل آن . هذه هي زلَّة النظرة الأولى وهفوة اتباع الهوى .

فلو استَكنهوا مباني الشريعة الاسلامية ، وعرفوا كيفية تفرعات المسائل منها ، وأحاطوا علما بنظريات الفقه وأصوله ، لعصموا أنفسهم من الزلة في الأفكار ، والحيف في الأحكام . ولكن لا مَلام ، لأن الجهل باللغة وصعوبة اصطلاحات العلوم قد أقامت لهم عذرا .

ولولا كتاب[١٥٣] أتى بآيات بينات أبان بها الحق ، وأظهر الصدق ، وأزاح الأوهام التي كانت فلاسفة الغرب تتشبث بها في أحكامها لحَلَّ بنا (نحن المسلمين) اللوم . ولا عذر ، لأن عرض الشريعة على الأمم ، وإقامة البرهان عليها ، ورفع الشُبَه عنها فريضة .

ساواس باشا هذا الحاذق البارع قد خاض في أعماق الشريعة الاسلامية ، وتوغل في لجج الديانة المحمدية ، وعرف أصولها وفروعها ومبادئها ومقاصدها ونظرياتها ، والأحكام الناتجة منها فألف كتابه باللغة الفرنساوية خدمة للعلم وغَيْرةً على الحق . وإنه بعد أن قَدَّر فيه الشارع الأعظم وأصحابه حق قدرهم قد أقام أدلة واضحة دفعا للشبه على أن أحكام الفقه كلها مبنية على الوحي والالهام . ولا مأخذ سوى كلام الله وسنة نبيه . وإن العلماء العظماء من أبناء سام قد استنبطوها بأصول متقنة أرشدتهم إليها عقولهم الصافية منها من غير امتنان من يافث (آرى) وأولاده . واستشهد على هذا بتأليفات الامام محمد رضي الله عنه . ثم إنه بيَّن بحكمة أنيقة تطورات الشريعة من الاجمال إلى تفصيلها في أزمان الخلفاء الراشدين ، ومن اقتفى أثرهم من آل عباس . وبسط القول في الأصول الأربعة التي تبتني عليها المسائل الفقهية (القرآن والسنة والاجماع والقياس) وشرح أن الشريعة الاسلامية بهذا الركن الرابع (القياس) المبني على الحُسْن والقبح ، سواء نشأ من ذات الشيء أو اعتريا عليه لغيره منضما إلى أحكام الضرورات التي اتفقت الأمة على وجوب اتباعها تسع كُلَّ حادثة ، وتنطبق على كل واقعة مهما

(١٥٢) عُوار ـ بضم العين: عيب. ولكنه يقصد هنا ما يتعاوره الناس، أي ما يتداولونه بينهم.

(١٥٣) جاء في هامش صفحة الاصل ان الكتاب « ألفه ساواس باشا ، وبين فيه مباني الفقه الاسلامي ، وكيفية استنباط مسائله من اصول صحيحة ، استخرجها العلماء من الكتاب والسنة » . اما المؤلف فهو احد سفراء الدولة العلية في اوربا .

كانت ، وأنّى وجدت ، وفي أي زمان حدثت . وأزاح توهم ضيق نطاق الشريعة بشرحه هذا ، متأسفا على سد باب الاجتهاد .

وذكر هذا الرجل الفاضل في طيّ كتابه مناقب أئمة الدين وفضائل المحدثين وأوصاف الفقهاء المتأخرين . ونعت الامام الأعظم رضي الله عنه بما خصه الله به من القريحة العالية والغريزة السامية . وفصل ما أبدعه الامام من الفلسفة الدينية مقابلة لحكمة اليونان ، وأنه كيف قسم موضوعات الأحكام إلى جواهر (أصول) وأعراض (لواحق) جعلها أساسا لكل الأوامر الالهية ونواهيها .

أقول الحق إن ساواس قد ألف كتابا جمع فيه كل محاسن الاسلام ، وجَدَّ في ردع المفكرين بالبراهين القوية والأدلة الثابتة . وكُنَّا في حاجة إلى مثل هذا الكتاب في هذه الأزمان .

ولا شك أنه من أعظم حسنات خليفة العصر[١٥٤] .

وأحب أن يدرس هذا الكتاب بعد تصحيح بعض مواده التاريخية في مدارس المسلمين .

---

(١٥٤) يقصد : الخليفة العثماني السلطان عبد الحميد الذي شجع مؤلف الكتاب وتبنى مشروعه .

الحجة البالغة

[ظهرت هذه المقالة بمجلة « ضياء الخافقين » ، عدد يوليو (تموز) ١٨٩٢ . وفيها يعود الأفغاني إلى أسلوب المنشورات السابقة ، ويحرض علماء الدين على خلع الشاه . وقدمتها المجلة بعبارة : « قد وردت الينا هذه الرسالة من بغداد . وبلغنا انها قد وزعت في بلاد فارس خفية كما صار توزيع الرسائل السابقة . » واستخدم الأفغاني في توقيعها حروف : ك هـ ف . ق س ط »]

بسم الله الرحمن الرحيم

حماة الدين . وقادة المؤمنين . حزب الله في العالم . وجنوده الغالبة على الأمم .

نصر الله بهم الاسلام ، وخذل بعزائمهم أعداءه الطغام . آمين .

كَلَّت البصائر ، ووقفت المشاعر ، وشخصت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ـ ها إن بلية شوهاء قد حامت حول الاسلام ، وأحاطت به من جميع جوانبه . وكادت (لولا عون الله تعالى) أن تطمس شعائره وتمحق معالمه .

الشاه في تقلبات جنونه قد جلب على الديانة المحمدية وأهلها أنواع المصائب وأصناف الرزايا . وفتح عليها ، هوسا منه وعتها ، أبواب المهالك والبلايا ـ ومهَّدت زندقة وزيره سُبُلَها . وأزاحت العوائق التي كانت تدافعها في سيرها (وامحمداه) .

قد غدا الاسلام ، بين ثورات الجنون ونزعات الزندقة ، في خطر عظيم .

أين حملة القرآن ؟ أين القائمون بإعلاء كلمة الله ، وأين الذين لا يخافون في الله لومة لائم ، ولا يخشون الجبابرة في الحق والسيف ؟

إن الدول الافرنجية في اغتصابها البلاد يزاحم بعضها بعضا ويدافع كُلٌّ منها الأخرى . والقوى غالبا متكافئة ـ وليس لدولة أن تهجم على قطعة من قطعات الأرض إلا بحجة تقيم لها عند سائر الدول حقا على استملاكها .

ولذا تكدح هذه الدول آناء الليل وأطراف النهار في إبداع الوسائل التي تسوغ اليها أن تسبق في مضمار فتوحاتها وتدحض بها حجج

أكفائها في مباراتها .

كل منها تعرض نفسها على الحكومات الشرقية كيداً منها ومكرا . هذه تقدم لها دنانيرها دَيْناً ، وهذه تلتزم مكوسها وضرائبها على ذمتها نقدا ، وتلك تشتري منها حقوق العباد في متاجرهم سلفا ، والأخرى تتعهد أن تستخرج لها المعادن وتنشيء الجواد[155] والمسالك ، وهلم جرا .

هذه كلها خدع ، وانما الغرض منها أن تثبت لنفسها حق استملاكها . وعلى هذه الوتيرة قد جرت سنة الافرنج في اغتصاب جزائر الغرب ، وتونس ، والهند ، وبلاد ما وراء النهر ، ومصر ، وسائر ممالك المسلمين .

وكانت الأقطار الايرانية في أمن من عراقيل هذه الغوائل إلى أن بدأ السلطان الجنون والزندقة . ففتح عليها أبواب المحن والمصائب ، وجلب الأخطار على الاسلام وحوزته من كل جانب .

اتفق جنون الشاه وزندقة وزيره على بيع حقوق المسلمين وأملاك المؤمنين مجازفة . فاغتنمت الأمم الافرنجية هذه الفرصة لاستحصال الوسائل التي تمكنها من بث سلطانها في أرجاء البلاد . وكانت الأمة الانجليزية في مقدمتها .

ولما أرغم العلماء أنوف الزنادقة المتجبرة ، وكفوا بقوة الحق الجور عن التطاول على أموال المسلمين واغتصابها ، وزالت غائلة التنباك ، جاش الشاه ، واختبط ، فالتزم للشركة الانجليزية على نفسه (غرامة لجنونه وجريمة لزندقة وزيره) خمسمائة ألف ليرة[156] قبل أن يطالبها بفسخ العقود التي عقدتها مع الشركة الفرنساوية لبيع التنباك في البلاد العثمانية ـ وفتح بسفهه هو على البلاد الايرانية أبواب غرامات لا يمكن لأغنى الدول أن يقوم بها (كغرامة القرعة ، وغرامة البانك[157] ، وغرامة المعادن ، وغرامة السكك والجواد ، وغرامة سائر العقود الباطلة ، التي عقدها مع الأفراد ، وهم يطالبونه بها ، وهو يعجز عن إنفاذها[158] ، فيضطر جرياً على سنته ـ التي سنها بجنونه ـ أن يقبل غرامتها) .

---

(١٥٥) الجواد ـ بتشديد الدال : جمع جادة ، اي : طريق .

(١٥٦) ليرة انجليزية ، اي ٥٠٠ الف جنيه استرليني .

(١٥٧) يقصد البنك الذي انشاه الانجليز للشاه في تلك الوقت .

(١٥٨) يقصد : تنفيذها ، وهو يستخدم إنفاذ بدل تنفيذ في مقالاته الاخرى .

ثم زاد شرا على شره (نستجير الله) وترك المكوس (الكمرك) وهو في سكرته للدولة الانجليزية إلى أربعين سنة عوضا عن الغرامة التي التزمها على نفسه .

ها هي الأخطار الهائلة التي كنا نحذر منها قبلا . ولقد جلبها على الاسلام أدلاء الكفر ، سفها وعمدا .

إن الدولة الانجليزية قد أنشبت بهذه المعاهدة الجديدة أظفارها في سواحل البحر ، وأيالة الفارس ، وبلاد الأهواز ـ وستلزم الشاه بعد آونة بغرامة باهظة عن عقود باطلة أخرى يتعذر قيام المسلمين بها ، وتجبره أن يترك لها جباية الأقطار وضرائبها عوضا عنها . فتستملكها بلا جدال كما فعلت بالهند من قبل .

وأن الروسية قد حنقت من إعطاء المكوس للانجليز مجازفة ، وثارت ، وهي الآن تقيم الحجة على الشاه في فعاله ، وتطالبه بحقوق سبقت وعهود تجددت . وتبتغي ببطشها أن تكون حصتها أجزل وأوفى ، لأنها أشد وأقوى ، وأمامها الخراسان والأذربيجان والمازندران .

هذه هي الأسباب التي قد عجلت بالبلاد الايرانية ، وأغرت الدول على مقاسمتها . هذه هي الدواهي التي قد جلبها الجنون والزندقة على الاسلام (وامحمداه) .

كيف بنا (نحن المسلمين) إذا نظرنا بأعيننا أن أراذل الافرنج تهتك أعراضنا ، وتنتهب أموالنا ، وتغتصب حقوقنا ، وتهين ديننا ، وتزدري بشريعتنا ـ كل هذا واقع لا محالة إن لم يدفع حماة الدين سريعا هذه الداهية التي قد أحدقت بحوزة الاسلام . ولم تنزع البلاد بقوة الشرع من براثن الجنون ومخاليب الزندقة .

ماذا تجيب قادة الأمة أمام الله تعالى من العباد والبلاد إذا وقع الأمر المر (أستجير بالله !) وقد كان التدارك ممكنا من قبل ؟

وأي عذر لعلماء الملة إذا تقاعسوا عن صيانة الدين عن هذه الأخطار الهائلة وحاجّهم العامة يوم القيامة ، وقدمت حسن امتثالها ودوام طاعتها حجة عليهم ؟

هل لنا في الشريعة فريضة أعظم من حفظ حوزة الاسلام ـ أليس العلماء أحق بهذه الفريضة من عامة الناس ؟

هذا هو الوقت ـ وليس بعده إلّا اللوم في الدنيا والسخط في العقبى ـ

هذه المقاولات التي ألقت البلاد في المهالك عقود شخصية تنحل بزوال القائم بها ـ فإذا زال الشاه عن كرسي الملك سقطت هذه الحقوق الباطلة كلها ـ وإذا كل دولة من الدول الافرنجية التي لا حظ لها في هذه الغنيمة ، أو ترى في اقتسامها حيفا في سهمها ، تحاج الأخَر بهذه الحجة ـ وتَكُفُّها عن اعتدائها ، حرصا على منافعها الخاصة ، وحفظا للموازنة العامة ـ فتبقى البلاد الايرانية سالمة من شرها ، فلا قتال ولا جدال .

فعلى العلماء العظام أن يجمعوا أمرهم على خلع هذا (الحارية) صيانة لحوزة الاسلام ، وحفظا لحقوق الأنام (ولا علاج سوى الخلع) .

ولو لاحظ الانسان الفظائع التي تكبدتها طبقات الأمة الايرانية من هذه الحكومة القاسية الخرقى ، وما جلبت عليها من الهلاك والدمار ، وأمعن النظر في العساكر، وسوء أحوالها، وان كُلا منهم يجهد نفسه في الأعمال الشاقة طول يومه لأن ينال كسوة لسَدِّ رمقه ـ وتأمل اضطراب أحوال الأمراء ، وشدة قلقهم في حياتهم خوفا من استلاب أموالهم ، وخشية من إراقة دمائهم ، ثم نظر إلى نفوذ كلمة العلماء في النفوس كافة ، وانقياد العامة لهم جميعا ، لحكم بأن خلع الشاه عن كرسي جنونه أسهل من خلع النعال .

إن البواعث الدينية قد قضت ، وإن الدواعي الدنيوية قد حتمت ، وإنّ النفوس قد هاجت من مضض الجور ومرارة الضنك ، واستعدت . فإذا صدع أحبار الأمة بالحق لخلعه الناس ، ولا يُناطح فيه عنزان ، ولا تراق في نزعه عن الملك محجمة[١٥٩] دم .

ولربما يحسب الجاهل أن الخلع وإن كان سهلا ، يوجب الفوضى ، ويقضي بالهرج والمرج (لا ولا) إن الايرانيين لا يعصون للعلماء أمرا ، خصوصا لو علموا أن الغرض حفظ حوزة الاسلام وصيانة بلاد المسلمين عن أطماع الأجانب .

وفي كل بلد طائفة من العلماء قد اتخذهم الناس ملاذاً في الدين والدنيا ـ فإذا عزم أحبار العتبات المقدسة (سيد الطائفة وشيخ العصابة وفقيه القوم) على إنقاذ الاسلام من شر جنون الشاه ، وزندقة وزيره

(١٥٩) محجمة ـ بكسر الميم وتسكين الحاء وفتح الجيم ، أو محجم : قارورة يجمع فيها دم الحجامة .

فليُعْلِموا علماء الأقطار والمتدينين من أمراء البلاد ، حتى يبلغوا العامة أوامرهم السامية وأحكامهم الالهية ـ ويعلم كل أن الاسلام وحوزته في خطر عظيم . ولا يمكن رفع الخطر إلا بخلع الشاه ، وتبديل هذه الحكومة القاسية المارقة ، بدولة عادلة شرعية ـ وبعد هذا فليأمروا قواد الجيوش وأمراء العساكر أن يختاروا للملك من أبناء الشاه وأخوته عفيفا ، دَيِّنا ، مقداما ، يرضي به رؤساء الدين ، ولا تنفر منه قلوب المؤمنين . ويحلف في محضر علماء طهران على مشهد من الناس أن لا يميل إذا تولى الملك عن صراط الحق في أحكامه ـ ولا يحيد عن سبيل الشرع في الجبايات والجنايات ، وما يتعلق بأحوال الرعية ومعاملاتها ـ وأن لا يتصرف في بيت المال (أعني الخزانة) إلا بما حكم الله به في كتابه وبيَّنه أئمة الدين ، ومضى عليه أحبار الأمة ـ وأن لا يعقد أمرا ، ولا يحل عقدة ، إلا برأي العلماء العاملين ومشورة العارفين بالسياسة الالهية من أفاضل الأمة وأبرارها ـ حتى يكون (وهو على كرسي الملك) خادما للشريعة المحمدية ومنفذا لأحكامها ـ فلو صدر الحكم من الأحبار العظام بخلع الشاه على هذا النمط المحكم ، وبهذه الطريقة السديدة ، لوقع الخلع لا محالة ، بلا قلق ، ولا اختلال ، وأمنت البلاد من شر الأجانب ، وصارت حوزة الدين حريزة ، وكلمة الإسلام عزيزة ، وخلص الناس من إجحاف المارقين واعتساف الضالين ـ وبدت طليعة دولة محمد وآله (عليهم الصلاة والسلام) على دعامة القسط والعدل .

ولئن فرطوا في هذه الفريضة ، وتراخوا عن خلعه ، وفاتتهم هذه الفرصة ، لوقع الأمر ، وحلت الداهية ، وتبددت حوزة الاسلام شذر مذر . وليس يومئذ المفر (هذا هو الحق اليقين) لقد أغار الكفر والغواية على محتد الرشد والهداية ـ إمَّا الحمية وإمَّا الدنية ـ وانما الفوز بقوة الايمان والخيبة في ضعف الجنان ـ والقنوط من عون المَلِك الديان ـ ونحن نجل العلماء الربانيين عن هذه الوصمة .

هذه حجتنا عند الله على الناس إذا حلت القارعة ، وانقضت الداهية ، وظهر الكفر على الاسلام ، وزاغت عن الحق قلوب الأنام .

هذه حجة للذين لا يخشون في الحق لومة اللائمين ، وفِرْيَة المارقين على الذين يقعدون عن أمر الله ، ولا يذبون عن دينه القيِّم وهم قادرون .

حجة قائمة لا يأتي عليها مر الدهور ـ وبينة ثابتة لا يطمسها كَرُّ

العصور .

(ولقد أنذرنا فهل من مدَّكر) هذا هو البلاغ المبين ـ والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

كتاب تذكار العالم الاسلامي

[ظهرت هذه المقالة بمجلة « ضياء الخافقين » في عدد يوليو (تموز) ١٨٩٢ . وهي ـ على قصرها ـ آخر ما نشر للأفغاني من مقالات في لندن ، وربما في غيرها . وقد وقعها باسم « جمال الدين الحسينى الأفغاني »]

شموس الحقائق تشرق على النفوس كافة ، ولا تحاكيها إلا القرائح الصافية عن أكدار الأهواء ـ إن العلامة (ميسمر) ذاك الموحد الكامل قد ألف في معالم الديانة الاسلامية ، وشعائر الشريعة المحمدية ، كتابا جليلا بين فيه بفصيح عباراته وبليغ معانيه حِكَما بالغة تبهر بصائر أرباب الوجدان ، وتبتهج بها قلوب ذوي العرفان ، ويذعن الجاحد بسمو مقامها وحسن نظامها قسرا عما فطرت عليه جبلته من الجحود والنكران . فتسابقت أقلام فضلاء الافرنج إلى تقريظ ذاك الكتاب الجليل . وأسهبت الجرائد في الثناء عليه بما يليق به ويحق له . وكانت الجرائد الاسلامية أولى بهذا وأحرى ، لأن هذا الموحد الكامل هو الذي قام وحده أمام الأمم الافرنجية منذ عهد قديم وهو يدافع عن الديانة الاسلامية بحجج قويمة ، ويعرض محاسنها الفائقة وحكمها البالغة على فلاسفة الغرب ببيانات شافية (مسامرات الآستانة على ما أقوله برهان قاطع . وتذكار العالم الاسلامي لدفع ظلمات الشبه نور ساطع) ولا ريب أن آية الايمان وسياج القرآن خليفة عصره الأعظم سيشكر هذا الفاضل قياما بواجب الحق وقضاءً لفريضة الدين عن الاسلام وأهله جميعا . وشكره على الله تعالى .

۲

کتاب

تتمة البيان في تاريخ الأفغان

في عام ١٩٠١ صدر بالقاهرة كتاب صغير للأفغاني بهذا العنوان . وجاء على صدر غلافه أنه « اعتنى بتصحيحه وطبعه على نفقته علي يوسف الكريدلي ، صاحب ومحرر جريدة العَلَم العثماني » .

وقد صدّر الكريدلي الكتاب بصورة للأمير عبد الرحمن خان أمير أفغانستان في ذلك الوقت . وأهدى إليه الكتاب ، أو ـ على حد تعبيره ـ « هذا المُؤلَّف النفيس الذي تضمن تاريخ بلادك ، وما شيدته فيها من آثار طريفك وتلادك » ثم كتب الكريدلي مقدمة للكتاب جاء فيها ـ بعد مدح طويل للأمير وولي عهده ابنه حبيب الله خان :

« ولما كانت هذه الأمة الإسلامية الجليلة (أفغانستان) ، البالغ عددها بوجه التقريب ستة ملايين من النفوس ، تجمعنا وإياها الرابطة الدينية ، والنفس ميالة بحكم معتقدها إلى الوقوف على فضائل الأمة المحمدية حيثما أقامت وأينما حلت ، فقد تجشمت الأتعاب ، وتصفحت وجوه الكتب ، وقلبت الأسفار ، مدققا ، للوقوف على شيء من تاريخ تلك الأمة العزيزة ، حتى أدركني الملل ، وكدت أقطع حبال الأمل . ثم وقفت على كتاب جليل في هذا المعنى ، جمع فأوعى ، يسمى « تتمة البيان في تاريخ الأفغان » لمهبط أسرار الحكمة ، وفيلسوف الإسلام والمسلمين ، السيد جمال الدين الأفغاني ، الشهير ، رحمه الله رحمة واسعة ، فاستخرت الله جل شانه ، وعلا قدره ، في طبعه ، وضم شمله ، وجمعه بعد الشتات ، خوفا من الضياع والفوات . وما ذلك إلّا لأمرين جليلين ، وبالاعتبار جديرين ، أحدهما خدمة العلوم والمعارف ، وإظهار ما لتلك الأمة الإسلامية العظيمة من الفضائل وعلو الهمة ، وثانيهما تخليد ذكرى فضيلة المؤلف ، أسكنه الله فراديس الجنان بالفضل والرحمة »

من الواضح في هذه الفقرة أن علي الكريدلي عثر على نسخة نادرة ـ وقتها ـ من كتاب الأفغاني ، وأن هذه النسخة كانت مطبوعة لا مخطوطة . وبالرجوع إلى ما تبقى من أعداد جريدة « مصر » في دار الكتب المصرية أمكن التوصل ـ بضربة حظ ـ إلى إشارة إلى هذا الكتاب الذي أشار إليه محمد رشيد رضا ، وهو يجاهد لجمع تراث أستاذه وإعادة نشره بمجلته « المنار » . ففي العدد ٣٨

من « مصر » في ٩ ينـايـر ١٨٧٩ (ص ٣) جاء بعنـوان « البيـان في الانجليز والأفغـان » خبر عن الوعد بإصدار مقالة الأفغاني المعروفة بهذا العنوان في كتاب ، « مشفوعة ـ على حد قول الخبر ـ بمقالة حاكية عن تاريخ الأفغانيين وأحـوالهم . وقـد وَرَدَت إلينـا هذه المقـالة في أجزاء تكوِّن سفْرا غير صغير ، مشتملة على مقـدمـة وعـدة فصـول ... فشرعنـا في طبعها عَلى شكل جميل . وستصدر عما قليل في كتاب يقارب عدد صفحاته المائة ... وهذا فهرست ذلك الكتاب مختصرا :

العلة الحقيقية لسعادة الانسان . البيان في الانجليز والأفغان . تتمة البيان في تاريخ الأفغان .

ويمضي الخبر ـ كما نشرته « مصر » ـ فيضيف هذه العبارة :

« وقـد رأينـا أن نثبت الفصـل الأول منـه لقصره ، ودلالتـه على تحقيق أستاذنا . وهذا نصه :... »

يلي ذلك نص الفصل الأول من « تتمة البيان في تاريخ الأفغان » . وهو مطابق لذات الفصل في طبعة الكريدلي ، أي الطبعة الثانية للكتاب . ولكن أهم ما في هذا الخبر أنه يؤكد أن للكتاب طبعة أولى ، وأنه صدر أثناء وجود الأفغاني بمصر ، ثم اختفت نسخـه بعـد ذلك ، ولا سيمـا عقب نفي الرجـل وإحتلال الانجليز لمصر . ولم يكن من السهل بالطبع أن يظل الكتاب متداولاً ، أو يعاد طبعـه مشتملا على ذلك المقال الحاد الذي كتبه الأفغاني بعنوان « البيان في الانجليز والأفغان » ولهذا السبب ـ في الغالب ـ تعذر على الكريدلي أن يضمه إلى طبعته ، لا لحدته فحسب ، وإنما لأن الانجلز كانوا يحتلون مصر وقتها ، فضلا عن أن الخديو توفيق ـ الذي أمر بطرد الأفغاني ـ كان قد مات قبل عشر سنين من ذلك التاريخ .

ومعنى هذا أن الكـريـدلي أسقـط من طبعتـه للكتاب مقالتين ، الأولى هي « العلة الحقيقيـة لسعـادة الإنسـان » والأخـرى هي « البيـان في الانجليز والأفغان » التي اختفى نصها العربي بعدها ، واضطررنا إلى نقلها عن الترجمة الانجليزية كما مرَّ بنا . ومع ذلك فقد أدى الكريدلي خدمة كبيرة ـ بعمله هذا ـ لتراث الأفغاني .

مقدمة المؤلف

لَهَجَتْ الجرائد في هذه الأيام بذكر أحوال الأمة الأفغانية المعروفة بعزّة النفس وشدّة البأس وعلو الهمة ، التي لم تسمح نفوسها بأن تستظل بظل العجز ، ظل المكر والحيل والخداع القاضي على المستظلين به بالذل والهوان ، ولم ترض الدخول تحت حماية الحضجر المبتلي بجوع البقر والاستسقاء الذي لم يشبعه ابتلاع مائتي مليون من الناس ، ولم تَرْوِه مياه التمس والقنج ، بل فغر فاه ليبتلع بقية العالم ويجرع مياه النيل ونهرَ جيحون(١٦٠) . وقادها شرف النفس لاختيار الموت الفاضل على الحياة الدنيئة ، تحت سطوة أجنبيين ، وإن إقترنت برغد العيش وطيب المطعم والمشرب ، فقام اميرها مستشيراً وزراءه الذين هم على أخلاقه ، فاجتمعت آراؤهم على إرغامها برد سفارتها لما عهد فيها من نقض العهود والمواثيق والتهاون برعاية الذمم ، كما ارغمها آباؤهم في الأزمنة الخالية ، حيث فتكوا برجالها وصرعوهم بحد سيوفهم . وهاهي مصارعهم تشهد بذلك إلى الآن ، فحدا بنا ذلك إلى ذكر مجمل أحوالها السابقة واللاحقة ، وعاداتها ، وأخلاقها ، ونمط حكومتها وطرز بلادها . وذلك في فصول .

---

(١٦٠) يشير المؤلف رحمه الله بقوله هذا الى دولة انكلترا التي لم تصل إلى ما وصلت إليه من القوة الهائلة والمكانة الرفيعة إلا بجد رجالها واجتهادهم وخدمتهم لها بكل امانة وإخلاص وحبذا لو نهض رجال الحكومات الاسلامية الجليلة وفقهم الله جميعا إلى ما فيه الخير والصواب من رقدة الكسل والخمول ، واستيقظوا من نومهم ، وخدموا امتهم . وبلادهم ، بجد واجتهاد وصدق وامانة واخلاص حقيقي (كما يفعل الانكليز وغيرهم من رجال الحكومات الغربية) لتسود امتهم ويرتفع شان بلادهم. حقق الله الآمال ووفق امراء الاسلام وملوكهم إلى صالح الاعمال .

(هامش ناشر الطبعة الثانية)

الفصل الأول

في إسم هذه الأمة

إن الفارسيين يسمونهم بأفغان ويعللون ذلك بأنهم حينما أسرهم (بخت نصر) كان لهم أنين وحنين . والأنين يسمى بالفارسية « أفغان » ، فأطلق عليهم هذا الإسم من ذلك الوقت ، وقيل إن أفغان اسم الحفيد (شاؤول) وهو جدّ الأفغانيين ، فسموا باسم جدّهم ، وعوام الفرس يطلقون عليهم اسم «أوغان» ، وهو قريب من الأول . والهنود يسمونهم «بتان» ، وبعض قبائل الأفغانيين كالمقيمين «بقندهار» و «قزن» يسمون أنفسهم (بشتو) و (بشتان) بالباء الفارسية فيهما ، وبعضهم كساكني «خوريست» و «كورم» و «باجور» يسمون أنفسهم (بغتو) و (بغتان) بالباء الفارسية فيهما . ومن دقق النظر في تقارب هذه الألفاظ يعلم أنها من أصل واحد ، وأن لفظ «بغتان» و «أوغان» و «بتان» محرّف عن (بغتان) ، و «بغتان» ، و «بشتان» يصح أن يكونا مأخوذين من «باشتان» وهي قرية من قرى (نيسابور) ، أو يكونا مأخوذين من «بشت» اسم مدينة من مدن خراسان ، ثم ركب مع الألف والنون الدالتين على الجمع في لغة فارس ، على احتمال أن كان لهم بهما إقامة ثم استمر الأطلاق بعد مبارحتهما . والواو في (بشتو) و (بغتو) المحرّف عنه للدلالة على النسبة كالياء في لغة العرب ، وحذفت مع الجمع تخفيفاً ، ويحتمل أن يكونا مأخوذين من (بشيت) اسم قرية من قرى فلسطين ، على احتمال كونهم من بني اسرائيل كما سنشير إليه .

الفصل الثاني

في نسب هذه الأمة

تتألف هذه الأمة من قبائل متعددة (كغلجائي) و (عبدل) و (كاكر) و (دَرْبرى) و (يوسف زائي) و (مهند) و (أفريدي) و (بنكش) وغيرها من القبائل التي تسمت بأسماء أماكنها (كخوستي) و (كرمي) و

(باجوري) . وكل قبيلة تحتوي على عمائر[١٦١] مختلفة ، فمثلاً (الغلجآئي) تشتمل على (هتك) و (توخي) و (سليمان خيل) و (أوربا خيل) وغيرها ، و (عبدل) تتركب من (بار كزائي) و (علي كوزائي) و (علي زائي) و (باميزائي) ، وكل عمارة من هذه العمائر تتضمن بطوناً . وبطونها تتضمن أفخاذاً . ولسنا الآن بصدد بيان أسماء البطون والأفخاذ وما يختص بكل منها لضيق المقام . وتجتمع هذه الفروع في أصلٍ واحدٍ يسمى (بشتو) أو «بشتان» وقد اختلف أرباب التواريخ في منبت هذا الأصل . فقال بعضهم إنهم من طائفة الخزر كانوا يسكنون بسواحل بحر (كاسبتان) وفي (باب الأبواب) و (الشروانات) وكانوا يغيرون على بلاد إيران وينهبون ممالكهم . ثم نقلهم بعض الملوك إلى شرقي بلاد خراسان في زمن غير معلوم . ونسبه بعض من لا خبرة له بالتواريخ إلى الأمير (تيمور الكوركان) . وضعفه ظاهر إذ الأفغانيون في أماكنهم هذه من قبل زمان تيمور بقرون . وقال بعضهم إنهم من أولاد الضحاك الذي اشتهر عنه في (ميثولوجيا) فارس بأنه كان له سَلْعتان بكتفيه يوهم أنهما ثعبانان . وقال بعضهم أنهم من الأشوريين الكلدانيين حتى إن بعض سياح الأفرنج إدعى أنه يوجد في اللغة الأفغانية بعض من الألفاظ الكلدانية . وقال بعضهم إن هذه الطائفة التي ملأت الجبال الواقعة بين نهر (أتك) و (خراسان) أعني طائفة الأفغان من نسل الأقباط المصريين الذين كانوا مع (سوزستريس) حين افتتاحه البلاد الهندية . وقال بعضهم إنهم من أسباط بني إسرائيل وإن (بخت نصر) أسكنهم بعد قتل كثير منهم في الجبال المسماة (قوهستان غور) أو (غور) فقط . وقال إنهم سَمَّوْا مسكنهم الجديد بهذا الاسم تذكاراً للوادي الكائن بأرض الشام المسمى بغور ، وسموا ببختو الذي هو محرف عن (بختو) نسبةً إلى بخت نصر . فإن الواو في الفارسية كياء النسبة في العربية ، كما أشرنا إليه سالفاً . ثم تكاثر عددهم فتسلطوا على تلك الجهات . وكان بينهم وبين يهود البلاد العربية مراسلات . ولما دخلت يهود العرب في دين الاسلام بعثوا برجل منهم يسمى خالداً إلى بلاد الأفغان يدعونهم إلى الدخول في دين الإسلام ، فأرسل الأفغانيون جماعة من أمرائهم . وكان فيما بينهم

---

(١٦١) عشائر

رجلٌ يسمى قيساً ، يتصل نسبهُ إلى أسباط بني اسرائيل بسبع وأربعين واسطة ، وإلى ابراهيم بخمس وخمسين واسطة ، فقدمهم خالد الى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وصاروا مشمولين بعنايته . وخصّ قيساً بعواطفه الخاصة وسماه عبد الرشيد . ولقبه بالأمير . وقال (صلى الله عليه وسلم) انه حقيق بهذا اللقب لأنه من نسل سلاطين بني اسرائيل. وهؤلاء المرسلون قد وافقوا النبي (صلى الله عليه وسلم) في فتح مكة وظهرت عليهم آثار الجلادة في تلك الواقعة . ثم رجع قيس إلى بلاده مصحوباً برفقائه بعد أن دعا النبيّ (عليه الصلاة والسلام) له بالخير والبركة ، وأصحبه أيضاً بجماعة من أهل المدينة لتأييده في ترويج أمر الإسلام وإقامة مراسم الدين الحقيقي في جبال (غور) الواقعة في خراسان . وبعد وصول قيس إلى تلك الجهات أفرغ جهده في جلب قلوب أتباعه إلى دين الإسلام . وقد نال مقصده بدخولهم جميعاً في هذا الدين . وتوفي قيس في سنة ٤٠ من الهجرة عن سبع وثمانين سنة ، وخلّف ثلاثة أولاد ذكور ، وذهب بعضهم إلى أن نسبه يتصل إلى شاؤول . وله جميل ذكر إلى هذا الوقت في بلاد الأفغان ، حتى إن أمراءهم يجتهدون في إيصال نسبهم اليه . وللأفغانيين شجرة أنساب يعتمدونها إلى هذا العهد تؤيد هذا الأصل ، أعني أنهم من نسل أسباط بني اسرائيل ، إلا أنه لا يوجد أدنى مشابهة بين لسان (بشتو) وهو لسان الأفغانيين وبين اللسان العبري أصلاً . نعم ، إن اعتقادهم بكونهم من هذا الأصل مع بعد المسافة بين أراضيهم ومقر الاسرائيليين ووجود محل يسمى (بخيبر) في بلادهم ربما يوجب ظن البعض بصحة هذه الرواية . وقال بعضهم إنهم من طائفة الأرامنة كانوا ساكنين في (شروان) التي كانت تسمى سابقاً (البان) بالباء الفارسية ويؤيد ذلك أنّ الكنائس الواقعة في (قراباغ) المتاخمة لشيروان تسمى إلى هذا العهد (بقندسار) ويقال لكبير تلك الجهات (أغوانج) ومعنى أغوانج في لغتهم كبير الأغوان . وإن الأرامنة الساكنين في (كنجة) و (روان) و (نخجوان) و (كيلان) يفتخرون بهذا الإسم ، أعني (أغوان) ويدعون الأغوانية . فيحتمل أن يكون لفظ أفغان محرّفاً عن أغوان أو ألبان ، وأن يكون رئيس القندسار بعد انتقاله إلى مقامهم الآنيّ وإقامتهم بخطة قَنْدِهار سماها بهذا الإسم ، أعني قندسار ثم حرّف إلى قندهار . ويظهر من أطوارهم أنهم حين مهاجرتهم

من أوطانهم الأصليـة إلى مستوطناتهم الحالية كانوا متدينين بالديانة النصرانية ، ثم أسلموا فيما بعد . وقد يوجد فيهم إلى الآن آثار بعض عادات جدودهم كوضعهم ما يشبه شكل الصليب على أقراص خبزهم .

قول هذا البعض وإن لم يكن خالياً عن الصحة بالمرة، إلا أن تجويزه كون قندهار محرَّفاً عن قندسار يدل على قلة بضاعته في فن التاريخ، لأن قندهار من المدن القديمة الشهيرة المذكورة في (مهابران) كتاب ميثولوجيا الهنود. وقال بعضهم إن هذه الطائفة كانت موجودة بتلك الجبال من عهد قديم على امتيازها على غيرها من الطوائف حتى قال إنّها هي التي حاربت مع اسكنـدر الرومي بل كانت في زمن (كشتاسب) وكانت تابعة لولاية (سجستان) تحت حكم رستم المشهور. وكانت تدفع له في كل عام عشرة جلود من جلد البقر باسم الخراج، ثم جاهرته بالعصيان، وامتنعت عن دفع هذا الخراج الجسيم، إلا أنه استظهر عليها، وأرجعها الى طاعته. والحق أن هذه الأمـة من أصـل ايراني وأن لسانها مأخوذ من لسان (زنـدواستا) وهو اللسان الفارسي القديم، وله مشابهة تامة بالفارسية المستعملة الآن. وان متـأخـري المـؤرخـين كفرنسيس لنورمان وغيره يؤيدون هذا الرأي.

الفصل الثالث

في ابتداء سلطنتهم
وقيام زعيم منهم بأمر الملك

نشأت هذه الأمة على الجلادة والاقدام. فكانت أمة حربية لا تدين لسلطة الأجنبي عليها، حتى أنه في زمن محمود الغزنوي وجنكيز خان التتري وتيمور الكوركان، الذين تمّت لهم السلطة عليها، لم تكن تبعيتها لهم خالية من الخطر. وكذلك في عهد انقسام ممالكها بين سلاطين الهند وفارس. إذ كانت تتربص بملوكها الشر دائماً وتترقب الفرص لايقاد نار الفتنة. وقد تطاولت أيدي طائفة (الغلجائي) على معسكر محمود الغزنوي ونهبوه، وقد تسلطوا على مدينة (قزنة) زمنا وشكلت طائفة منهم سلطنة في (دهـلي) أيضاً. ولما استولى شاه عباس الكبير على بلدة «قندهار» دخلت طائفة الغلجائي و «العبدل» تحت طاعته. ثم لما جار عليهم الحاكم

المتولي من طرفه وعاملهم بالظلم، أرسلوا من طائفة العبدل رجلا يسمى (سدو) ليرفع الشكاية من الحاكم لحضرة الشاه. فلما وصل، وعرض الشكاية عليه تعجب الشاه من فصاحته. ولاسترضائه عزل ذلك الحاكم وولاه بدله، فأقام في منصبه بالعدالة وحسن السلوك، حتى جلب قلوب الأفغانيين إليه بحيث رأوا أنه من الواجب أن تكوّن حكومة الأفغان دائما في ذرية هذا الشخص. وبلغ منهم حسن الاعتقاد فيه الى حد لو قتل أحد من ذريته أحداً منهم لا يقاصونه. ولو سلّ أحد سيفاً على أحد من نسله كان عقابه القتل. وقد تكون من نسله فصيلة تسمى (سدوزائي) ومنها أحمد شاه على ما سنبيّنه. وفي زمن شاه سلطان حسين الذي هو آخر سلاطين الصفوية الايرانية، وقد جلس على كرسي الملك في سنة ١١٠٦، حصل العصيان من قبيلة (الغلجائي) القاطنة في مدينة (قندهار) وما يليها. وكلما اجتهدت رجال دولة الشاه في قمعهم لم تزدد نيران الفتنة إلا اشتعالا. فلما أعيتهم الحيل في أمر العصاة أرسلوا اليهم (جرجين خان الكرجي) الذي كان حاكما من طرف الشاه على (كرجستان) وكان قد أظهر العصيان على الشاه إلا أن دولة الشاه استظهرت عليه وقهرته. وبعد وقوعه في قبضتها لم يجد كفّارة لذنوبه سوى خلعه للدين المسيحي، ودخوله في الدين المحمدي. وكان معروفا بحسن التدبير وقوة الحزم وثبات الجأش. وجعلوه حاكما على قندهار.

ولما ظن الشاه أن لسلاطين الهند التيموريين يداً في إيقاد الفتنة أرسل مع جرجين المذكور نحو عشرين ألفاً من العساكر الايرانية وجماعة من الابطال وذوي الدراية والدربة من أهالي كرجستان احتياطاً لكف شر المداخلات الخارجية. فلما وصل هذا الخان بعساكره إلى ضواحي قندهار خرج العصاة وأظهروا الطاعة والانقياد إلا أنه رأى من الواجب عليه إظهار القساوة ومعاملتهم بالخشونة، ليذلل بذلك نفوسهم، فلم يَرَ من عزيز إلا وأذلّه، ولا من قوي إلا وأضعفه، ولا من أمير إلا وأسره، حتى ضاقت صدور القوم عن كتم ما أودعها هذا الوالي من الضجر والغضاضة. فبعثوا رسلا وسفراء إلى أصفهان كرسي دولة الشاه ليعرضوا أحوال الاهالي على مسامعه. وحين وصولهم الى أصفهان بذلوا مجهودهم لنيل ملاقاة الشاه لعرض شكواهم. وبعد أن أعيتهم الحيل لكثرة الحجاب والمناع (الذي هو أساس الظلم في البلاد الشرقية حيث

يوجب تطاول أيدي الولاة والمأمورين على حقوق الرعايا كما هو مشاهد الآن في جميع أقطار الشرق) حظوا بملاقاته مرة واحدة، وعرضوا عليه مظالمهم، وكان بمعيته بعض أحباء جرجين خان فألقى اليه أن شكوى هؤلاء العصاة شكوى الزور والبهتان يرومون التخلص من واليهم صاحب الضبط والربط ليعودوا الى مثل ما كانوا عليه. فلم يسمعوا من السلطان سوى العتاب فرجعوا الى بلادهم مصحوبين بالخيبة وبثوا خبر الواقعة في أقوامهم. وكان للوالي اطلاع على هذا الامر بواسطة رقبائه، فأضمر السوء، وأخذ ينتهز الفرص للايقاع بمن كان له مَدخلية في هذا التظلّم، خصوصا (ميرويس) المشهور بجلالة النسب، ومكانة الحسب، الذي كان أميراً لقبيلة كبيرة، محافظا على بلدة قندهار، ومعروفاً بين الناس بسعة الاخلاق، وفصاحة اللسان، ولين الجانب، وجودة القريحة. وكان ذا وقع في النفوس وتمكن في القلوب. فمد الوالي عليه يد التعدي بعد زمن وأرسله مسلسلاً الى مدينة أصفهان. وكتب الى اولياء الدولة ان الراحة والطمأنينة لا تستقران في البلاد إلا بحبس هذا الرجل، ومنعه من الرجوع الى قندهار، لأنه مصدر الفساد ومنشأ الفتن. وقد أخطأ جرجين خان في إرسال ميرويس الى اصفهان مع علمه بأن الامراء الشرقيين توطنت نفوسهم على الارتشاء، وأن بلوغ المقاصد ونيل المرام موقوفان على وجود الرشوة وعدمهما على عدمها. فانه بإرساله هذا قد مكّنه من إعطاء الرشوة لاولياء الدولة لينال منهم مرامه. فلم تمض مدة من وصول ميرويس الى اصفهان حتى اطلع على هيئة الحكومة وضعف عقل الشاه ونفاق أركان الدولة، وأولياء الامور. وتودد الى كثير من أعداء جرجين خان، واستمال قلوبهم اليه، حتى ساعدته الفرصة على مقابلة الشاه فبث اليه تفاصيل ما عنده من المطالب، وتمكن بحذقه وعذوبة منطقه من استمالة قلب الشاه اليه وتوسل بالرشوة الى جذب قلوب الامراء والكبراء. ولم يلبث أن انتظم في سلك اولياء الامور في دولة الشاه.

وكان يمكنه إذ ذاك الرجوع الى قندهار إلا أنه بعد اطلاعه على ضعف دولة ايران واختلال امورها تمكن من نفسه فكرٌ أعلى من هذا، وهو أنه يمكن أن يخلص بلاد الافغان بتمامها ويفصل حكومتها عن حكومة الشاه. وعلم أن مثل هذا الامر العظيم لا يصح الاستعجال فيه، فطلب من الشاه أن يرخص له في السفر للحج. فلما وصل الى مكة المكرمة رأى

من المناسب أن يأخذ بعض الفتاوى من علماء أهل السُنة بوجوب محاربة الشيعة ليدعو بذلك قومه الى حرب دولة الشاه التي هي دولة شيعية، ويجمع كلمتهم على ذلك. فتحصَّل على بعض فتاوى بذلك، وبعد قضاء فريضة الحج رجع الى أصفهان مُخفياً أمره مُظهراً للشاه غاية الاخلاص.

ومن غرائب الإتفاق أن وقعت في ذلك الوقت واقعة كانت من أحسن الوسائل لتنفيذ مقاصده . وهي أن رجلاً مجهول النسب من الأرامنة عالماً ببعض الألسن الشرقيـة تقـدمت له خدمات للدولة الروسية في الممالك العثمـانية فتوسل إلى أمبراطور الروس (بطرس الأكبر) في أن يجعله سفيراً لدى الشاه . فَلحُسْن خدمته اقترن طلبه بالقبول فبعثه الأمبراطور إلى إيـران سفيراً . وزاد في مكافأته أن أعفى جميع الأموال التجارية المتعلقة بهذا الرجل من رسوم الجمرك . فجمع هذا السفير كثيراً من تجار الأرمن ، وتوجه بهم إلى إيران . ولما قرب من حدودها شهر نفسه بأنه من أولاد سلاطين الأرمن . فاتخذ ميرويس دخول هذا السفير بهذه الكيفية أحسن وسيلة لنيل مقاصده . وذلك أنه أخذ يتكلم في المجامع والمحافل سراً وعلانيةً ، بأن النصارى يريدون أن ينزعوا كرجستان وأرمنستنان من أيـدي دولة الشاه . ولابد أن يكون جرجين خان حاكم قندهار هو الواسطة الفعالة في ذلك . ولقرب عهد جرجين خان بالإسلام أخذ هذا الكلام من النفوس موقعاً ، وغلب على ظن أولياء الدولة صدقه ، فراموا قهر جرجين خان ، إلّا أنه لقوة عضده وتمكنه في قندهار ، تخوفوا من عصيـانه عليهم ، فأرجعوا ميرويس إلى بلاده حتى إذا تحرك وجرجين خان للعصيـان قاومه للعداوة السابقة بينهما (أنظر الى ضعف الرأي واضطراب فكر الشرقيين إلى يومنا هذا)

ولما رجع ميرويس إلى قندهار اشتد غضب جرجين خان وأراد أن يتخذ وسيلة لهلاكه فأرسل اليه يتحكم عليه في أن يبعث بإبنته إلى ابنه . وإذ رأى ميرويس أن هذا الطلب على وجه قهريّ وأن إذعانه له يحط من قدره جَمَـعَ الأفغانيين ، وحدثهم القصة ، فاغتاظوا لذلك وحثوه على المقاومة والمدافعة عن شرفه فامتلأ لذلك سروراً ، لكنه أمرهم بالصبر والتأني ، وقال : « الأولى أن نقتل الأسد في النوم إلا أنه يلزمكم الثبات على ما أنتم عليه واعتمدوا عليّ فاني سأنتقم من العدو » فاطمأنوا وحلفوا له بالخبز والملح والسيف والقرآن على معاضدته والقيام بطاعته وقالوا : « ومن رجع

عن ذلك فزوجته طالق بالثلاث »

وكان من خادمات ميرويس المتربيات في بيته بنتٌ جميلة أرسلها إلى جرجين خان ليتزوجها إبنه باسم انها بنته . وأظهر غاية السرور والبشاشة وأنه غير حاقد على جرجين خان . فمحا بذلك ما في قلب جرجين ، وأزال أحقاده حتى حصل عنده كمال الإعتماد عليه . وبعد زمن هيأ ميرويس مأدبة فاخرة بحديقة خارج البلد دعا إليها جرجين خان وأتباعه . وكان شراب الجميع بتلك المأدبة كأس الموت وساقيه ميرويس (هكذا لا يليق بالأمراء والسلاطين إذا غدروا بشخص أو ظلموه أو أضاعوا حقه أن يصافوه ويعتمدوا عليه خصوصاً في مهمات أمورهم . فان الحقد والعداوة اذا قرعت قلباً قلّ ما زايلته) . ولبس ميرويس لباس جرجين خان وتبعته من الأفغان ألسة تبعته ، ودخلوا البلد بعد المغرب ، وهجموا على مستحفظي القلعة على حين غفلة ، ولحق بهم جماعة من الأفغانيين كان قد أعدهم كميناً قرب المدينة وإنضم إليه أيضا سائر الأفغانيين الساكنين فيها فاستأصلوا جميع المحافظين إلّا من فرّ . واستولوا على القلعة ونادوا : « من لم يأو جندياً من جند جرجين فهو في أمان » . وكان هناك ستماية جنديّ أرسلهم جرجين لتأديب بعض القبائل في بعض نواحي الولاية فقدموا إلى قندهار بالغنائم الوافرة بعد تلك الواقعة فقوبلوا بالمدافع والبنادق وشجعان الأفغانيين فاطلعوا على حقيقة الأمر ، وقاوموا مهاجميهم . فخرج إليهم ميرويس بخمسة آلاف ، وثبتت أقدامهم أمام عساكره ثلاثة أيام أظهروا فيها من الجلادة والبسالة ما استوجب الثناء عليهم ، ثم انهزموا ، إلّا أنهم خلصوا أنفسهم ، ونجوا إلى أرض خراسان ، فأخبروا بالواقعة ، فازدادت بذلك دهشة الإيرانيين من الأفغانيين .

ولما خلا جوّ قندهار من المعارضين بعث ميرويس إلى رؤساء القبائل الأفغانية ، فحضروا ، ثم قام فيهم خطيباً يبين فضائل الحرّية ومزاياها ، وشدائد العبودية وبلاياها ، ثم قال : « إن وازرتموني واتفقتم معي ، فسنخلص أعناقنا من غلّ الذلّ ، وننشر أعلام العز والحرّية ، ونتملص من سلطة الإيرانيين الشيعيين » ثم أبرز ما عنده من الفتاوي الحاكمة بقتال الشيعة التي سبق أخذها من علماء مكة . وأذن فيهم قائلاً : « إلّا من رجح جانب الإيرانيين ، واختار أن يكون في ربقة عبوديتهم فليقطع

الأمل عن أن يساكننا في ديارنا . إذ لا يمكن له معاشرتنا ويستحيل أن ينال مودّتنا ومصافاتنا » فوافقه جميع الأمراء . وأكدوا الموافقة بالإيمان (هكذا ، هكذا ، أولو الفضيلة والحزم ، يفدون بأرواحهم ويخاطرون بأنفسهم لتحرير أمتهم ، وتخليصها من ربقة الأسر والذلّ ، ولا يطلبون لذلك جزاءً سوى تخليد الذكر الجميل ، بخلاف أرباب النفوس الدنيئة والهمم المنحطة المنهمكين في الشهوات فإنهم يبيعون أممهم وأوطانهم للأجانب بأبخس الأثمان)

ولما بلغ خبر إتفاق الأفغانيين كرسي دولة الشاه ، فعوضاً عن أن يرسل عسكراً جرّاراً لتأديب العصاة وتقرير السلم ، أرسل (محمد جامي خان) لتهديد ميرويس ومن اتفق معه . فلما وصل هذا السفير إلى قندهار أخذ يبين عظمة دولة إيران وقوتها وقدرتها التامة على تذليل من ناوأها وينذر ميرويس بسوء عاقبة عمله هذا . فأجابه ميرويس قائلاً : « هل تظن أنه لا يوجد العقل إلاّ في رؤوس المترفين وأرباب النعم ولا يوجد في أهالي جبال أفغانستان ؟ ولو أن في إمكان سلطانك قهري وغلبتي ما كان له من حاجة لإرسالك لتتكلم بهذه الكلمات التي لا طائل تحتها » ثم أمر بحبسه . ومع ذلك لم تنته دولة الشاه من نوم الغفلة ، حيث بعثت بسفير آخر يسمى (محمد خان) حاكم هرات بعد ما بلغها حبس السفير الأول وقد كان السفير الثاني من أحباء ميرويس ومصاحبه في سفر الحج . ولما وصل إلى قندهار قال له ميرويس : « لولا سابق المحبة والصحبة لعاقبتك عقاب المذنبين . ولكن لابدّ أن تعلم أن الرجال الأفغانيين لا يعودون إلى تحمل نير العبودية ، بعد ما تخصلوا منه وأن الأسود التي قطعت السلاسل لا تقيد بها ، وأن السيوف المسلولة لا تغمد ، وأن ملككم سينكبْ ويغلب ودولتكم ستنهب وتسلب » ثم أمر بقيده .

ولما رأى أولياء الدولة أن لا فائدة في إرسال الرسل ، ولا مفرّ من المحاربة ، وجّهوا الأوامر لحكام خراسان أن يجيّشوا جيوشهم ، ويهجموا على الأفغانيين . وبعد إنهزامات متتالية للعساكر الإيرانيين تحقق لديهم أن عساكر خراسان وحدها لا تكفي لقمع الأفغانيين ، فأعدوا جيشاً كبيراً وجعلوا قيادته بيد (خسرو خان) ابن أخ جرجين خان الذي لم يكن في الجلادة والرشد أقل من عمه . وانما فوَّضوا قيادته إليه ليكون حب الإنتقام لعمه موجباً لزيادة إقدامه وتحمسه (هكذا لا

تفيد المماطلة والإهمال سوى الوقوع في الشقاءِ وعسر التخلص منه) .
فتقابل خسرو خان مع ميرويس واشتعلت نيران الحرب بينهما ، فانهزم ميرويس ، وحاصر خسرو خان مدينة قندهار فطلب محافظوها الأفغانيون من خسرو خان أن يسلموا له المدينة على شرط أن يؤمنهم على حياتهم فلم يرض بهذا الشرط . فلما علموا أن لا مفرّ من الموت أخذوا أهبة الدفاع . وكانوا كل يوم يهاجمون محاصريهم ، وميرويس بعد جمع عساكره المتفرقة شرع في الهجوم عليهم من الخارج ، حتى نفدت ذخائر ميرويس خان فاضطر لترك المحاصرة والإشتغال بمدافعة ميرويس ، إلى أن قتل . ولم ينجُ من عساكره الإيرانية التي كان مقدارها خمسة وعشرين ألفاً سوى خمسمائة شخص (تلك عاقبة العُجْب والغرور)

ثم أرسل الشاه جيشاً آخر يقوده (محمد رستم خان) فانهزم أيضاً وتمت السلطة لميرويس على ولاية قندهار بلا مزاحمٍ ولا مخاصمٍ . ثم توفي ميرويس عن ولدين لا يزيد سن أكبرهما عن ثماني عشرة سنة . ولهذا اختار الأفغانيون أن يخلفه في الحكومة أخوه (مير عبد الله) وكان لهذا الخليفة ميلٌ للصلح مع سلطنة إيران ، إلاّ أن آراء الأفغانيين كانت لا تساعده على هذا الميل ، بل عارضوه ، وقالوا : « إن لم تستطع أن تحذو حذوَ أخيك في المهاجمة فلا أقل من أن تمهل في أمر المصالحة » . ومع ذلك لم يسمع مقالتهم ، بل تشاور مع بعض أصحابه ، واستقر الرأي بينهم على أن يرسلوا معتمدين إلى دولة الشاه لعقد المصالحة بشروط ثلاثة : الأول أن تعفى ولاية قندهار من الخراج السلطاني ، الثاني أن لا يكون للدولة عساكر في تلك الولاية ، الثالث أن تكون الإمارة وراثة في ذرية مير عبد الله المذكور .

فلما أطلع على ذلك الأمراء من الأفغانيين اشتد غيظهم منه وانحرفت قلوبهم عنه وحقد أكبر ولدي ميرويس المسمى (محمود) الذي كان يظهر من ناصيته علائم النجابة والشهامة على عمه حيث تعدَّى على حقه . فاتفق مع اربعين شخصا من الافغانيين، ودخل بيت على حين غفلة ، وذبحه . وباطلاع الأفغانيين على ذلك ، أقاموه حاكماً على أنفسهم ولقبوه بشاه قندهار .

وفي تلك الأوقات بعينها قام (إزاد خان العبدالي) من الأفغانيين واستولى على مدينة هرات ورفع لواء الإستقلال ، واتفق مع بعض طوائف

الازبك على نهب بلاد خراسان الداخلة تحت حكومة إيران . فبعثت حكومة الشاه بثلاثين ألفاً من العساكر تحت إمرة (صفي قلي خان) لتأديب إزادخان فاستقبلهم بجيوشه ، واقتتلوا من أول النهار إلى زوال الشمس . ولهول الواقعة إختلط الأمر على طُبْجية[١٦٢] الإيرانيين . فلم يميزوا بين جيوش الأفغان وجيوشهم فأخذوا يطلقون المدافع على عساكرهم الخيالة ، فظنت جيوش إيران أن هذه خدعة حربية . إذ كانوا يعلمون أن الأفغانيين لا توجد عندهم المدافع فانفصلت العساكر بعضهم عن بعض ، فاتخذ الأفغانيون ذلك فرصة للهجوم فهجموا ، وشتتوا شمل العساكر الإيرانية ، وبدّدوها وقتل صفي قلي خان مع ابنه وثمانية آلاف من العساكر الإيرانية ، وتركوا جميع الأثاثات والأدوات العسكرية ، وعشرين مدفعاً وتمت بذلك السلطة لأزادخان في ولاية هرات ، واستقرّت بها الحكومة البدالية ، كما استقرّت الحكومة الغلجائية في مدينة قندهار .

وفي أثناء هذه الفتن هجم الأكراد السنيون للنهب والغارة على بلاد إيران ، وتوغلوا فيها حتى وصلوا الى جدران أصفهان كرسي المملكة . وثارت أعراب مسقط ، واستولت على جزائر خليج فارس ، وعلى الفرض[١٦٣] الواقعة بساحل ذاك الخليج . فلما رأى محمود شاه قندهار إختلال أحوال السلطنة الإيرانية وضعف عقول أمرائها وتفرّق كلمتهم وتمكن النفاق من قلوبهم (كما هو الواقع الآن في أمراء الشرق) طمع في سلطنة الشاه ، وساق عساكره لحربه من طريق (كرمان) مع عدم وجود المياه والكلأ بذلك الطريق . فلما وصل إلى كرمان ، ولم يكن أهلها على إستعدادٍ حيث هاجمهم على غفلةٍ منهم ، سلموا له المدينة بدون حربٍ ولا منازعة . وحصل من عساكره أن أطالوا يد الظلم على الأهالي كما هو عادة المتغلبين من الأمم الشرقية بل الغربية . ثم صدر الأمر من شاه إيران إلى (لطف علي خان) الذي كان والياً في بندر عباس بمحاربة الأفغانيين وطردهم ، فتوجه إليهم ، ونازلهم . فلم تكن إلّا واقعة واحدة طرد فيها الأفغانيين من كرمان ، بحيث لم يستطيعوا الوقوف في نقطة من النقط حتى رجعوا إلى قندهار ، إلّا أن أهالي كرمان صاروا كالمستجير من الرمضاء بالنار ،

---

(١٦٢) طبجية أو طوبجية : ضاربو المدافع

(١٦٣) فرض ـ بضم الفاء وفتح الراء ـ جمع فرض : مشرب الماء من النهر أو البحر .

حيث نالهم من يد عساكر الشاه ما أوقع الإشتباه عندهم . (هل مصائب تغلب الأفغانيين أشدّ وأفظع أو مصائب مساعدة دولتهم ؟)

ولما علم لطف علي خان أن مير محمود سيعود كرة ثانية شرع في حشد العساكر وجمع الذخائر ، وأخذ أهبة الإحتياط في (شيراز) . ولدواع اقتضاها الحال إما لعدم الإنتظام أو حكم الزمان قد نشأ عن هذا وقوع الظلم بالرعية . إذ كانوا يصادرونهم في أموالهم ، ويسخرون دوابهم في الأعمال اللازمة وغير ذلك . فاتخذ أعداء لطف علي خان هذا الإختلال وسيلة للسعي في عزله ، فسعوا لدى الشاه فعزله عن رئاسة العساكر ، فتفرقوا ، وذهبوا من حيث جاءا (أنظر إلى الأدنياء الأخِسّاء خائني الوطن والأمة ، كيف أنهم لبعض أغراض شخصية وعداوات جزئية ، وللتشفي من شخص واحد ، قد تسببوا في تفريق العساكر التي كانت وقاية للأمة وحفاظاً للوطن ، وترتب على تفريقهم ما ترتب كما سنبينه)

وفي تلك الأوقات قد أغار العبدالية من الأفغانيين على غالب بلاد خراسان حتى كادوا يفتحون مدينة (مشهد) وهي طوس القديمة . وفي أثناء هذه الفتن والقلاقل وقعت زلزلة شديدة في مدينة (تبريز) وأصبح ثمانون ألفاً من الناس تحت التراب ، وحصل في الجوّ تكاثف حتى حجب ضياء الشمس ، فكانت لا تُرى إلاَّ كنقطة من نحاس أحمر ، فوقع في أوهام العامة أن هذه آثار الغضب الالهي ، ومقدمات نزول البلاء السماوي . وأخذوا يتحيلون لدفع القضاء بطرد الفاجرات وإزالة كثير من المنكرات . والمشايخ كانوا يطوفون في الأزقة ويدعون الناس للإستغفار . والمنجمون قد حكموا حكماً باتاً أنّ هذا علامة لخراب أصفهان . فوقعت العقول في وحشة ، والنفوس في حيرة ، وضعفت القلوب ، وتدانت لهم حتى كانت هذه الأمة الكبيرة واقفة على قدم الإستعداد للموت . وانقطعت آمالها من الحياة والنجاة . (تفطن وأنظر إلى مضار الإعتقادات الخرافية ، وما ينشأ عنها من ضعف النفس وسقوط الهمة وارتباط الأيدي عن العمل)

وفي سنة ١١٣٥ من الهجرة عاد مير محمود كرة ثانية من طريق كجستان إلى كرمان مع خمسة وعشرين ألفاً من عساكر الأفغان والبلوج(١٦٤) واستولى على كرمان بدون تعب إلا القلعة التي هي مقر

---

(١٦٤) البلوج او البلوش نسبة إلى بلوشستان .

الحكومة فإنه لم يتمكن من أخذها وتركها لمحافظيها على أن يأخذ منهم ألفين وخمسماية تومان (كل تومان يساوي نصف جنيه انجليزي) . وقد أيقن الأهالي ، وتجسم في مخيلتهم ، أن محموداً هذا هو غضب الله النازل على دولة إيران الموجب لخراب أصفهان ، كما أخبر به العلماء والمنجمون . ثم عطف محمود عنانه إلى مدينة (يزد) يريد افتتاحها ، فلم يقـدر ، فتركها ، وتوجه على خط مستقيم إلى مدينة أصفهان كرسي مملكـة الشـاه . فلمـا صار على مقربة من أصفهان أرسل إليه الشاه رسولين يرجوانه في كفِّ يد الإغارة والعودة إلى بلاده في نظير أن يعطيه خمسـة عشر ألف تومـان . فكانت هذه الرسالة دليلا عند محمود على استيلاء الضعف على الإيرانيين وتمكن الرعب من قلوبهم فلم يعبأ بهما وذهب إلى (كلتاد) « قرية على فرسخين من أصفهان » وعسكر عندها ، وحفـر حول عسـاكره خندقاً لعلمه بأن ستقع هناك محاربة بينه وبين عساكر الشاه . والتحق بعساكر محمود كثير من المجوس الذين على دين (زرتشت)[١٦٥] رجاء أن تسلط محمود يكون سبباً لتخليصهم من جور الشيعة . ولتسلط الوهم على الشاه جمع الأمراء والوزراء يشاورهم في الأمر فقال محمد قلي خان الذي كان وزيراً : « إن الأفغانيين وإن كان لهم جلادة وثبـات في الميـدان إلاّ أن ليس لهم قدرة على فتح القلاع . فالرأي أن نجعل عساكرنا في قلاع أصفهان وندافع عنها فإذا عجزوا عن فتحها تركوها ورجعوا إلى بلادهم كما فعلوا في كرمان ويزد » واستحسن الشـاه هذا الرأي ، فقام والي عربستان (خان أهواز) وتكلم بالحمية والحماسة قائلا : « هذه غاية الجبن والضعف . كيف نرضى أن محموداً يحاصر مدينة أصفهان بشرذمة قليلة من الأفغانيين وهي كرسي دولة شاه إيران ؟ فالرأي أن نبرز إليهم ونحاربهم حيث هم معسكرون » فتحرك عِرْق حميـة الشـاه ، وبعث بخمسـين ألفـاً مع عشرين مدفعاً لملاقاة محمود . ولما تلاقى الجمعان عند قرية كلتاد رتب كُلٌّ ميمنته ، وميسرته ، وقلبـه ، وركب محمود على فيل وأخذ يدور حول عساكره ويجول فيما بينهم ويذكرهم بالفخر والمجد اللذين اكتسبوهما في الحروب السابقة ، ويقول : « إن غلبتم عدوكم فمدينة أصفهان جزاء أتعابكم . وإن انهزمتم فلا مفرّ من الموت لبعد الشقة بينكم وبين بلادكم ، فتتجرعون سمّ الأجل

(١٦٥) زرتشت هو نفسه زرادشت نبي الإيرانيين القدماء .

بالذلّ والفضيحـة » . (وكـان بين معسكرهم ومدينة قندهار خمسون مرحلة مع انقطاع المواصلات بينهم وبين هذه المدينة وقتئذ)

ولم يكن عند الأفغانيين مدافع ، ولكن كان معهم مائة زنبورك (وهو شيء يشبه المدفع يحمل على الجمل ويطلق وهو فوقه) فأناخ الأفغانيون جمال الزنبورك وراء معسكرهم ، ثم ابتدأ الإيرانيون بالقتال فهجمت ميسرتهم على ميسرة الأفغـانيين ، فتقهقر الأفغانيون منكسرين فغنمت منهم بعض الغنائم . ثم هجمت ميمنة الإيرانيين على ميمنة الأفغانيين ، فتقهقرت ميمنة الأفغانيين ، بخدعة حربية ، فأغارت خيالة الإيران على عسكـرهـم . فلمـا دخلت الخيالة في المعسكر انشق عسكر الأفغان إلى فرقتين ، وأطلق الزنبورك على الخيالة ، فتساقطوا تساقط ورق الشجر في فصـل الخريف . وهجم وقتئذ (أمان الله خان) الأفغاني على مؤخرة العساكر الإيرانيين فقتل الطبجية ، وأخذ المدافع ، وأمر بإطلاقها على عساكر الشاه . فلم يمض إلاّ قليل زمن ، حتى انهزموا وتفرقوا ، وتركوا جميع لوازمهم غنيمة للأفغانيين . فلما وصل خبر الهزيمة إلى أصفهان اهتزت له القلوب ، واضطرب الشاه ، وجمع وزراءه للإستشارة . وقال « إن من الرأي أن نترك أصفهان ، ونأخذ الخزينة معنا ونشتغل بجمع العساكر الشاهانية ، ثم نهاجم الأفغانيين من خلفهم ونستأصلهم » . فقبل هذا الرأي عند محمد قلي خان الوزير ، ولم يقبله والي عربستان المـذكور لأمر سنشير إليه . وقال : « لا يليق بالسلطان أن يترك كرسي مملكته لهزيمة واحدة فإن هذا آية الضعف ، وموجب لنفرة قلوب الأهالي منـه » . فأخـذوا في تهيئة لوازم الدفاع والاستعداد للمحاصرة . وكان محمود وقتئذ متردداً في أمره حتى جاءه بواسطة جواسيسه (أتباع والي عربستـان) خبر استيلاء الرعب على قلوب الإيرانيين . فاطمأن وساق عسكره إلى (فرح آباد) واستولى عليها بلا محاربة لعدم وجود العسكر فيهـا . وبعد استيلائه عليها توجه للهجوم على محلة (جلفا) مسكن الأرامنة في أصفهان فاستولى عليها أيضاً . ونشأ عن استيلائه خسارة جسيمة لساكنيها .

ثم هجم على برج من أبراج مدينة أصفهان فدفع عنه بقوة البنادق والمدافع فتقهقر ووقع في نفسه أن هذا التقهقر ربما يوجب زوال الرعب من قلوب أهالي المدينة فيصعب الأمر في فتحها . فهجم في اليوم الثاني

مع الأبطال الأفغانيين على بعض الإستحكامات ، وأظهروا جلادة وشدة ، حتى كادت المدينة تفتح لولا مقاومة أحمد أغا أحد أغاوات الحريم . فإنه قاوم ببسالة . وجبر الأفغانيين على التقهقر ، فوقع الرعب في قلب محمود ، وأرسل يطلب المصالحة ، على شرط أن تكون حكومة قندهار وكرمان وخراسان وراثة في ذريته ، وأن يزوجه السلطان بابنته ، ويعطيه خمسين ألف تومان . ولكن لم تقبل هذه المطالب عند الشاه .

ولما سمع والي عربستان بذلك أرسل سراً إلى محمود رسولا يلومه على طلب المصالحة ، ويوصيه بالثبات ، ويعده بالظفر . وقال في رسالته : « إنني منكم مذهباً فاثبتوا ولا تخافوا » . ولما أحاط محمود علماً بفحوى الرسالة انتعش مرة ثانية ، ودبر تدابير أخرى ، وهي أن يخرب القرى والقصبات التي هي حول أصفهان ويجمع الذخائر منها لعساكره ويحرق ما بقى . وقد فعل . ففرّ أهالي القرى إلى المدينة لعدم وجود الأقوات عندهم . وكان الأمراء لجهلهم بحقيقة الحال يقبلونهم بكل مسرة لظنهم أنهم يزيدون في عدد المدافعين . ولم يخافوا من حصول القحط في المدينة لأنها لم تكن محصورة إلّا من جهةٍ واحدة . ثم هجم الأفغانيون من الجهة الأخرى ، واستولوا على أحد الاستحكامات فيها . وكان محافظو هذا الإستحكام من الكرج المنهمكين في شرب الخمر . ثم تجاوز الأفغانيون من قنطرة كانت هناك ، واستولوا على بعض نواحي المدينة . وفي ذلك الوقت سمع الأفغانيون بقدوم قوم إيرانيين ببعض ذخائر إلى المدينة فعارضوهم وانتهبوها منهم . وقبل أن يصلوا إلى معسكرهم خرج إليهم قوم من قرية صغيرة يقال لها (أصفهانك) واسترجعوها منهم ، وأسروا عم محمود وأخاه وابن عمه ، وقتلوهم . وكان الشاه أمر بعدم قتلهم لطلب محمود ذلك منه إلّا أن أمره لم يصل إلّا بعد القتل . فقتل محمود جميع من عنده من الأسراء الايرانيين عندما سمع بذلك، واخذ يتشبث باتمام لوازم الحصار ، وقطع طرق المواصلات . وفي تلك الحالة ألحَّ بعض أولياء الدولة على الشاه أن يسلم إله قيادة المدافعين . وتكفل بدفع الأفغانيين ، وطردهم من ضواحي أصفهان إلّا أن والي عربستان (خان أهواز) منع الشاهع من هذا بتمويهات وتدليسات ألقاها إليه .

ولما طالت مدة المحاصرة أخذت الأسعار ترتفع شيئاً فشيئاً . وظهرت علائم القحط في المدينة . ولم يجد الشاه وسيلة سوى أن أرسل

ولده (شاه طهماسب) ولي العهد سراً إلى سائر البلاد الإيرانية ، ليدعو الناس إلى حرب الأفغانيين وتخليص كرسي المملكة من أيديهم . فلم يتمكن من جمع كلمة الأهالي على القيام بتخليص أبيه . وكان كل يوم يشتدّ الكرب على أهل المدينة ويذهبون إلى الشاه ويلحون عليه في أن يخرج معهم للمحاربة ، كي يخلصوا أنفسهم من غائلة الجوع والقحط ، خصوصاً حين ما سمعوا أنه سيردُ إليهم ذخيرة . فإنهم اجتمعوا حول السراي السلطاني ، ونادوا على الشاه بالخروج إلى الحرب خوفاً من أن تقع هذه الذخيرة في أيدي الأفغانيين ، ويموت أهل البلد جوعاً. فأرسل إليهم الشاه يعدهم بالجواب في غدٍ . فلم ينصرفوا ، وأدمنوا على الطلب ، حتى أطلق عليهم بعض مستخدمي الحرم البنادق ليرهبهم . فانزجرت نفوس الأهالي من هذا العمل ، وتكدّرت خواطرهم . وكادوا أن يهجموا على السراي لولا خروج أحمد أغا السابق الذكر إليهم وإرضائه لهم . وبعد إنصرافهم جمع جماعة من أبطال العساكر وهجم بهم على الأفغانيين ، واشتدّت حملته عليهم حتى إستخلص بعض الإستحكامات من أيديهم ، إلّا أن عساكر العرب الذين كانوا تحت إمرة والي عربستان (خان أهواز) تقهقروا تعمداً ، فغضب أحمد أغا لذلك ، وأمر بإطلاق البنادق على الفرقة العربية من عساكره . فلما وقع النزاع بين العساكر ، واشتغل بعضهم ببعضٍ هجم الأفغانيون ، وهزموهم ، فذهب أحمد أغا إلى الشاه ، وقال له « إن خان أهواز هو الذي أوْجَب إنهزامنا في جميع المواقع ، لاتحاده مع محمود في المذهب . ولولا وجوده في معسكرنا لدفعنا الأفغانيين وهزمناهم من أول وقعة » . ولكن خان أهواز ألقى إلى الشاه مازيِّن له عزل أحمد أغا عن رئاسة المحافظين للقلعة فعزله فتناول السم ومات . وبموت أحمد أغا فرح الأفغانيون جداً ووقع الإضطراب والوجل في أهالي أصفهان ، فاضطر الشاه لأن يرسل رسولاً إلى محمود يطلب منه المصالحة على الشروط السابقة ، فأجاب محمود « بأن الشاه لا يملك الآن شيئاً حتى يعطيني إياه بل جميع ما في قبضته قد أصبح تحت يدي » .

وفي أثناء هذه الواقعة تحرّك الملك محمود حاكم سجستان بعشرة آلاف جندي لتخليص أصفهان . ولما بلغ هذا الخبر أهالي أصفهان قويت قلوبهم ، وتعلقوا بحبل الرجاء . وعند شعور مير محمود الأفغاني بذلك أرسل إليه « أن إرجع عن عزيمتك هذه ، ولك بلاد خراسان وسجستان

تحكمها أنت وذريتك على سبيل الإستقلال » . فصارت هذه الرشوة عَميً في بصر مروءتـه ، فعاد للإستيلاء على الممالك التي وعده بها محمود ، وانقطع الرجاء بعد ذلك من مدينة أصفهان وسدت طرق النجاة على أهلها وإزداد الغـلاء شيئـاً فشيئاً ، حتى وقع القحط ، وأخذ الناس في أكل الحيـوانات غير مأكولة اللحم ، كالبغال والحمير ثم القطط والكلاب ثم الموتى من الآدميين . ثم كان الناس يموتون في الطرق والأزقة من الجوع وامتلأ نهر (زاينده رود) من جثث الموتى حتى تغيرت مياهه . ولم يكن يستطيع أحد أن يشرب منه . فلما بلغ الحال إلى هذا الحدّ وذلك في حادي وعشرين اكتـوبر سنة ١٧٢٢ عيسوية[١٦٦] المقارنة لسنة ١١٥٣ هجرية خرج شاه سلطان حسـين من الحرم لابساً لباس الحداد . مع جميع أمرائه . وأخذ يدور في أزقة أصفهان ، وهو يبكي من المصائب التي نزلت في أيـام دولتـه على العبـاد والبـلاد ويقول : « إن كل ذلك من خيانة الناصحين وعدم ديانة المشيرين » . ويبين للناس أنه يريد أن يتنازل عن الملك والتـاج للأفغـانيـين . ولما شاهد الناس منه ذلك نسوا مصائبهم ومصائبه ، وأجروا سيل الدموع من أعينهم (هذا جزاء الغفلة وعدم التيقظ والإنهماك في الشهوات وإستخدام المخالفين في الجنس والمقاصد في المصالح المهمة خصوصاً في زمن الحرب) . وفي اليوم الثاني رقموا قرار التسليم وختم عليه جميع الأمراء والكبراء .

وفي الثالث والعشرين من الشهر المذكور خرج شاه سلطان حسين مع جميع العظماء وثلاثمائة من خيالة إيران وذهبوا إلى محمود في فرح آباد فلمـا دخلوا عليه في قصرها لم يتحرك من مجلسه إلى أن وصلوا وسط الديوان . ثم إن الشاه خلع ريشة الملك عن رأسه وقال لمحمود « يا ابني إن الله تعالى لم يرد أن أكون على كرسي إيران أزيد مما كنته وأنت الآن أحق به » فأجابه محمود : « إن الله يعطي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء » فغرز الريشة في عمامته ، ثم تصافيا وزوجه الشاه ببنته في ذلك المجلس . وفي اليوم الثاني دخل محمود مدينة أصفهان ، وأجرى السلام العام ، فقابله الشاه وجميع الأمراء وسلموا عليه بالسلطنة . ولما استولى محمـود على كرسي أصفهان اجتهد في تخليص الناس من جهد البلاء

(١٦٦) عيسوية : ميلادية

والقحط الذي حاق بهم ، وفي جبر الخواطر المنكسرة فمال الناس إليه وأبقى كل ذي منصب على منصبه ، إلّا أنه جعل كل واحد رجلًا أفغانياً ليتمرن الأفغانيون على الأعمال الدولية[١٦٧] ويحصل له الإطمئنان والثقة بالأعمال . وعاقب بالقتل كل من خان الشاه ودلّس عليه في الحرب إلا والي عربستان (خان أهواز) فإنه سلب جميع أمواله ، وفضحه أشنع فضيحة ولم يقتله كأنه عاهده على إبقاء روحه .

ثم أرسل أمان الله خان بستة آلاف جندي لفتح مدينة قزوين فسار إليها . وفي أثناء الطريق فتح مدينة (قاشان) و (قم) ودخل بعد ذلك مدينة قزوين بلا معارض ، ولا ممانع ، إلّا أن أهل قزوين كانوا أولي بأس وقوة ونفوس تأبى الضيم خصوصاً من مخالفهم في المذهب . فلما رأوا بعض تعدٍّ من الأفغانيين ، تجمعوا ، وهجموا على الأفغانيين من الأطراف . وعند وصولهم إلى أمام القلعة التي بها الحاكم خرج أمان الله خان لتسكين الثورة فجرح ، وانتهى الأمر بغلبة الأهالي ، وطرد الأفغانيين بعد قتل ألف شخص منهم وذلك في سنة ١١٣٦ . وفي أثناء سير الأفغانيين المنهزمين انفصل أشرف بن عم محمود عن أمان الله خان بثلاث مئة أفغاني ، وأخذ طريق قندهار . وبعد واقعة قزوين قام أهالي خنسار وسائر البلدان وعملوا بالأفغانيين مثل ما عمل أهل قزوين . واجتمع جميع الأفغانيين في أصفهان . ولما رأى مير محمود ذلك غلب عليه الجبن والخوف ، وتوهم أن أهالي أصفهان ربما يفعلون معه مثل ما فعل غيرهم بقومه فَتَحَيَّل لقتل جميع المستخدمين في الحكومة من الأمراء وبقايا العساكر المحافظين للقلاع والعساكر الذين بمعية شاه سلطان حسين ، وطرد جميع الرجال من المدينة ، حتى صارت مدينة أصفهان خراباً يباباً . ولما رأى أن سلطنته لا يصح قصرها على البنيان جلب إليها بعضاً من الأكراد السنين كانوا مقيمين في (درجزين). ولما اجتمع الاكراد وجاءه إمدادٌ من جهة قندهار وجه بعض العساكر لفتح (جلبايكان) و (خنسار) و (قاشان) ففتحوها . وأرسل نصر الله المجوسيّ الذي لحق به في كرمان لفتح مدينة شيراز وسائر المدن الواقعة على سواحل خليج فارس . ففتح جميع تلك البلاد إلّا شيراز فإنه جرح في محاصرتها ومات بذلك الجرح فأحيلت قيادة العساكر على (زبردست خان) الأفغاني .

(١٦٧) يقصد أعمال إدارة الدولة .

وبعد محاصرة مات الناس فيها من الجوع فتح البلد عنوة ودخلها ، وأمر بقتل جميع من كان محتكراً لأقوات في المدينة حتى أنه أتى ببعض المحتكرين وعلقه في مخزن بره[١٦٨] إلى أن مات جوعاً . ولما فتحت شيراز تجدّد لمحمود عزمٌ ونشأت فيه قوة فجمع ثلاثين ألفاً وتوجه بها إلى جانب (كوه كيلويه) الواقعة على نحو ثلاث درجات في جنوب أصفهان فتعرّضت له القبائل الحالة بطريقه إلى تلك البلاد ، وأخذوا ينهبون عساكره ويفتكون . واتفق أن وقع الموت في جيوشه لإختلاف الهواء ورداءة المناخ . فانفعلت لذلك نفسه ، ورجع إلى أصفهان خائباً ، ودخلها ليلاً . وكذلك وقعت له هزيمة عظمى في مدينة (كز) قتل فيها من عساكره جمعٌ كثيرٌ فتسبب عن هذه الحوادث نفور قلوب الأفغانيين منه ، فأجبروه على إرجاع أشرف من قندهار وجعله وليّ العهد . ثم غلب الوسواس على مير محمود فطلب العزلة والإشتغال بالرياضة ، وتصفية الباطن ، والإستمداد من عالم الغيب (وهذه عادة الشرقيين عند وقوعهم في الإرتباكات لخطيئآتهم يعدلون عن الأسباب الظاهرة التي أعدّها الله لنيل الغايات إلى الاستمداد من الأسرار الباطنية ، بترك اللحوم والإنزواء والإنعزال ، وهي عادة هندية وثنية فشت بين المسلمين في القرن الثاني عشر من الهجرة) .

ولما رجع من عالم الغيب الظاهر ، وخرج من الخلوة إلى الجلوس إزداد فيه الوسواس وسوء الظن ، حتى أنه لخبرٍ لا أصل له أمر بقتل تسعة وثلاثين من أولاد السلاطين الصفوية . وما زال به الوسواس حتى أورثه خبلاً وجنوناً . وقال (مُلّا على حزين) إنه بلغ به الجنون إلى درجة أن كان ينهش لحم نفسه بأسنانه . وفي أثناء جنونه سمع الأفغانيون بحركة شاه طهماسب وتهيئه للأغارة فاضطروا أن يُجْلسوا أشرف على كرسي السلطنة في حياة محمود . فأبى قبول السلطنة ما لم يقتلوا محموداً قصاصاً ، لأنه هو الذي قتل أباه مير عبد الله ، فقطعوا رأس محمود في سنة ١١٣٨ من الهجرة ، وقدّموها إليه ، فقبل السلطنة وأخذ بزمامها . وكان موت محمود عن سبع وعشرين سنة . وكانت مدة سلطنته ثلاث سنين .

ثم إن أشرف أخذَ يستقبح أعمال محمود التي صدرت منه في آخر

(١٦٨) بره : قمحه

عمـره ، ويبث التشنيع عليها في الملأ العام . ولتطييب نفوس الأهالي ، وإستمالة قلوبهم ، أخذ تاج الملك ووضعه على رجْل شاه سلطان حسين وألحّ عليه في لبسه . فلم يرض الشاه بذلك ، ورفَع التاج بيده ، ووضعه على رأس أشرف وقال : « إني أخترت العزلة على العزة » وزوجه ببنته الثانية . ثم أراد أشرف أن يخدع شاه طهماسب فكاتبه يدعوه للملاقاة مبيناً له « أنه قد وقع الهرج في بلاد إيران ، وتطاولت إليها يد الأعداء والأجنبيـين فلنجتمـع لنصلح ذات بيننا ونتعاضد على دفع العدو من البلاد » . وإذْ علم بذلك بعضٍ الأمراء الإيرانيين الذين كانوا في خدمة أشرف كتبوا إلى طهماسب محذّرين إياه من الإجتماع والإعتماد على قول أشرف . ولما استشعر أشرف بهذا أمَرَ بقتل بقية الأمراء الإيرانيين الذين تخلصوا من سيف مير محمود متعللاً بأنهم يراسلون عدوّه . وقبل موت مير محمود بقليل كان سلطان العثمانيين قد عقد معاهدة مع إمبراطور الروسية (بطرس الاكبر) على تقسيم الممالك الإيرانية التي لم تدخل في حوزة الأفغانيين ، وطرد الافغانيين من البلاد التي حازوها ، وتسليمها ليـد طهمـاسب ، إن وافق على هذه المعـاهـدة . ولما أخذ أشرف بزمام السلطنة أرسل سفيراً إلى قسطنطينية فتفاوض مع علمائها في هذا الشأن وقال : « لا يليق بالسلطان أن يعاهد ملكاً نصرانياً على إقتلاع ملك مسلم سنيّ » . فوافقه العلماء على ذلك إلّا أن الوزراء حاجُّوا العلماء وحجوهم حيث قالوا : « إن السلطان العثماني هو أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين ، وظلّ الله في الأرضين . ومن لم يكن له مطيعاً لأمره ، ولم يخطب بإسمـه ولم يعـط الخـراج ، فهو عدوّ للدين . والجهاد فيه أفضل من الجهاد في النصارى » . فسكت العلماء لهذا البرهان الناشيء عن هوى الأنفس ، ورجـع السفـير خائباً . وصدر الأمر لأحمد باشا الذي كان متسلطاً على (مراغه) و (قزوين) بسَوْق العساكر إلى أصفهان . ولما سمع أشرف بذلك أمر بحرق القرى . وجمع عساكره واستقبل العساكر العثمانية فتلاقى أولا مع ألفين من مقدمة جيوشهم على بعد خمسة عشر فرسخاً من أصفهان ، فقتلهم عن آخرهم ، فوقع الرّعب في قلوب الأتراك لهذا الخبر . وأمر أحمد باشا بتوقيف العسكر وحفر الخنادق حولهم . أما أشرف فقد بعث بأناس سراً ليسعوا في جمع قلوب الأكراد على ولائه وليذيعوا في المعسكر العثماني أن هذه الحرب مضادة للدين الحنيفي .

وبعث بآخـرين من العلمـاء جهراً إلى أحمد باشا ليستميلوا فؤاده الى السلم ويبينوا له أن الصلح خيرٌ . فلم يسمع مقالتهم ، بل أمر بسوق العساكر ، وكانت ستين ألفاً يصحبها سبعون مدفعاً . ولم يكن مع أشرف سوى عشرين ألفاً يصحبها أربعون (زنبورك) . فلما تلاقى العسكران انهـزم العثمانيون شر هزيمة بعد أن قتل منهم اثنا عشر ألفاً ، وتركوا جميع أسلابهم وأدواتهم ، وفرّ أحمد باشا إلى (كرمان شاهان) . وخوفاً من أن يتعقبه أشرف لم يقم فيها بل ذهب إلى بغداد ، فاتخذ أشرف من ذلك فرصةً لاستمالة أفئدة العثمانيين ، فكتب إلى أحمد باشا « إنني لا أحب التصرف في أموال المسلمين فأرسل أميناً من طرفك يستلم جميع ما تركتم سوى الآلات الحـربية » . وأطلق أسراء العثمانيين فأوجب ذلك إشتهاره عند العثمانيين بحسن السيرة . فالتزموا أن يصالحوه على أن يعتـرفـوا له بكونه شاه إيران ، وأن يعترف هو من سلطان قلبه بكون السلطان العثماني هو ظل الله في الأرضين .

وأثـر ذلك وقعت عدة مشاكل أحدها كون أخي[١٦٩] محمود نزع إلى الإستقلال في قندهار فتسبب عنه الشقاق في طائفة الغلجائي ، وانقطاع المدد عن الشاه أشرف . وثانيها كون الملك محمود السجستاني سمى نفســه شاهــاً ، وتغلب على غالب ممـالك خراســان . وثالثها كون نادر المعروف بالشجاعة والعزم والشهامة قد إنضم إلى الشاه طهماسب وصار أميراً على عساكره في مدينة (استرآباد) . وفي خلال هذه المشاكل سار شاه أشرف لفتح مدينة (يزد) فوفق لفتحها . وأرسل سفيراً بعد ذلك إلى الدولة العثمانية فقابله رجالها بكل تبجيل وتعظيم ، فعدّ ذلك شاه أشرف فاتحة الإقبال . ولكن لم يطل زمن سروره ، حتى بلغه أن نادراً جيَّش جيشاً من طرف طهماسب لإستخلاص مشهدوهرات من أيدي الأفغانيين العبدالية . فكان من الأمر أن تم له ذلك واستخلصهما واستفحل أمره في تلك البلاد ، فاضطرب لذلك شاه أشرف ، وأخذ يحشد العساكر ، فجمع ثلاثين ألفاً ، وسار بهم إلى بلاد خراسان ، وتلاقى مع عساكر نادر بقرب دامغان ، فهاجمها مرات متعددة ، إلا أن عساكره لم تقدر على مقاومة عساكر نادر فانهزم ورجع إلى أصفهان . وأمر بجمع الأفغانيين ، وعسكر

---

(١٦٩) يقصد شقيق محمود

في شمال المدينة بقرب (مودجه خوار) وحفر خنادق وأقام إستحكامات ، فتوجه إليه نادر وكان في كل نقطة من سيره يزيد عساكره من الإيرانيين إلى أن وصـل إلى معسكر أشرف فوجده في غاية المناعة . ومع ذلك أمر بالهجـوم عليه وأظهر الأفغانيون غاية الجلادة والثبات . لكن لما كانت عسـاكر العدوّ أكثر عدداً ، وأوفر عدَداً ، ظفرت بهم ، وقتل من أبطال الأفغان أربعة آلاف ، وتقهقروا إلى أصفهان . وعلموا علم اليقين أن لا مقام بها فباتوا ليلتهم يتأهبون للرحيل . وقبل طلوع الشمس خرجوا من المدينة سالكين طريق شيران . ويقال إن أشرف قبل خروجه من المدينة أرسل شاه سلطان حسين السيء البخت إلى وادي العدم . وبعد أشهر ساق نادر الجيش بأمر طهماسب إلى شيراز ، فتلاقى هناك مع الأفغانيين المنكسري الخـاطر ، المجتمعـين حول اصـطخـر . وبعد محاربة هينة تفرّقوا . وتقهقر أشرف إلى مدينة شيراز . ولما علم أن لا خلاصَ له خرج مع مائتي خيّـال قاصداً مدينة قندهار . وتفرّقت جموع الأفغانيين مع أمرائهم . وكان عددهم يبلغ عشرين ألفاً . وفي مسيرهم إلى بلادهم كانوا يكـابدون المشاق من قلة الزاد ومعارضة الإيرانيين وسائر القبائل لهم بالقتل والنهب ، حتى تلف غالبهم ، ولم ينجُ إلى بلادهم إلّا القليل .

وأما شاه أشرف فكان يقاتل مع القبائل إلى أن وصل إلى بلوجستان . فقابله أهلها بالقتل والسلب حتى لم يبق معه إلّا شخصان . ثم تلاقى معه ابن عبد الله خان بلوج ، وعرفه ، فقتله وبعث برأسه مع قطعة من الماس كانت معه إلى شاه طهماسب ، وكان ذلك في سنة ١١٤٢ . وكان أشرف طيب السريرة ، حسن السيرة ، واسع الأخلاق ، حميد الأوصاف عند الأفغانيين . وكان الإيرانيون أيضاً يفضلونه على محمود . وقد طالت سلطنـة الأفغـانيـين في إيـران سبع سنين ، وقُتل فيها من الإيرانيين بمحارباتهم مليونان من النفوس . وبعد ما نال نادر السلطنة الإيرانية ، ونزعها من أيدي الصوفية ، جهز ثمانين ألفاً لفتح قندهار . ولما وصل إليها وجدها منيعة ، لوقوعها إذ ذاك في إبط جبل يقال له (كوه قيطول) وكان محيطاً بها على هيئة نصف دائرة . وكان في الجهة التي لم يحطها الجبـل أبراج منيعة . فارتأى نادر أن يبني مدينة بجانبها ليتمكن من الحصار . وبعد أن حاصرها سنة كاملة ولم يفز بالإفتتاح لوفور الذخيرة عند الأفغانيين أخذ سبيل المهاجمة . واستولى على بعض الأبراج ، بعد

كرّات عديدةٍ . ووضع عليه الأهوان[١٧٠] والمدافع ، وسلّطها على المدينة فتماطرت الكلل عليها . فلم يجد أهل المدينة سبيلاً للسلامة سوى التسليم ، ففتحوا الأبواب ، ودخلت عساكر نادر في المدينة . ولم يحدث من دخولهم أدنى ضرر بالأهالي ، لأن نادراً كان قد أعلن العفو عن الأفغانيين ، تقريراً لما التزمه عند نيل السلطنة من دفع الرّفض ، وتقرير الترضي ، عن الصحابة . فإنه عند ما طلب منه الإيرانيون أن يكون هو السلطان والشاه أبى ذلك وقال : « لا أقبل السلطنة حتى ترفضوا الرّفض وتترضوا عن الصحابة » فأظهروا له الرضاء وواثقوه على ذلك فقبل تاج الملك . ثم كاتب الدولة العثمانية « بأن الإيرانيين قد عدلوا عن سب الصحابة واطمأنوا للترضي عنهم . ولكن المذهب الجعفري من المذاهب المعتبرة عند أهل السنة فنؤمل أن تأذن الدولة باقامة إمام للجعفريين في مكة المكرمة كما لسائر المذاهب » فامتنع شيخ الإسلام عن ذلك ، وأغرى الدولة بعدم القبول .

وقد بقي الأفغانيون تحت سلطة الإيرانيين من زمن موت شاه أشرف إلى موت نادر شاه . ولما مات نادر شاه في سنة ١١٦١ قام أحمد خان العبدالي السدوزاي الذي كان في معسكر نادر شاه مع جموع من الأغانيين والأزبك ، وهاجم الإيرانيين ونازلهم منازلة عنيفة ثم انعطف بغاية السرعة إلى قندهار واستولى عليها . ووضع يده على الأموال الخراجية التي كانت تحمل من كابل وبلاد السند إلى نادر شاه عند مرورها بقندهار . وبذلك قوي إقتداره فادعى الإستقلال ، ولقب نفسه شاه أفغان ، وسمى القبيلة العبدالية (دراني) . ثم وجّه عساكره إلى هرات ومشهد وسجستان ، وغيرها من بلاد خراسان ، وافتتح الجميع . وكان في مكنته أن يفتح جميع بلاد إيران في ذلك الوقت . غير أنه رأى اشمئزاز نفوس الأهالي من الأفغانيين لما سبق لهم من الإساآت إليهم ، وأن تغيير المذهب الذي حدث فيهم بواسطة نادر شاه لم يكن متمكناً منهم . فعلم أن إفتتاح تلك البلاد لا يعود بعظيم فائدة . واشتغل أولاً بتدبير داخليته ، واكتفى بتخليص أمته وترك بعضاً من بلاد خرسان لإبن نادر شاه ، قياماً بواجب حق أبيه عليه وتكفل له بحفظه . ثم لما رسخت قدمه في الملك ودان له جميع الأفغانيين ساق عساكره ست مرات إلى

(١٧٠) الأهوان ، جمع هاوّن ، تقال للمدافع .

الأقطار الهندية . ونال الظفر في كل مرة خصوصاً في الواقعة التي وقعت بصحراء بني بتان (بالباء الفارسية فيهما) الواقعة بقرب مدينة دهلي . وكانت تلك الواقعة مع المراتيين من عبدة الأوثان الذين أعجزوا أعاظم السلاطين التيمورية في الهند . إذ كانوا يرومون نزع السلطة من أيدي المسلمين وعساكرُهُم . في تلك الواقعة كانت ثمانين ألفاً وعساكر أحمد شاه كانت ستين ألفاً نصفها من الأفغان . ولم يكن إعتماد أحمد شاه إلّا عليهم . فهزم بهم عساكر المراتيين شر هزيمة ، ونكّل بهم تنكيلاً ، حتى صارت هذه الواقعة سدّاً لسبيل فتوحاتهم . وانتشر له بهذه الواقعة أحسن ذكر بالبلاد الهندية . وكان ذلك مؤيداً له في فتوحاته الهندية فافتتح بلاداً كثيرة كبنجاب وكشمير وسِنْد وما يتاخمها من البلدان . ثم فتح بلوجستان ومكران وبلخ وغيرها . وخضع له بعد ذلك سائر الأمراء الكبراء الذين كانوا على مقربة من بلاده ، وصار بتدبيره وحكمته متسلطاً على مملكة عظيمة . وكان رجال مملكته من الغنى والثروة بمكان ، إلّا أن ماليـة الحكـومة كانت فقيرة ، فإن خراج أقطار كابل وقندهار قد وهبه لأمـراءِ القبائل الأفغانية ، ولم يكن يطلب منهم على ذلك عوضاً سوى الطاعة والإنتظام في سلك العسكرية .

وكان هذا السلطان العظيم الشأن من قبيلة (السدوزاي) على ما تقدم ، وهي القبيلة التي كان الأفغانيون يجلّونها ، وينظرون إليها بعين الإعتقاد . وكان مع ذلك شجاعاً ذا عزمٍ وحزمٍ ، وتدبير محكمٍ ، وسداد رأيٍ ، وعلمٍ وحكمةٍ ، وسعة أخلاقٍ ، وطيب نفْسٍ ، وعدلٍ وإنصافٍ ، ورحمـةٍ بالضعفـاء ، وعنايةٍ بشأن الرعية وإصلاحها . ومن أجل ذلك تمكنت محبتـه من قلوب رعـايـاه عمـومـاً مع إختـلافهم في الأجناس والمشارب ، ومن قلوب الأفغانيين خصوصاً ، حتى أنهم كانوا يعتقدونه من المقرّبين إلى الله ، ويعدونه أباً لعموم الأفغانيين ، ومن ثم لقبوه ببابا وهـو إلى الآن يُعرف عندهم بهذا اللقب ، إذ يدعونه أحمد شاه بابا . واستقرّ عرش ملكه وسلطنته على دعائم الثبات والتمكن ، ولكن لما كانت العلة الحقيقية لثبات الملك والسلطنة هي حكمته وتدبيره ، ولم يكن في عقبـه من يكـون على مثـل حاله وقعت المملكـة بعـد موتـه في إرتبـاك واضطراب . وكانت وفاته سنة ١١٨٥ وقيل سنة ١١٨٧ بعد ما قضى من العمر خمسين سنة .

وكان وقتئذٍ ولده تيمور في مدينة (هرات) فلما سمع خبر الوفاة جمع العلماء والرؤساء وقواد العساكر وخاطبهم قائلاً : « إن أبي وهو في حال حياته قد جعلني وليّ عهده. غير أن وزيره أغراه وهو في الإحتضار بخلعي من ولاية العهد ، وتولية أخي سليمان ، بدلاً عني . وهو الآن تُضرب له طبول السلطنة في قندهار ، وقد وضع يده على خزانة والدي ، وعظمت بذلك قوّته ، واشتدّ بأسه ، فهل فيكم من يؤازرني على إسترداد حقي المغتصب ؟ » . فصرخوا خافضين له جناح الخضوع ، وقالوا بأجمعهم : « إن السواد الأعظم معك وكلنا بين يديك وعلى أهبة لتنفيذ أغراضك » . ثم اجتمعوا في مزار « خواجه عبد الله الأنصاري » وقام الشيخ يحيى العالم المشهور إذ ذاك ، وقلده سيف السلطنة . وخضع له جميع الأفغانيين ، واستعان بهم على أخيه حتى ظفر به وسجنه في قفصٍ ، ولبث في السجن زمن سلطنة تيمور إلى أن مات فيه . وكانت وفاته سنة ١٢٣٣ . ثم قتل وزير أبيه الذي كان قد سعى في خلعه . ثم ساق الجيش إلى هندستان وكشمير ولاهور وألجأ من نبذ طاعة الأفغانيين إلى الدخول في طاعتهم . وبعد ذلك ببضع سنين قلد ولده الثاني (محمود) ولاية هرات ، ونقل كرسي السلطنة من قندهار إلى كابل ، وجعل المتصرّف فيها ولده الثالث (زمان) وقد كان هذا الولد على جانب عظيم من مكارم الأخلاق . واتفق في تلك الأيام أن شاه مراد بك أمير بخاري أغار على مدينة مرو فدّمرها ، وأسر جميع أهلها ، وكانوا على مذهب الشيعة ، فاستغاثوا بتيمور شاه فهمّ لإستنقاذهم . ولكن حال بينه وبين ذلك فيض الله أحد القضاة حيث أفتى بأنه لا يجوز لسنيّ أن يسعى في خلاص شيعيّ . (فاعتبروا يا أولي الألباب) . وتوفي تيمور بكابل ليلة الثامن من شوّال سنة ١٢٠٧ وماتت راحة الأفغانيين بموته . وكان حسن السيرة ، لين العريكة ، محباً للسلم . ومن أجل ذلك قد نبذ طاعته بعض أمراء البلدان . وكان له من النساء ثلاثمائة من الحلائل ، ليس فيهن أفغانية . وخلف اثنين وثلاثين ولداً .

ولما سمع همايون ، وهو في قندهار ، خبر وفاة والده ، قام في قومه برسم السلطنة ، وحشد الجنود ، وتوجه بها إلى كابل ، ليستولي عليها . فبلغ ذلك أخاه زمان فخرج لمقابلته بجيش جرّار فتلاقيا ، واحتدم القتال بينهما في (كلات الغلجاي) . غير أن همايون لم يثبت أمام أخيه ، بل

فرّ إلى هرات ، والتجأ بأخيه الآخر محمود ، والتمس منه أن يعينه على زمان فلم يجبه . ولما آيس منه ترك هرات ، وسلك طريق قندهار ، واتخذ له مقاماً بين المدينتين . فاتفق أن قافلة كانت تأتي من قندهار إلى هرات فاعترضها همايون وقتل رجالها ، وسلب أموالها ، واستعان بها على حشد جيش ، ليعاود قتال أخيه زمان . فبلغ ذلك حيدر ابن زمان ، فخرج لصدّه ، فلم يقوَ عليه ، بل انهزم . ودخل همايون مدينة قندهار ، وعامل أهلها بالخشونة ، وعذّب تجارها ، ونهب أموالهم ، وَجَيَّش بها الجيوش . ولما سمع بذلك زمان شاه ساق جيشه نحو قندهار ، وأخذ في الحملة على همايون . وكانت الدائرة عليه ، فَفَرَّ إلى (ملتان) وقاومه واليها حتى هزمه ، وقتل ولده ، وأخذه أسيراً ، وبعث به إلى زمان شاه فأمر بسَمْل عينيه . وبالجملة إن زمان شاه بمعونة القاضي فيض الله وبايندہ خان ، وبمساعدة البخت ، قد خلص له الملك بعد أبيه ، واتخذ رحمة الله خان وزيراً له ، مع أن الأمراء نصحوه بعدم توليته هذا المنصب ، فلم يسمع نصائحهم ، ولزم من إقامته فيه فسادٌ على ما نبينه . وقد نفذت سلطة زمان شاهن في البلاد التي كانت تحت سلطة آبائه كسند ، وكشمير ، وملتان ، وديره ، وشكار بود ، وبلخ . ثم سار بنفسه إلى قندهار . وفي أثناء ذلك قام أخوه محمود في هرات ، وادعى الإستقلال ، وحشد العساكر ، وسيّرها نحو قندهار . فلما أحسّ بذلك زمان شاه خرج منها ، وتوجه لمقابلته ، فتلاقيا بين كرشك وزمين داود . فطلب زمان شاه أولاً المصالحة من أخيه محمود ، فأبى إتكالاً على قوته ، فاشتعلت نيران الوغى بين العسكرين ، وانجلت بهزيمة محمود ، ففرّ إلى هرات . ووقع كثيرٌ من أمرائه في الأسر ، وخزينته في قبضة عساكر أخيه . وبعد هذه الواقعة وقعت المصالحة بينهما على شرط أن تكون هرات وفره تحت إمرة محمود ، وأن تقرأ الخطبة ، وتضرب السكة فيهما بإسم شاه زمان ، ثم توجه الشاه إلى كابل . ومن كابل إلى لاهور . وتسلط عليها وعلى الممالك القريبة منها . وعادت تلك النصرات على عساكره بالثروة والغنى .

وبينما هو في نواحي لاهور إذ بلغه أن محموداً نقض المعاهدة ، ويريد فتح قندهار ، فأسرع بالرجوع إليها . ومنها توجه إلى هرات . فلما سمع بذلك محمود جمع عساكره ، وخرج من هرات لمقابلته إلّا أنه بلغه أن الأمراء الذين تركهم في مدينة هرات قد أثاروا الفتنة فيها ، ونزعوا

لتسليمها بغْضاً في وزيره لكوْنه شيعياً فاضطر للرجوع . ولما دخل المدينة قام عليه (قلج خان) الذي كان رئيس أويمق (طائفة من الترك) مع فرقة من عساكره ، وأظهروا العصيان . فأرسل وزيره الشيعيّ ليستميلهم ، فحبسوه أَبَوْا إلّا العدوان . وفي هذه الحالة سمع أن قيصر ابن شاه زمان قرب من المدينة ، فلم يجد محيصاً من الهرب فخرج مع إبنه كامران وفرّ إلى بلاد العجم . والتجأ إلى فتح علي شاه جد هذا الشاه الموجود الآن[١٧١] . فدخل قيصر مدينة هرات بلا ممانع ، ثم حلّ بها شاه زمان أبوه ، وجعله والياً فيها . وبعد مدة رجع محمود إلى نواحي هرات ، وجمع بعضاً من العساكر لفتحها ، إلّا أنه لم ينجح ، بل انهزم . وحيث لم تطب نفسه بالرجوع إلى فتح علي شاه ذهب إلى أمير بخاري (شاه مراد) وبعد أن لبث عنده ثمانية أشهر إستأذن منه في الذهاب إلى خوارزم ثم توجه من خوارزم قاصداً فتح علي شاه سلطان إيران مرة ثانية . وبعد ما قضى مدة من الزمن عنده إستعان به على تجهيز جيش جرّار وساقه إلى قندهار فدخلها بدون ممانعة . ثم إتصل به فيها فتح محمد خان ابن بايندہ خان ، وساق معه الجيوش إلى كابل . فلما سمع بذلك شاه زمان خرج لملاقاتهما . ولما التقى الجمعان وقعت بينهما حرب هائلة ، أريقت فيها دماء غزيرة من الطرفين ، وانتهت بهزيمة شاه زمان ، ووقوعه أسيراً بيد أخيه شاه محمود ، فأمر بسمل عينيه ، وقبض على وزيره رحمة الله خان الخائن ، الذي قد كان لطمعه في السلطنة أغرى شاه زمان بقتل جميع الأمراء ، وفيهم بايندہ خان أبو فتح محمد خان الذي اتصل بمحمود . فأمر محمود بتجريد هذا الوزير الشرير من ثيابه وإلباسه ثوباً من حصير ، وإشهاره في المدينة على حمار ، ثم بقتله بعد ذلك .

ولما لم يقوَ قيصر ابن شاه زمان على مقاومة عمه ، ترك مدينة هرات لفيروز الدين شقيق محمود ، والتجأ إلى شاه إيران فتمت السلطة لمحمود وتسلط على كرسي كابل . ولما كان محمود يميل إلى مذهب الشيعة نفرت منه قلوب السنيين فتحرّك عرق حميتهم وثاروا عليه ثم خذله الشيعيون أيضاً . وأَجْمعَ أمر الجميع على إعناته فألقوا القبض عليه ، وحبسوه في

---

(١٧١) أي جد المغفور له ناصر الدين شاه والد جلالة مظفر الدين شاه إيران الحالي ادامه الله (هامش ناشر الطبعة الثانية)

(بالاحصار) وأخرجوا شاه زمان الأعمى من الحبس ليحكم فيهم إلى أن يصل إليهم شاه شجاع . وبعد خمسة أيام قدم شاه شجاع من البنجاب ، فأخرجوا محموداً من السجن ، وقدّموه إلى شاه زمان ليقتص منه ، فعفا عنه رحمة به ، وأمر بردّه ليحبس في بالاحصار . وبعد زمن قليل توجه شاه شجاع بجيش جرَّار إلى كشمير لتأديب واليها عطا محمد خان ابن شير محمد خان ، حيث بلغه عصيانه . فلما وصل إلى مدينة مظفر آباد بقرب كشمير ، وافاه سفير من قبل عطا محمد ليعتذر للملك عن عصيانه ، ويعرض عليه طاعة سيده وعبوديته له فرجع شاه شجاع بعد ما وثق من معاهده . وبينما هو في الطريق إذ بلغه أن محموداً ومن كان معه من الأمراء في الحبس ذبحوا حرس القلعة ، وفرُّوا ، والتحقوا بفتح خان ، الذي كان مسجوناً في قندهار وتخلص من سجنها ، واتصل بكامران ابن محمود وهو وقتئذٍ في نواحي الأراضي الأفغانية ، وأنه قد وقع لذلك اضطرابٌ شديد في مدينة كابل . فلما ورد شاه شجاع المدينة وشاهد القلق المستولي على أهاليها تأسف لذلك أسفاً عظيماً . وبعد إجتماع محمود وإبنه وفتح خان ذهبوا إلى هرات ليستعينوا بالأمير فيروز الدين السابق ذكره ، والى تلك المدينة ، فقابلهم بكل احترام ، وقدّم إليهم هدايا وألبسة فاخرة ، إلا أنه لم يأذن لهم بدخول المدينة ، وأبى مساعدتهم . وأبدى لهم عن ذلك أعذاراً فانقلبوا راجعين . وفي أثناء رجوعهم صادفوا قافلة آتية من هرات إلى قندهار وأخرى من قندهار إلى هرات فأجمعوا أمرهم على أن يقطعوا سبيل هاتين القافلتين ، ويسلبوهما ، وقد فعلوا . وبعد أن تمت لهم الغنيمة جهزوا أربعة آلاف خَيّال لفتح قندهار . فلما اقتربوا منها برز إليهم واليها عالم خان بعساكره . وكانت مقتلة عنيفة انتهت بأسر عالم خان . وبعد مدة يسيرة افتتحوا المدينة ، واستولوا عليها . ثم بعد مضيّ زمن جهزوا مائة ألف ، وساروا بها لمحاربة شاه شجاع فالتقى الجمعان في قزنه . وبعد ملحمة مهولة تقهقر شاه شجاع ، وفرّ إلى كابل . وحيث لم يكن على ثقة من الأهالي ، لم يركن إليهم فبارح المدينة متوجهاً إلى بيشاور ، بعد أن ترك فيها الأمير حَيْدَر ابن شاه زمان . وبذلك تمّ الظفر لمحمود فدخل ، واستولى على عرش الملك ، وأبدى لرعيته علائم الشفقة والرحمة ، وقلد فتح خان منصب الوزارة ، وفوَّض إليه مهام أعمال السلطنة ، وأطلق له

التصرف ونصب إبنــه كامران والياً على قندهار . ثم إن فتح خان أقام جميع إخوته ولاة في الممالك الأفغانية .

وفي خلال تلك الوقائع قتل كامران قيصر الذي أسلفنا خبر هربه إلى إيران . وكان عَوْده لما سمع من أن عمه شاه شجاع صار سلطاناً . وبعد مدة طرد شاه شجاع من بيشاور فراسل عطا محمد والي كشمير يطلب منه أن يمدّه بالدنانير والدراهم . فأجابه عطا محمد « بأنك إن بعثت ما لديـك من الجواهر رهناً أرسلت اليك ثلاثين لَكْ روبية » (كل لَكْ منها يســاوي عشرة آلاف جنيهـاً) ولم يكن عند الشاه من الجواهر سوى جوهـرة كبيرة تسمى (درياي نور) أي بحر النور فقدّمها لعطا محمد فأرسل إليه خمسة عشر لكاً . ووعده بارسال الباقي . فجهز شاه شجاع جيشــاً ، ورجـع به إلى بيشاور ليسير منها إلى مدينة كابل . فلما بلغ محموداً خبره أخرج شاه زمان من السجن وخاطبه قائلاً له : « إن المملكة قد حاق بها الضرر ، وآلت إلى الخراب ، وأريقت دماء المسلمين هدراً . فهلمـوا بنا نستبدل الشقاق بالإتفاق ، ونشتغل فيما يعود على المملكة بحسن العــاقبة وعليّ أن أقوم بجميع واجباتكم وإنزال كل واحد منكم منزلة لائقة به ، وأطلق جميع الأمراء المحبوسين من قيودهم وعليكم أن تراعوا مكانتي نظراً لكوني إبناً بكراً لأبينا »

ولما سمع شاه زمان هذا الخطاب بعث يخبر به أخاه شاه شجاع . فلما وصل إليه الكتاب اتخذه وسيلة لتهديد عطا محمد إذ كتب إليه : « إن لم تعني بالمال والرجال لأتفق مع أخي على قلع أساسك » فاهتم لذلك عطا محمد ، وجهز خمسة آلاف وسار بها إلى بيشاور . ففرح لذلك شاه شجاع ظناً منه أن عطا محمد قادمٌ لإمداده . ولكنه أضمر غدراً ، وفــاجـأ الشاه بتلك المدينة ، وقبض عليه ، وأخذه أسيراً في قفص إلى كشمير ، واجتهد في تحصينها ، وكاتب حكومة الانكليز في الهند للإتفاق معه على أن يجهزْ جيشاً لحرب رنجيت سنك الوثني(١٧٢) الذي اغتصب في أثنـاء تلك المنـاوشــات الأهليـة بعض البانجاب من بلاد الأفغانيين ، وتخليص البلاد التي استولى عليها ، وتركها بقبضة الانكليز بشرط أن

(١٧٢) هو من أتباع بابا نانك الذي نبغ في الزمن الاخير بين عبدة الاوثان ، ووضع كتاباً منتخباً من مؤلف جارويد الكتاب السماويّ المقدس مسمياً إيّاه « كريت » . وهذا الانسان قد جوّز أكل اللحوم خلافاً لغيره من عبدة الأوثان ، ونهى عن وضع الاصنام بمعابدهم ، مشيراً إلى وجوب الاعتياض عنها بكتابه المذكور . (اهـ . المؤلف)

تعضده إن قصده محمود بسوء . فوقعت المكاتبة بيد جواسيس رنجيت سنك وقدّموها له فبعث بها إلى محمود طالباً منه أن يتحد معه في الهجوم على عطا محمد فجهز كلٌ منهما جيشاً وفاجآه فأخذاه أسيراً . إلّا أن محموداً قد عفا عنه ، وخلص شاه شجاع من الأسر ، وأقام فتح خان الوزير أخاه عظيم خان ولياً على كشمير . واستصحب رنجيت سنك شاه شجاعاً ، وذهبا إلى مدينة لاهور .

ثم بعد مضي سنتين شرهت نفس رنجيت سنك للإستيلاء على كشمير ، فجهز ثمانين ألفاً من عبدة الأوثان الباباناكيين ، وسار بها إلى تلك المدينة . ولم يكن عند عظيم خان سوى عشرة آلاف من المسلمين ، فكمن بهم حتى دخل الجيش الوثني الوادي ، فأحدقت بهم العساكر الكامنة من الجهات الأربع ، وأوقعوا بهم قتلاً وأسراً . فكان عدد من قتل وأسر أربعين ألفاً وفرّ باقي العساكر إلى بلادهم ، ناجين بأنفسهم من العناء والمشقة ، فانفعل لذلك رنجيت سنك ، وكتب يستعطف محموداً ويعتذر إليه مما فعل قائلاً : « إن الذي أغراه على ما فعل إنما هو شاه شجاع » . ولما استشعر بذلك الشاه همّ بمفارقة لاهور فطمع رنجيت سنك في مجوهراته ، فأبى أن يسلمها إليه على وجه الملكية بل أعطاه إياها على سبيل الأمانة . وكان من جملتها درباي نور (وأظن أنها هي التي أصبحت الآن درّة تاج بريطانيا) . ثم فرّ ليلاً والتجأ الى الحكومة الانكليزية ، فتأسف رنجيت سنك لذلك ، وكتب إليه يستميله إلى الرجوع . فلم يطب به نفساً ، فردّ عليه مجوهراته . وأما الانكليز فانهم عدُّوا التجاء الشاه إليهم من أسباب حظهم فأكرموا وفده .

وفي تلك الأوقات تحركت عزيمة شاه زمان الأعمى ، الذي كان موقراً عند العلماء والأمراء للسفر إلى بلخ قاصداً زيارة قبر هناك مشهور بأنه قبر سيدنا علي (رضه) فبلغها ، وسافر منها إلى بخاري ، فقابله أميرها « مير حيدر » بالتعظيم والإجلال ، وتزوج بابنة الشاه . ثم سافر من بخاري إلى طهران ، فأكرمه فتح علي شاه مزيد الإكرام ، وزوّده . ثم شخص إلى بغداد ، وكان واليها إذ ذاك داود باشا المشهور ، ومنها قصد الحج ، فمات في الأقطار الحجازية .

وفي خلال تلك الحوادث سنة ١٢٢٢ من الهجرة أزمع حاجي فيروز الدين الذي كان والياً في هرات من طرف أخيه محمود أن يفتح خراسان

معتمـدا على همة (صوفي الإسلام) البخاري الذي هو من الصوفية الجهرية ، وقد كان ترك بلاده خوفاً من « بيك بان الأزبك » وكان أيضاً يزعم أن الوحي ينزل عليه وأنه يقدر على خرق العادات طامعاً أن يرتقي بأنفاسه الباطنية إلى عرش السلطنة . فجهز خمسين ألفاً من قبائل هرات وقندهار واندخود وكندز وميمنة وفارياب ، وسار بها إلى قلعة شكيبان . فلما أحسَّ بذلك نائب خراسان محمد خان فاجار جهز جيشاً لمقابلته . فلمـا تقابل الجيشان على بُعد سبعة فراسخ من هرات اشتعلت نيران الحـرب بينهمـا ، حتى فني كثـير من الحزبين ، وقتل صوفي الإسلام المـذكور ، وكان في قلب المعسكر داخل هودج مزركش محاطاً بثلاثمائة وستة وستين من خُلَّص أتباعه بعد ما قتلوا جميعاً . فعند ذلك تقهقرت عساكر فيروز الدين إلى هرات . وأما عساكر محمد خان ، فقد أحرقوا جثة صوفي الإسلام ، وأرسلوا جلدة رأسه بعد سلخها ، وحشوها تبناً إلى فتح علي شاه . (هذا جزاء من أوقع الفتنة بين طائفتين من المسلمين حتى سفـك بعضهم دم بعض ، حيث غرّهم وأوهمهم بمشيختـه وتمويهاته وإدعائه الكاذب أنه ممن ينتهي إليهم زمام التصرّف في عالم الكائنات ، بما ينطوي عليه من القوة الآلهية والأسرار الربانية) .

وبعـد إنهـزام فيروز الدين اضـطر إلى أن يرسل إلى الشاه هدايا فاخـرة ، استمالةً لقلبه وإتقاءً لضرره ، بكف عساكره عنه . وقد تعهد أيضاً أن يقدم إلى سدّة الشاه كل سنة جزءاً وافراً من الخراج . وكان فيروز بعد هذه المصالحة مع الإيرانيين بين إقدامٍ وإحجامٍ ، ومحاربةٍ ومصالحةٍ ، وتسننٍ وتشيعٍ ، إلى أن اشتدّت المنافسة بينه وبين حسن علي ميرزا ابن فتح علي شاه والي خراسان . وخاف من إغارته على بلاده . فأرسل سفيراً إلى أخيه شاه محمود يستمد منه ، فعدّ ذلك محمود وسيلة للإستيلاء على مدينة هرات فأرسل وزيره فتح محمد خان بجيش جرّارٍ . ولما وصل إلى المدينة استوحش منه فيروز ولم يسمح بدخوله فيها بل أمره أن يتوجه لأخذ غوريان من يد الإيرانيين ، إلاّ أن فتح محمد خان كان مأموراً من طرف سيده بدخول مدينة هرات فلم يَرَ بدّاً من إعمال الحيلة لأخذها ، فأرسل إلى فيروز يطلب منه القدوم إلى المعسكر ليستشيره . فلما خرج إليه قبض عليه وأرسله مع أهله أسيراً إلى قندهار ودخل المدينة وأقام بها ، وجهز أخاه كهندل خان لتسخير غوريان ، ونشر مكاتيب في

بلاد خراسان يدعو بها رؤساء القبائل للإتحاد معه على محاربة الإيرانيين .

ولما سمع بذلك حسن علي ميرزا أرسل جيشاً لمحافظة تلك البلدة . ولما حصل التقاوم بين المدافعين والمهاجمين جهز فتح خان جيشاً كبيراً من أهالي قندهار وهرات وبلوجستان وسجستان وقبائل جمشيدي وهزاره وفيروز كوهي ، وسار به مصحوباً بالمدافع والزنبورك لتسخيرها وسائر بلاد خراسان الباقية تحت سلطة الإيرانيين . وعند وصوله إلى كوسيه بلغه أن حسن علي ميرزا وصل بعساكره إلى « كافر قلعة » لمقاومته . وكان بينهما إذ ذاك فرسخان . فأرسل إليه سفيراً يطلب منه تسليم غوريان ، ويهدّده بالحرب قائلاً : « من ذا الذي يدري عاقبة الحرب أهي لك أو عليك ؟ وربما أوقعك كبرك وإشمئزازك الناشئان عن رؤيتك نفسك ابن سلطان في أمرٍ يوجب تزلزل سلطنة أبيك » فأجابه حسن علي ميرزا على لسان سفيره : « بأن سيدك محموداً المتربي بنعمة الشاه لا يليق به أن يتكلم بمثل هذا الكلام ، فضلاً عن خائنٍ مثلك قد حارب ساداته السدوزائية »

فلما رجع السفير خائباً ساق فتح خان عساكره إلى كافر قلعة ، ووقعت بين العسكرين محاربة مهولة ، قُتل فيها جمٌّ غفيرٌ من الفريقين ، حتى إذا كاد أن ينهـزم العساكر الإيرانيون أصيب فتح خان برصاصة في فمه ، فتقهقر إلى هرات ، فاضطرب شاه محمود وولده كامران اللذان كانا وقتئـذٍ في المدينة . فأرسل ملاّ شمس مفتي هرات وخان ملاخان (أي شيخ الإسلام) إلى فتح علي شاه ليخبراه أن هذه الجراءة من فتح خان ، ولم تكن بعلم من محمود ، وليستعطفا قلبه إليه . ولما اطلع الشاه على فحوى السفارة خاطب السفراء قائلاً : « إني لا أرضى من شاه محمود إلاّ أن يبعث إليّ فتح خان أو يسمل عينيه » . ولما أحاط كمران بذلك علماً حمله الجبن وضعف النفس وقلة العقـل على سمـل عيني هذا البـطل الشجاع الذي أقعد أباه على كرسي السلطنة وحبسه مع أخيه « شيردل خان » وفرّ (دل خان) أخوه الثاني من هرات إلى قرية « نادر علي » ، وتحزّب مع جماعة من الغلجائي على كامران ليخلص أخويه . وعند سماع كامران هذا التّحزُّب أمر بإطلاقهما ، جبناً منه وضعفاً .

ولما شاع خبر سمل عيني فتح خان ووصل إلى مسامع أخيه الثالث

الشـديد البأس « عظيم خان » والي كشمير ، أرسل اثنين من إخوته ، وهما « دوست محمد خان » و « يار محمد خان » إلى بيشاور لطلب شاه زاده أيوب أخي محمود ليقلداه السلطنة ، وقد فعلا ، ونا‌ديا باسمه ، ودخـلا في حدود « جلال أبـاد » وهجم دوست محمد خان على كابل ، وافتتحها ، وأرسل أيضا أخاه محمد زمان خان لطلب شاه شجاع الذي كان مُقيما في البلاد الهندية التي كانت تحت سلطة الانكليز . فجاء شاه شجاع المذكور وحارب « سمندر خان » والي دره ، وغلبه . وبالجملة فقد قام إخوة فتح خان الذين يبلغ عددهم عشرين رجلاً ، واتحد كل واحد منهم بواحد من أبناء تيمور شاه الذين يبلغ عددهم اثنين وثلاثين رجلاً ، وداروا بهم في البلاد الأفغانية شرقاً وغرباً ، وقلعوا أساس ملك محمود ولم يبق في يده سوى قندهار وهرات ، ثم انتزعوا الملك من أبناء تيمور ، واستقلّ كل واحد في ولايةٍ من ولايات أفغانستان . كل ذلك أخذاً بثأر عيني أخيهم .

ثم بعد زمن قليل استولوا على قندهار ونزعوها من يد محمود أيضاً فانحصرت سلطة محمود على هرات ونواحيها . وفي سنة ١٢٤١ ساء ظن محمود بابنه وتفرّس منه العصيان وخاف منه أن يقبض عليه فخرج من هرات ، وجمع بعضاً من قبائل « فراه » وتوجه لمحاربته ، فاضطر إبنه للإلتجاء بحسن علي ميرزا ، والاستغاثة به ، فأغاثه فغلب أباه وهزمه . وأعدّ كامران أي الإبن المذكور بعد هذه الواقعة مأدبة فاخرة في هرات دعى إليها حسن علي ميرزا وسلمه مفاتيح خزائنه .

وفي أثناء هذه الفتن استفحل أمر رنجيت سنك الوثني الذي سبق ذكـره حتى استـولى على ولاية كشمير على غيبة من محمد عظيم خان واليها ، حيث ذهب إلى كابل لزيارة أخيه دوست محمد خان . وفي سنة ١٢٤٥ أرسل كامران سفيراً إلى الشاه ليستعين به على أبيه محمود ثانياً ، فصادف وصول السفير إلى إيران وفاة أبيه بمرض الوباء . وتلاقى هذا السفير مع فيروز الدين الذي ذكرنا أنه حبس في قندهار ، وكان قد هرب منها إلى إيران في فتنة فتح خان ، فاتفق معه على خلع كامران وإجلاسه على كرسي هرات ، وأغراه بأن يستعين بالشاه على ذلك . وبعد ما أبرما أمرهما ، وجهزا بعضاً من الجيوش ، وقفلاً إلى هرات ، وقعت في أثناء الطريق منازعة بين خدم فيروز وبعض الإيرانيين ، فخرج لمساعدة خدمه

فقتله الإيرانيون على غير علم منهم .

وفي سنــة ١٢٤٨ عزم عباس ميرزا على أن يفتح هرات فأرسل إبنه محمد ميرزا مع عسكر جرّار ، اليها . ووقعت محاربات شديدة آلت إلى محاصرتها . وكان سفير الانكليز (مستر كميل) وقتئذٍ قد سعى سعياً بليغاً لمنع هذه المحاربة ، ولكن خاب مسعاه . وبينما كان محمد ميرزا محاصراً لتلك المدينة إذ بلغه موت أبيه ، فرأى من المصلحة أن يطلب المصالحة مع كامران ، فوقع هذا الطلب عند كامران موقع القبول ، وحوّل أمر المصالحة على وزيره (يار محمد) الذي كان إذ ذاك محبوساً عند الإيرانيين في مشهد . فعقدت المصالحة على أن تضرب السكة في هرات باسم فتح علي شاه ، وأن يدفع له كامران في كل سنة خمسة عشر ألف تومان .

ولمـا علم الانكليـز أن دخـول الممالك الأفغانية في حوزة الإيرانيين يستعقب زوال سلطتهم في الهند جهزوا شاه شجاع ، وأيدوه بعساكر من لدنهم ، وأوعـزوا إلى رنجيت سنك الوثني وأمير السند « مير غلام علي خان » بتأييد شاه شجاع فَلَبيًّا دعوتهم ، وإن لم يكونا تحت سلطتهم ، فأيداه وعزّزاه بالعساكر ، حتى تمّ له من العساكر نحو ثلاثين ألفاً وتقدم بهم إلى قندهار من طريق بنجاب ، فقابله كهندل خان وإخوته وقاتلوه ، فهزموه شر هزيمة ، وفرّ إلى هرات ، واستنجد ابن أخيه كامران ، فأبى . وبعـد معـانـاة مشـاق كثـيرة وصـل إلى بلاد بلوج ومنها إلى الهند . (والحـاصل أن شره تيمور شاه وإنهماكه في الشهوات ، وحرصه على اللذات ، وكثرة أولاده من أمهاتٍ مختلفةٍ ، أوجب سلب الراحة ، وزوال الأمنية عن الأهالي ، وسفك دماء ألوف من الناس ، وحرص كل من أبنائه على الملك تسبب عنه حرمان الجميع) .

وفي سنة ١٢٥٠ عزم كامران على فتح سجستان . فالتجأ أميرها إلى محمد شاه ابن عباس ميرزا فاتخذ الشاه ذلك وسيلة إلى فتح هرات فجهز جيشاً وسار إليها ، وحاصرها زمناً طويلاً . وكان الأفغانيون يخرجون من الحصار ، ويهاجمون عساكر الشاه ببسالة غريبة . ولما اشتدّ الأمر على كامران أرسل إبنه نادر ميرزا إلى « ميمنة » و « شبرغان » ليدعو الأزبك وهـزاره ، فأجابوه دعوته ، وجهزوا جيشاً عظيماً ، وساقوه ، إلى هرات لرفع الحصار عنها ، ووقعت بينهم وبين عساكر الشاه محاربات كثيرة

قتـل فيها جمعٌ كثير من الطرفين ، ثم استظهرت عساكر الشاه عليهم فاضـطرب لذلك كامران . واستشار وزيره في أمره ، فانحطّ رأيهما على المنـاداة بالحـرب الدينيـة . فتوسلا بمُلّا عبد الحق أحد علماء هرات العظام ، فقام يوم الجمعة ، وأذّن في الناس بالجهاد الديني ، فلباه أهل المـدينة وسكان القرى القريبة منها . فاغتسلوا غسل الجمعة وقصوا أظافـرهم ، ولبسوا أكفانهم ، وخرجوا يهجمون على إعدائهم ، وأوقعوا بهم ، وقتلوا كثيراً من أعيان الإيرانيين إلّا انهم لم يقدروا على إجلائهم فرجعوا إلى البلد .

وبعد أن طال زمن الحصار توجه سفير الانكليز (مكنيل) من طهران إلى المعسكـر . وبعد أن تقابل مع الشاه ، ورأى أن إفتتاح المدينة قد قرب ، وفي علمه أن ذلك يوجب إنقياد الأفغانيين وإتحادهم معه ، وفيه من المضرّة بسلطتهم في الهنـد ما لا ينكر ، قال للشاه : « دعني أدخل المدينة ، وأرضي كامران بالتسليم » فأذن له الشاه ظناً منه أنه صادق فيما يدعي . فلما دخل المدينة ، ولاقى كامران أخذ في تشجيعه وتثبيته ، وقال : « لا يصح لك أن تسلم أصلاً وإنك إن تَثَبَّتت قدماك زمناً ما نرسل لك المدافع والبنادق والذخائر » وأوثقه على ذلك ، ثم خرج ، وقال للشاه : « إنني كلما هدّدته هو وعساكره أو رغّبتهم ، لم ينجع مقالي فيهم ، ولم يرهبـوا لتهـديدي ، ولم يطمعوا لترغيبي ... » . وبعد ذلك أمر الشاه بجمـع النحـاس الموجود في المعسكر ، فعملوا منه مدفعاً كبيراً هائلاً ، ورفعوه على تلٍ عالٍ ، وسلّطوه على المدينة ، وأخذوا في إطلاقه فاشتد البـلاء على من فيهـا مع شدّة القحط والغلاء ، حتى أنهم أخرجوا من الضعفاء والفقراء نحو أربعة عشر ألفاً ، فأرسل كامران سفيراً لعرض التسليم . ولما إستشعر بذلك سفير الإنكليز اضطرب ، وأرسل إلى كامران سرّاً يطلب منه التثبت ، ويعده بأنه سيرفع هذا البلاء عنه ، ثم ذهب إلى الشـــاه وقـال له : « إن بين انكلتـرا ودولتكم مودّة ، وإن فتـح هرات يستوجب ثوران الفتنة في الهند ، فأرجو منكم أن تكفوا عنه » . فلم يقبل رجاءه .

ولمـا سئم الشــاه من طول المحـاصرة ، ركب جواده ، وتقـدم أمام العســاكر ، ونادى فيهم بالهجوم على المدينة ، فهجمت العساكر دفعة واحدة ، واطلقت المدافع عليها ، فتهدّم كثير من أسوارها ، وكادت تفتح ،

لولا أن السفير الانكليزي تقدم إلى الشاه وقال : « إنني أتوسل إليكم أن تأذنوا لي في الذهاب إلى المدينة ثلاثة أيام حتى آتي بكامران ووزيره وأسلمهما لكم بدون سفك دماء وسلب أموال . ولمجد انكلترا لا تردّوا رجائي هذا » . فأذن له الشاه بذلك لمجد انكلترا . ولما اتصل بكامران وشيعته أعطى لهم خمسة آلاف جنيهاً ، وقال : « إن الحرب قد وضعت أوزارها ثلاثة أيام فأقيموا ما انهدم من الأسوار وتثبتوا إلى أن تأتي مراكبنا من خليج فارس » ولما اطلع الشاه على ذلك طرده من المعسكر . وبعد ذلك احتدّ الشاه واضطرمت نيران غضبه وأعاد الهجوم على المدينة . وحمى وطيس الحرب ، وثبت الأفغانيون في المدافعة . وبلغ من أمر الإيرانيين أن كانوا يصعدون إلى رأس القلعة والأفغانيون كانوا يدافعونهم عنها وكثرت القتلى بين الطرفين .

وفي أثناء تلك الملحمة جاءت مراكب الانكليز في خليج فارس ، واستولت على جزيرة خارق ، فلما بلغ الخبر مسامع الشاه ، رأى من الأولى به أن يترك المحاصرة ، ويشتغل بمدافعة الانكليز عن بلاده . وكان سائر مأموري الانكليز مدة المحاصرة يحثون أمراء كابل وقندهار على حرب الإيرانيين ، ويحملون العلماء بالدراهم والدنانير على المناداة بالحرب الدينية ، ولكنهم لم ينجحوا في مساعيهم . ولقد طالت مدة هذه المحاصرة عشرين شهراً ، وكان ذلك سنة ١٢٥٥ .

ولما علم الانكليز من أمراء الأفغانيين الميل إلى الإيرانيين ، إذ كان (دوست محمد خان) أمير كابل و (كهندل خان) والى قندهار وسائر إخوتهما الذين نالوا الملك بعد تفرّق كلمة أبناء تيمور يراسلون الشاه في خلال محاصرته لمدينة هرات ، ويوادّونه ، ويرسلون السفراء إليه ، توجسوا من ذلك شرّاً خيفة إتفاقهم الذي يوجب تقلص ظلهم من بلاد الهند . فأخذوا إذ ذاك يترقبون فرصة لإستيلائهم على بلاد الأفغان . فلما أحسوا من الأفغانيين النفور والإشمئزاز من أمرائهم الجدد ، رأوا إذ عَنَّت لهم الفرصة أن يتخذوا شاه شجاع واسطة يتوسلون بها إلى غرضهم من الاستيلاء على تلك البلاد . فجهزوه في جيشٍ جرارٍ مؤلف من جنودٍ منتظمةٍ وغير منتظمة تقودهم المهرة والأمراءُ ذوو المراتب السامية والمناصب الرفيعة من الانكليز . فسار شاه شجاع بذلك الجيش من طريق البلوج وسجستان إلى قندهار ، وكان قد تقدم هذا الجيش

رجال يدعون الأفغانيين إلى شاه شجاع ، ويذكرونهم بأنه الوارث الحقيقي للملك ، وهو أحق بالسلطنة ، ويحثونهم على التخلص من سلطة هؤلاء المتغلبين عليهم ، ولما وصل الشاه إلى قندهار رأى واليها كهندل خان أن لا طاقة له على مقاومته لقلة جيوشه وشدّة ميل أهل المدينة إلى الشاه فخرج هو وعائلته في خمسمائة من خيالته ، وقصد طهران فأكرم محمد شاه مثواه وقلده ولاية (شهر بابك) من بلاد فارس .

ثم إن شاه شجاع جعل (تاو) الانكليزي والياً على ولاية قندهار . وبعد ذلك سار بجيشه إلى كابل ، وفتح في مسيره مدينة قزنه . وبعد وصوله إلى كابل لم يجد دوست محمد خان أميرها من نفسه قوة على المقاومة ، ولا إقتداراً على المصادمة فاضطر إلى الخروج منها ، وقصد بخاري ليستعين بأميرها ، فلم ينجح قصده ، ورأى منه عدم الاحتفال به ، بل الإهانة والتحقير ، فانقلب راجعاً وسلم نفسه إلى الانكليز ، فأخذوه أسيراً ، وبعثوا به إلى كلكوتا . أما شاه شجاع فقد جعل (ميجر باتنجر) من أعيان الإنكليز والياً على كابل ، ثم استولى على جلال آباد بدون منازع ولا ممانع . وبعد هذا أرسل الانكليز (بنت جركه) في عشرين خيالاً من الانكليز مع ثلاثمائة ألف جنيه إلى كامران ليعطيه إياها ، ويدعوه إلى إجابة دعوة شاه شجاع ، فقبلها وأبقى الرسول الانكليزي ، ومَن معه عنده ، حتى أنفق ذلك المبلغ في تحصين القلاع والاستحكامات وجمع الذخائر ، ثم طردهم جميعاً ، وبعث أثر ذلك إلى محمد شاه يعتذر له عما فرط منه في حقه ، وقبل أن يخطب ، ويضرب السكة باسمه . وكان ذلك سنة ١٢٥٧ . وعلى كل حال قد استتب الأمر وتوطدت السلطنة في غالب أنحاء البلاد الأفغانية لشاه شجاع ، لكن صورةً ، وللإنكليز معنىً ، حتى أيقن الإنكليز كافةً أن البلاد الأفغانية آلت إليهم ، وصارت جزءاً من ممالكهم ، يستحيل تملصها من أيديهم ، وقد لبثوا فيها ثلاث سنين وبضع شهور .

ثم في شهر جمادي الثانية سنة ١٢٥٨ أرسل شاه شجاع أشخاصاً يحصلون أموال الجباية من بعض القبائل ، فأبوا دفعها ، واستعصوا ، وتمرّدوا ووقعت بينهما مناوشة جزئية . فلما بلغ شاه شجاعاً خبر تمرّدهم أرسل جماعة من العساكر لكبحهم ، وتأديبهم ، فلما رأى المتمرّدون من

أنفسهم عدم الإقتدار تبدّدوا في قلل[173] الجبال . وفي غرّة رجب خرج من مدينـة كابل ثلاثة من خوانين (جمع خان) الغلجائي ، وانضمّ إليهم جمـاعـة من القبائل ، وأخذوا في شن الغارة وقطع الطريق ، ينهبون ، ويسلبون ، واتخذوا لهم إستحكاماً في موضع على مسافة ثلاثة فراسخ من كابل . وصار الطريق منها إلى الهند مقطوعاً .

وفي أثناء ذلك اتفق أن محمد أكبر خان الذي كان بعد أسر أبيه دوست محمد خان يجوب المدن ويجول في البلاد وَرَدَ مع جماعة من رجاله على مدينة باميان ، فاجتمع به هؤلاء وانضمّ إلى الجميع أيضاً جماعة من طائفة الغلجائي الذين كانوا قد فرض لهم الانكليز راتباً ثم قطعه عنهم حكمدار الانكليز في الهند ضناً وشحاً ، فاشتدّت الفتنة وعظم الخطب فبادر الانكليز بارسال (مكننكتن) و (منتس) مع جماعة من العساكر لتدارك الأمر وكف شر هذه الفتنة . ولما زايلوا كابل ، وصاروا على مسيرة ثلاثـة فراســخ منهـا خرجت عليهم شرذمـة من طائفـة الغلجـائي ، وصادروهم ، وقتلوا منهم نفراً ، فوقف الجيش عن المسير ، ثم لحق بهم الجنـرال سيـل ، مع أفواج من العساكر ، بقصد مبارزة محمد أكبر خان ، ولكن كانوا في غاية الرهبة والخوف من إغارة الأفغانيين . وفي ليلة عشرين من رجب بعثوا يطلبون مدداً من العساكر أيضاً فوصلهم المدد وقصدوا مكمن محمد أكبر خان ووقعت بينهم وبين الأفغانيين ، في أثناء الطريق ، محاربة استمرت يومين . ولم يظفروا به . وفي خلال ذلك كان شاه شجاع قد سجن شخصاً اسمه حمزة خان الغلجائي فهاجت خواطر الغلجـائيـين ، وثـار منهم ثلاثـة آلاف ، وسـدّوا طرق كابل من سائر أطرافها ، فخرج ميجر كريفس خارج المدينة ، ووقع القتال بينه وبينهم ، وقتل جماعة من أكابر الانكليز .

وفي غرّة شعبان هاج أهل المدينة وغلّقوا حوانيتهم ، وهجموا على منزل اسكندر برنس ، وفتكوا به ، وصلبوه على قارعة الطريق ، ثم انصبوا على خزينة الحكومة فنهبوها ، وكانت الخزينة إذ ذاك تحت نظارة جانسن . ولما سمع شاه شجاع وهو في (بالاحصار) بما كان من الأمر أرسل إبنه في رجال من الجند ، ومعهم مدفعان ، لكن لم يجد ذلك في إطفاء نار الفتنة نفعاً .

---

(١٧٣) قلل الجبال : قممها وأعاليها .

ثم هجم الأفغانيون في الرابع من شعبان فاستولوا على (باغشاه) وقلعة (محمد شريف) ، ووضعوا حامية لقطع المواصلة بين القلعة التي احتكر فيها الانكليز ذخائرهم وبين إستحكاماتهم ، وكانت عبارة عن رصيف يبلغ ألف ذراع طولاً وستمائة ذراع عرضاً . وعمدوا بعد ذلك إلى قلعتهم المذكورة فحاصروها ، وكان بها (أنسن وارن) مع فوج من الهنود وطائفة من الحرس ، لكنهم لم يستطيعوا فك حصار الأفغانيين عنها ، حتى رضي الانكليز بترك القلعة لهم ، وإنما أرسلوا (كابتان سوين) مع طائفة من العساكر لإستخلاص انسن وارن وإنقاذه من أيديهم ، لكن الأفغانيين أوقعوا بهم إيقاعاً ، فقتل كابتان سوين وكثير ممن كانوا معه ورجع الباقي منهزمين إلى المعسكر . ثم أرسلوا (أنسن كارون) مع جماعةٍ أيضاً من العساكر لإنقاذه ، فلاقوا ما لاقاه الجيش الأول .

ثم ذهب (كابتان بويد) عند سردار عموم العساكر وقال : « لو سلمت القلعة إلى العدو فإنه فضلاً عن أننا نخسر نحواً من خمسين ألف جنيه قيمة مافيها من الذخائر لم يبق لدينا من القوت ما يكفينا سوى يومين . فماذا نصنع وليس بالسهل جلب الأقوات والذخائر لبعد الشقة ؟ » . ولما وعى السردار ما قاله له كابتان بويد أرسل إلى أنسن وارن ليثبته ، ويأمره بأن يقاوم ما استطاع ، وأن يحذر من تسليم القلعة ، ويعده بأنه سيدركه عما قليل بالمدد . فأجابه أنسن وارن بأنه : « إذا لم يدركنا المدد هذه الليلة فلا نجاة ، ولا مخلص لنا من يد العدو ، إذ أخذ ينقب علينا أحد أبراج القلعة حتى اشتدّ الخوف ، وتمكنت الرّهبة من قلوب رجالنا ، وحتى أن بعض الحامية ألقى بنفسه من القلعة رهبةً ووجلاً ، فإن لم تدركونا الليلة بتنا في قبضة عدونا » . ولما وصل هذا الجواب جمع السردار رؤساء الجيش وأمراءه ، وتفاوض معهم ، مستمداً من رئيسهم حيلة يتوصل بها إلى تخليص القلعة ونجاة حاميتها من بلاء العدو ، فأجمعوا أمرهم على إرسال المدد في ليلتهم ، إعتماداً منهم على أن الأفغانيين يجهلون وجوب الحراسة ، ولزوم التيقظ والإنتباه ، لكن رأوا من الإحتياط أن يبثوا الجواسيس أولاً ليأتوهم بحقيقة أمرهم . فأرسلوا كابتان جان ، فلم يلبث أن غدا عليهم بما آيسهم من إمكان إيصال المدد . إذ رأى الأفغانيين على يقظة يتشاورون في أمر الاستيلاء على

القلعـة في تلك الليلة ، فأضربـوا عن إرسال المدد . وعند الفجر زحف الأفغـانيـون على القلعـة ببـأسٍ وإقـدامٍ شديدين ، وأحرقوا بابها ، فخـرجت حاميتها من الباب الآخر ، وهربوا إلى معسكرهم . فاستشاط الانكليز من ذلك غيظاً ودعتهم خشية العار ومخافة الجوع إلى أن يبعثوا بجيش إلى قلعة محمد شريف ليستولي عليها تحت قيادة ميجر . فأخذ ذلك القـائد حين ما شرع الجيش في المسير يروغ حيناً ويتوارى حيناً آخر . فلما رأى الانكليز منه ذلك أجلوا مسيره . وفي الغد جهزوا جيشاً تحت قيادة (كريفتس) وسار ، فاستولى على قلعة محمد شريف ، وعلى نصف باغشاه ، بعد حرب قتل فيها عبد الله خان . وقاتله كان كابتان انـدرس . ثم داخـل الأفغـانيـين الحماسة ، وأظهروا البسالة ، حتى استردُّوا ما أُخذ من باغشاه وفتكوا بالانكليز ، وقتلوا منهم عدداً كثيراً .

وفي اليوم الثامن من شعبان انضمّ « قزل باشا » كابل إلى الأفغانيين ، وأخذوا في ثغر قلعة محمد شريف ، فغلب الخوف على الانكليز ، واستولى عليهم من الطيش والدهشة ما لا مزيد عليه . وفي خلال ذلك مرض سردار عموم العساكر الانكليزية ، فرأى الوزير المختار الانكليزي (أي الحاكم العمـومي أو القنصـل) وكان اسمه « سير وليم » أن يقيم مقام هذا السردار أحداً سواه . فاستدعى لذلك « بريك دير مشيل تان » فأجابه . وجمع من كان في بالاحصار من عساكر الانكليز وعساكر شاه شجاع ، وقادهم إلى الاستحكامات . وعند وصوله فبدلاً من أن يشجعهم ويثبت أقـدامهم ، قام في المعسكر وقال : « إعلموا أن لا طاقة لنا على مقاومة الأفغانيين . ولو ثبتنا لاستأصلوا آخرنا فالأجدر بنا أن ننجلي عن هذا المكان ، ونلحق بجلال آباد ، ونتحصن فيها » فأجابه السردار قائلاً : « إنا لن نبرح من هاهنا . بل لا نزال ندافع عن أنفسنا ما استطعنا . فإن خروجنـا ، ومقابلتنا الأفغانيين بالبادية ما هو إلا أن نلقي بأنفسنا في أفواه الآساد » فزاد اختلاف الكلمة بينهم خوفهم وضاعف وجلهم . وكان من أمر الأفغانيين في هذه الأثناء أن استولوا على المرتفعات المشرفة على المعسكـر شرقاً وغرباً ، وعلى برج (ريكاباش) ، وأخذوا يمطرون على الانكليز كرّات المدافع ، ويصبون على رجالهم رصاص البنادق . فبادر الوزير المختار إلى استنهاض (شلتان) ، وأمره في الحال بالحملة على قلعـة (ريكـاباش) ، فتأهبت العساكر ، وهمت بالخروج من الجانب

الشرقي ، فضل (كبتان بلو) الطريق بمن قادهم ، وخرج من جانب آخر . ففاجأه الأفغانيون ، فارتعدت فرائصه ، ونزل به ما تمنى الموت دون لقياه ، فأوقعوا به ، وقتلوا من رجاله مقتلةً عظيمة . فهمّ « كولونيل مكرلان » و « ليفتنانت برت » بأفواجهما لاستنجاد (كابتان بلو) فحال الأفغانيون بينهما وبينه ، ووضعوا السيف في العسكرين جميعاً . وإذ رأى شلتان هذا الهول دبت فيه الحمية ، فأمر الجيش عموماً بالحملة على الأفغانيين ، فهاجموهم دفعة ، فصُدّوا ثم عاودوا الهجوم ، فرُدّوا ، ثم استأنفوا الهجوم . وفي هذه الكرّة لم يبق منهم في قيد الحياة إلّا (ليفتنانت برت) ورجل آخر . ولم تخسر الأفغانيون في تلك الواقعة الهائلة إلا ثلاثين فارساً . ووفق الانكليز بخلال كرّهم وفرّهم في هذه الواقعة أن استولوا على قلعتي (ريكاباش) و (ذي الفقار) ، وأصابوا فيها مقداراً من الحنطة فأخذوا أن يجمعوه ويذهبوا به إلى معسكرهم . ولكن لم يلبثوا أن أقبل الليل ، وهاجمهم فيه الأفغانيون وثغروا هاتين القلعتين عليهم ، وتمّ استردادهما ليلاً ، وأجلوهم عنها منهزمين .

وفي الثالث عشر من شعبان قامت طائفة من الأفاغنة ، ووضعت ثلاثة مدافع على رابيةٍ مشرفة على المعسكر الانكليزي من الجانب الغربي وأطلقوها عليهم . فالوزير المختار أمر (شلتان) أن يخرج إليهم (ميجار شتوين) فخرج في فريق من العساكر ، حتى صار على مسافة اثنتي عشرة ذراعاً من مشاة الأفغان ، فوقع القتال بينهما ، وثبت الأفغان يومهما ، وأبلوا بلاءً حسناً . لكن لما حمى الوطيس ، عاد فرسانهم ، فاضطربت مشاتهم إلى الرجوع ، فاستولى الانكليز على الرابية ، وكسروا عجلة أحد المدافع الثلاثة ، وأخذوا الاثنين الباقيين إلى المعسكر ، فارتاحت لذلك خواطر الانكليز بعض الارتياح . وكاد أن يعاودهم بعض ما فقدوا من النشاط ، لولا أن جاءهم من قِبَل الجنرال (سيل) الذي كان مقيماً في جلال آباد خبر بأن ليس في طاقته أن يمدّهم قبل مضيّ فصل الشتاء ، فقنطوا . لكن رأوا حرصاً على الحياة أن يتحيّلوا لأخذ إستحكام محمد خان إذ كان هو المانع من وصول الذخائر إليهم من بالاحصار . فأقعدهم عنه (استورث) المهندس بقوله : « لا طاقة لعساكر الانكليز على المقاومة بعدُ » فعدلوا إلى رأيٍ آخر ، وهو أن يستولوا على قرية (بيجارو) التي كانوا يتداركونَ منها أقواتهم . فأرسلوا (ميجار

شتوين) مع عددٍ وافرٍ من العساكر ، فوجد الأفغانيين قد سبقوهم إلى الاستيلاء عليها ، فاقتتلوا هناك حثيثاً . وكانت الدائرة على الانكليز ، فنكصوا على أعقابهم خائبين وقد جُرح كثير من ضباطهم .

وفي الثامن والعشرين من شعبان قدم محمد أكبر خان من باميان إلى كابل ، وتواطأ مع الأفاغنة على كلمةٍ واحدة . وفي ذلك اليوم بعينه أجمع الانكليز رأياً على الاستيلاء على قلعة بيجارو فأمر الوزير المختار شلتان بالمسير إليها فسار هو وميجار شتوين وميجار قارش في أفواجٍ من العساكر حتى بلغوا محلاً مشرفاً على تلك القلعة ، وكان معهم مدفعٌ واحدٌ ليس غير ، ولم يكن في القلعة سوى أربعين رجلاً . ثم إن شلتان ندب ميجار شتوين ، غير مسلوك ، فأوقع بهم هناك حتى قُتل منهم جماعةٌ وجُرح ميجار شتوين . وإذ رأى شلتان تلك النازلة أمر ميجار قارش ومئة من المهندسين أن يسارعوا إلى وضع استحكام يقيهم من بلاءِ العدو ، فقبل أن يتمموا وضعه ، أبصروا عشرة آلاف رجل من أهل كابل على جبلٍ مشرفٍ عليهم بحيث يصلهم رصاصهم . ففي الحال أمر « كولونيل اوليور » أن تتأهب تلك العساكر ، وتنتظم على شكل قلعةٍ وتصطف الخيالة من خلفهم ، ويهجم الجميع بهذا الانتظام على الأفغانيين المذكورين . فعاجلتهم خيالة الأفاغنة بالهجوم على ميمنتهم وحاصروا (ليفتننت واكر) وجُرح من الأفغانيين أحد عظمائهم ، ثم عمموا الهجوم عليهم من ثلاثة جوانب فضايقوهم ، وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً ، فطلبوا إلى الفرار سبيلاً ، إذ أن خيالتهم قد جُبنوا عن الهجوم حينما أمرهم به القائد ، ورجعوا القهقري ، فاستولى الأفغانيون على مدفعهم وذخائرهم ، واختاروا العود إلى البلد نظراً لكون أحد عظمائهم المذكور أصبح جريحاً . فاختلس الانكليز هذه الفرصة ، وأسرعوا إلى الجبل ، فاسترجعوا مدفعهم ، وأطلقوه على ظهور الأفغانيين فانقلبوا عليهم وهاجموا مهاجمة الغيظ والحنق ، فتبدّد شمل الانكليز ، وتفرّقوا ، وولّى من بقي منهم الأدبار فرداً فرداً . وما برح الأفغانيون يطاردونهم حتى أوصلوهم معسكرهم العمومي ، ولم يصدّهم عنهم إلّا جدران الإستحكام . ولما اشتدّ على الانكليز الكرب ، وعظم بهم الخطب ، جنحوا للسلم فأرسل الوزير المختار إلى الأفغانيين رسولاً يدعوهم مستعطفاً إلى المسالمة فقالوا : « نجيبكم على شرط أن لا يلبث في بلادنا من جنس

الانكليز ولا واحد » ثم اقترحوا عليهم أيضاً أموراً لم يجد الوزير المختار سبيلاً إلى قبولها وكبر عليه الرضاءُ بها . فقام من مجلس رسُل الأفغانيين وهو يقول : « إن يوم القيامة لقريبٌ . وسيجمعنا الميعاد ، ويتبين الظالم من المظلوم ويتميز الحق من الباطل » ثم بعد ذلك وقعت بينهم مناوشاتٌ استردَّ الأفغانيون فيها قلعة محمد شريف في السادس من رمضان . فضاقت الانكليز ذرعاً . ورأت أن لا محيص من المسالمة طوعاً أو كرهاً فكتب الوزير المختار سجلاً ينطوي على معاهدةٍ بينه وبين الأفغان ووقّع عليه هو و (شيلتان) و (دنيكتل) و (جميرنر) .

وفي الحادي عشر من رمضان خرج هذا الوزير مع (كابتان لارنس) و (ترذر) و (مكنيزي) وعدد من رجاله إلى قرب جبل (سياه سنك) وعقد هناك مجلساً مع جماعة من أكابر الأفغانيين ، ثم قام فيهم خطيباً ، وقال مستميلاً عواطفهم إليه : « إنا معشر الانكليز طالما عزّزنا الأمير دوست محمد خان ، ورفعنا شأنه وأكرمنا مثواه في كل مكان » ثم أبرز السجل ، وعرضه على المجلس وكان مضمونه : « على الانكليز أن تخلي قندهار وقزنه وكابل وجلاد آباد وسائر البلاد الأفغانية على شرط أن يعطيها الأفغانيون رجلاً من أكابرهم رهناً حتى تخرج من تلك البلاد بسلام ، وإذا وصلت العساكر الانكليزية إلى الهند بادروا بإرسال الأمير دوست محمد خان . وعلى الأفغانيين أن يرتبوا لشاه شجاع (لَكْ روبية) يأخذها سنوياً أينما كان سواء أقام في أفغانستان أو خرج منها . وعلى الانكليز أن لا تدخل عساكرهم في بلاد الأفغان الّا برضى أهلها »

ولما رُفع هذا السجل إلى محمد أكبر خان ، فبعد الجرح والتعديل فيه ، قرّر أنه يجب على الانكليز أن تخلي سائر البلاد والقلاع في مدّة ثلاثة أيام ، وهو يجري عليهم فيها الميرة والمؤونة . فشرعت الانكليز على عجل بنقل العساكر من بالاحصار وإخلاء القلاع ، مع ذلّ ومسكنة لا مزيد عليها . على أن محمد أكبر خان لم يوف بوعده متعللاً بأنه لا تطيب نفسه بإجراء المؤونة عليهم ما لم يخلوا القلاع بالمرة .

وفي الثامن عشر من رمضان نزل الثلج عليهم فتضاعفت مصيبتهم ، فاضطروا لإخلاء قزنه ، واستحضار عساكرهم .

وفي العشرين منه عقد الوزير المختار مجلساً مع الأفغانيين لحسم الأمر ، فطلبوا منه أن يعطيهم نصف ما مع العساكر الانكليزية من

المدافع والجبخانة فدان لطلبهم رغماً ، ورضي به عجزاً ، بل زاده أنه سلمهم (كابتان كيلي) و (كابتان ابري) رهناً على وفائه بما طلب منه .

وفي الثاني والعشرين منه جاء (مستر اسكنير) الذي كان أسيراً عند محمد أكبر خان إلى الوزير المختار . وأخبره أن محمد أكبر خان يبتغي منه أمراً عسيراً فارتبك وانعقد لسانه ثم قال : « وهو أنه يريد أن تسير إليه أنت ، ووجوه ضباط العساكر ليفصم معكم الأمر مرّة واحدة » فلما وعى ما سمع لم يجد بدأ من الطاعة لكنه خشي عاقبة الغدر ، فنادى في العساكر بالتأهب والإستعداد خارج الإستحكام . ثم سار هو ورؤساء العساكر إلى تلّ ، حيث ينتظرون قدوم محمد أكبر خان ، فلم يلبث أن حضر مع بعض من خوانين الأفغان ، وأخذ يفاوض الوزير المختار . وكل من الخوانين كان يفاوض رئيساً ممن معه من ضباط العساكر . ثم أخذت خيالة الأفغان تتوارد عليهم فرادى فرادى ، ومثنى مثنى ، وعما قليل صرح محمد أكبر خان على قومه بأن يبطش كلّ منهم بمن يفاوضه ففعلوا . أما الوزير المختار فقد قطعت يده وجرّ وهو يستجير ويستغيث ويصيح : « وا ويلاه وا غوثاه » . ثم جزّوا رأسه وطافوا به في أزقة كابل وصلبوا (تروار) على قارعة طريقها . وأما (لفتننت ابري) وهو الذي روى خبر هذه الواقعة وأبان فيما كتب سخافة عقول الانكليز وجبن قلوب أمرائها وضعف آرائهم فقد وقع أسيراً في يد محيى الدين الأفغاني ثم هو مثّله بين يدي محمد أكبر ، فنظر إليه بعين يتقاطر منها الغضب وخاطبه بقوله : « أكنتم طامعين أيها الانكليز في بلادنا ؟ أرأيتم ما حلّ بكم جزاءً عقاباً ؟ لكنني عفوت عنك فليس لي بقتلك حاجة » . ثم وكل أمر حفظه إلى مُلّا مؤمن .

ثم إن (ميجر بتنجر) الذي خلف الوزير المختار المسمى (سير وليم) همّ بافتتاح أمر الصلح ثانياً مع الأفغانيين فقالوا : « نجيبك على شروط » ، الأول أن تترك العساكر لنا مدافعهم ولا يبقى لهم سوى ستة ، الثاني أن تسلم لنا الأموال والأدوات والأثقال المتعلقة بالخزينة ، الثالث أن تعطينا جماعة من كبراء الانكليز بأولادهم وزوجاتهم رهناً ، الرابع أن توفي بما كان الوزير المختار وعدنا به من إعطائنا أربعة عشر لَكاً من الروبية ، فلما سمع هذه الشروط ورأى أن المقام مقام لا تروج فيه الحيل الثعلبية التي تعوّدها الانكليز ، بل هو مقام الطعن والضرب ، ومجال

السيف والرُّمــح ، لم يجد له محيصاً من قبولها ، وإن كانت شاقة ولا ترضى بهــا نفس حرّة . نعم ، إن الجنرال (الفستون) أراد أن يظهر الشمم والحماسة ، فانتفخ انتفاخ الهرّة ، لكن انتفاخه لم يؤثر في دم الانكليز من الحرارة أثراً ، بل تواطأ أمراء العساكر في التاسع والعشرين من رمضــان على إعـطاء (كابتان درمند) و (كابتان وانسن) و (كابتان واربــرتن) و (كـابتــان دب) مع نســائهم وأولادهم رهنــاً ، ثم جعلوا المجـروحــين في منــزل أحـد الأفغانيين ، وتركوا معهم بعض الأطباء ، وسلموا الأفغانيين خمسة من المدافع السلطانية .

وفي اليوم السادس من شوّال تجهزوا للرحيل ، وساروا بتسعة مدافع واثني عشر ألفل جمل تحملهم رجالاً ونساءً وأطفالاً ، وفي خلفهم العساكر المشاة يسيرون على أرجلهم ، فوصلوا إلى نهر يلزمهم إجتياز، وليس عليه سوى قنــطرة ، فبعد أهوال وأوحال وموت كثير منهم إجتازوه ، وقطعوا مســافة ما إلى أن وصلوا إلى (بكران) . على أن الأفغانيين لم يتركوهم وبلاءهم . بل اقتفوا أثرهم كالذئاب الجائعة ينهبونهم ويسلبونهم حتى أخذوا منهم مدفعاً آخر ، وقدّموه إلى محمد أكبر خان . ثم إن محمد أكبر خان عاد ، وشرط عليهم أن يسلموه ستة أشخاص أيضاً من كبرائهم ، فأجابوه وعاهدوه على أن لا يطلقوا بندقية واحدة ، ولا يشهروا سلاحاً على أفغــانيّ بشرط أن لا يتعـرّضــوا إليهم بالإيذاء ولا إلى أقواتهم بالنهب والسلب ، ووصلوا بعد زمن قصير مصحوبين بهذه الذلة والمسكنة الى (بث خاك) .

وفي اليوم الثامن من شوّال أعاد الأفغانيون إطلاق الرصاص عليهم فهمّ (ميجر شتوين) بأن يدافع فلم يقوَ . ثم طلب محمد أكبر خان منهم جماعة أخرى رهناً فوق مَن أخذهم فسلموا ، حتى سلموا ، ووصلوا إلى الطريق الموصل إلى (خورد كابل) ، وهو عبارة عن شِعْب يمتدّ بضعة أميال طولاً ، والمسلك الذي يجب إجتيازه هناك واقع في سفح جبل يكتنفه من أحـد جانبيه نهرٌ ينحط عنه بستين ذراعاً وقمة الجبل من الجانب الآخر . فأدركهم هناك الأفغانيون وحاصروهم وأخذوا منهم مدفعاً ولم يصلوا إلى قرية خورد كابل ، حتى قتلوا منهم ثلاثة آلاف شخص وسلبوا جلّ ذخائرهم .

وفي اليوم التاسع من شوّال الذي كانت الأحياء فيه تحسد الأموات ،

جاءهم وهم يريدون الرحيل خبر من عند محمد أكبر خان وهو أنه التزم صيانة النساء والأطفال والجرحى فداخلهم بعض الإطمئنان من هذا الخبر .

وفي اليوم العاشر منه فاجأهم الأفغانيون وهم على أهبة المسير ، وأحاطوا بهم فسدّوا عليهم المسالك ، ووضعوا فيهم السيف . ولم تستطع الانكليز حراكاً بل كانت عساكرهم الهندية تلقي بأسلحتها وتطلب الفرار . ولكن لا تجد سبيلاً ولا منقذاً من دائرة المنايا . ولم ينته بهم السير إلى (قبر جبار) إلّا وقد إستأصلهم السيف وسلبت أمتعتهم وأموالهم وذخائرهم ، ولم يبق مع من بقي منهم سوى مدفع واحد ، وقد غص معبر (هفت كتل) بجثث القتلى .

وبالجملة فقد قتل من عساكرهم المنتظمة خاصة من يوم خروجهم إلى يوم وصولهم الى (كترسنك) اثني عشر ألفاً . أما عدد من قتل من العساكر غير المنتظمة فعلمه عند الله . وفي ليلة بلوغهم إلى (كترسنك) أسرت جماعة منهم ، وسلب المدفع الذي كان باقياً معهم .

وفي اليوم الحادي عشر منه خرجوا من (كترسنك) إلى (جكدلي) فوصلوها وقت العصر . وإذ ذاك قاموا على تلّ ، واصطفوا عليه وأظهروا الجلادة إرهاباً للأفغانيين . فغضب من ذلك الأفغانيون ، وأشرفوا على مرتفعات هناك ، وأطلقوا عليهم المدافع والبنادق . ثم إن محمد أكبر خان طلب (اسكينز) وقال له : « لا بدّ لكم أن تعطوني أيضاً شيلتان وجان سن رهناً » وفي أثناء المكالمة أُطلقت على اسكينز رصاصة من حيث لا يعلم فمات . فلما رأى الانكليز ذلك بادروا بالمسير قاصدين (جلا آباد) فابتدرهم الأفغانيون بالسيوف من سائر الأطراف . وكان عدد القتلى في هذا الموقع أكثر مما هو في (خورد كابل)

وفي صبيحة الثالث عشر من شوّال رأى الأفغانيون أن قد قلّ عدد رجال الانكليز ، فطافوا بهم فقتلوا بعضاً ، وأسروا بعضاً آخر ، ولم ينجُ من يد الأفغان إلّا (دكتر بريدون) ففرّ ، ولحق بجلال آباد ، وأخبر رأساً الانكليز بالواقعة . (كأن الأفغانيين علموا أن لوث حيل المحتال ، ودرن مكره ، وأوساخ خداعه لا يطهرها إلّا دمه المهراق ، وأن عين الطامعين لا يملأها إلّا تراب القبور ، فأراقوا دماء الانكليز ، وجعلوا شعاب جبالهم قبوراً لقتلاهم ، وأذاقوهم مرارة نقض العهود) .

وعـاد محـمـد أكبـر خان بالأسراء من الضبـاط والنسـاء والأطفال والجرحى إلى كابل . وهذا ما انتهى إليه حال جيش كابل الأنكليزي . وأما الجيش الإنكليزي الذي كان في مدينة قزنه ، فقد أصيب بما أصيب به الجيش الأول فهلك بعضٌ من الجوع والبرد ، وقتل بعضٌ بحدّ سيف الأفغانيين ، وأسر الباقي ، ومكثوا في الأسر شهوراً . ثم أرسلوا إلى كابل ، فاستقبلهم محمد أكبر خان وأكرم مثواهم واجتمعوا هناك بميجر بتنجر . وبعد هذه الواقعة ردّ محمد أكبر خان للضباط سيوفهم ومنحهم بعضاً من الدنانير . وكان يتعطف على النساء ، ويتلطف بالأولاد . ثم اتفق أنه قتل (شجاع الدولة خان الباركزاي) شاه شجاعاً ، فحصل الهرج والمرج بين الأفغـانيـين وتحـزّبـوا أحزاباً ، وتفرّقت كلمتهم ، وتنازعوا الملك ، وتقاسمه أمراؤهم . فعسكر محمد أكبر خان خارج المدينة وانضمّ اليه (فتى جنك) ابن شاه شجاع .

وفي أثناء هذه الفتن قدم الجيش الانكليزي الذي كان متحصناً زمن الشتاء في قندهار ، إلى كابل ، وانضمّ إليه بعضٌ من المدد ، ووقع بينه وبين محمد أكبر خان بعض مناوشات . وآل الأمر بعدها إلى المسالمة ، وأطلق سبيل أسرى الانكليز . وتعهد الجنرال (بولوك) بإرسال الأمير دوست محمد خان وعائلته الى أفغان . ولما رأت العساكر الانكليزية تفرّق كلمة الأفغانيين وتشتتهم وعدم وجود من يضارعهم في المقاومة والمغالبة تطاولوا على البلاد وأحرقوا « جهارته » (السوق الشهيرة الموجودة من عهد أورنك زيب التيموري سلطان الهند وكانت من أبدع الأبنية . وفيها عقود متتالية ، يبلغ طولها ستمائة قدم ، وعرضها ثلاثين قدماً . وكان على جدرانها النقوش المزخرفة والتصاوير الأنيقة . وقد علّق الأفغانيون فيها جثة الوزير المختار سير وليم) وزحفوا على قرية استالف ، وقتلوا من بها من الرجـال والنساء صغيراً وكبيراً صحيحاً وجريحاً . واعتصم محمد أكبـر خان وأهـل مدينـة كابـل بالجبـال وقتئذٍ . ولما انتقمت العساكر الإنكليزية من الأفغانيين على زعمهم ، قفلوا إلى الهند مسرعين فراراً مما عساه أن ينزل بهم . (وبالجملة إن طمع شاه شجاع في السلطنة قد ساقـه إلى البحث عن حتفه بظلفه . وإن حرص انكلترا على تملك بلاد الأفغان وشغفها بها أوجب أن تكون مساكنها فيها قبور أجسامها . وإن صيانة الأفغانيين لجرحى الانكليز ونسائهم وأولادهم ، وإن قتل الانكليز

لنساء قرية استالف وأولادها ومرضاها قد أبان للعالم السجايا الشريفة الغير المكتسبة التي لم يدنسها طول المكث في الجبال والأودية والطبائع الخسيسة التي لم تهذّبها العلوم والمعارف ولم يطهرها زلال التربية)

ثم أطلقت الانكليز الأمير دوست محمد خان من الأسر، فرجع إلى كابل، واستولى عليها وعلى جلال آباد وما يجاورها من البلاد . وأما كهندل خان أخو دوست محمد خان الذي بينّا سابقاً أنه قد التجأ مع إخوته الى شاه إيران فإنه لما سمع أن العساكر الانكليزية قد أخلت مدينة قندهار، جهز جيشاً صغيراً بإعانة الشاه، وسار به إلى قندهار . وبعد مناوشات يسيرةٍ وقعت بينه وبين بعضٍ من السدوزائية دخلها، وتمّ نفوذه في أقطارها . وقد وقع بينه وبين الأمير دوست محمد خان محاربات كانت الغلبة فيها للأمير وساق أيضاً عساكره إلى هرات ولكن رجع خائباً .

وبعد بضع سنين من إمارة الأمير هجم رنجيت سنك بعساكره على مدينة بيشاور . وكانت الحرب بينهما سجالاً . ولما كان زمن المحاربة وقُتل من الطرفين عددٌ كثيرٌ، ورأت الانكليز أن دخول بيشاور التي هي مفتاح بنجاب تحت سلطة الأفغانيين، يوجب إستفحال أمر الأمير ويورث الخلل في الممالك الهندية الانكليزية أسرعت إلى المصالحة بينهما على شرط أن تكون تلك المدينة بيد رنجيت سنك الوثني . فكأن أمة الأنكليز بفعلها هذا لم تقصد سد طرق الخلل عن بلادها فقط، بل أرادت أن تهيىء سبل استيلائها عليها علماً منها بأن الإمارة السيكية التي شكلها رنجيت سنك واهية الأساس . وقد تمّ لها ما أرادت حيث استولت عليها بعد المصالحة بزمن يسير . وإثر هذه الوقائع اتفق موت كهندل خان المذكور، ووقعت المنازعة بين إخوته وأبنائه في الملك وآل الأمر إلى المقاتلة وسفك الدماء، ووقع الهرج والمرج في المدينة، فاتفقوا جميعاً على جعل دوست محمد خان حكماً بينهم . فسار بعسكره إلى قندهار حين بلغه ذلك، واستولى عليها، وعين لكل من المحكمين مرتباً شهرياً، سداً لشرههم، وكفّاً لشرّهم . وتمت له بذلك السلطة في غالب البلاد الأفغانية . وكان قد أرسل إبنه (محمد أكرم) إلى الأقطار البلخية التي نبذ أهلها طاعة الأفغانيين عند إستيلاءِ الانكليز على البلاد، واستقلوا بأمرهم فأدخلهم تحت الطاعة . ولم يبق تحت سلطة غيره من المدن الأفغانية الأصلية إلاّ مدينة هرات التي بيّنا سابقاً كونها في قبضة كامران ذاك البطل الذي قاوم

العساكر الإيرانيين بغاية الثبات والحزم عشرين شهراً مع قلة عدده وعدده . ثم غلبت عليه الشهوة ، واستولى عليه الهوى ، وانهمك في السكر حتى نفرت منه قلوب الناس ، ولعب به وزيره (يار محمد خان البامي زائي) وخنقه في قريةٍ خارج المدينة ، واستولى على الملك ، وانقرض بموت هذا سلطة العائلة السدوزائية من البلاد الأفغانية (وبالجملة ، إن ما اكتسبه أحمد شاه السدوزائي من الممالك الواسعة والسلطة التامة بسبب الشجاعة والتدبير والعدالة والإقتصاد في المعيشة قد أضاعه أبناؤه وأحفاده ، بالجبن والسفه والجور والترف والإنهماك في الشهوات) . وكان هذا الوزير على الدوام يرسل إلى شاه إيران ويحتمي بحمايته صيانة لبلاده من سلطة سائر الأمراء الأفغانيين . وخلفه بعد موته إبنه (صيد محمد خان) بإعانة الشاه . وكان هذا الخَلَف سفيهاً سيىء الخلق قسيّ القلب ظالماً جائراً . فامتلأت قلوب الأهالي منه غيظاً ، وأثاروا الفتنة عليه فطلبوا (شاه زاده يوسف السدوزائي) الذي كان وقتئذ في مدينة مشهد ، والتمسوا من الشاه أن يجهزه ، ويرسله ففعل ، ودخل مدينة هرات بجيشٍ من الإيرانيين بلا ممانع وأهلك صيد محمد خان .

ثم وقع في هرات بعض من الفتن فاغتنم ناصر الدين شاه فرصة الإستيلاء عليها ، فأرسل جيشاً جراراً سنة ١٢٧٤ تحت رئاسة سلطان مراد ميرزا إليها . وبعد محاصرتها أياماً تمّ له فتحها . ودخل قطر هرات تحت حكم إيران . فاستشاطت الانكليز من هذا الفتح غيظاً علماً منها أن مدينة هرات مفتاح الأقطار الهندية ، وبابها فأرسلت مراكبها بدون مهلةٍ إلى خليج فارس ، واستولت على بندر (أبو شهر) وجزيرة (خارق) وبلدة (محمده) إرهاباً للشاه ، وسدًّا للخلل المزمع وقوعه ، وتسكيناً للثورة التي فشت في الهند عند ما شاع فيها توجه العساكر الإيرانية نحو البلاد الأفغانية . وبعد مضي سنة من هذه الواقعة وقعت المصالحة بينهما وتركت الانكليز الفرض الإيرانية على شرط أن يخصص الشاه رجلاً أفغانياً ليكون حاكماً على هرات ، ويسحب عساكره منها . فعين الشاه سلطان أحمد خان ابن عم الأمير وصهره والياً على هرات باستصواب الانكليز ، وشرط عليه أن يضرب السكة ويقرأ الخطبة بإسمه . ومع ذلك ما سكن روع الانكليز بل أغرت الأمير دوست محمد

خان بعد بضع سنين بأخذ مدينة هرات ، وتعهدت بأن تعطي له ولمن يخلفه مرتباً معلوماً سنوياً كافياً لتجنيد العساكر ، وتحصين القلاع لتكون الإمارة الأفغانية سدًّا منيعاً بين الهند وبين الممالك الروسية في آسيا الوسطى وإيران . فجنّد الأمير جيشاً وسار به الى هرات ، وحاصرها زمناً طويلا ، وكانت عساكر الطرفين بين مهاجمة ومدافعة . وقد اتفق موت سلطان أحمد داخل القلعة ، وبعد موته بزمن يسير مات الأمير أيضاً في معسكره . ثم أمر رؤساء العساكر المحاصرين بالهجوم . وبعد هجمات متعدّدة سنة ١٢٨٠ فتحت عنوة وكان الأمير دوست محمد خان هذا عاقلاً ذا دهاء لين العريكة غير مائل إلى الظلم والجور . وقد استمال بحسن سلوكه قلوب إخوته حتى خضعوا له مع أن منهم من كان أكبر سناً وأسس بحكمته وتدبيره ملكاً . وكان له أبناء متعدّدة . وقد جعل أرشدهم وأعقلهم محمد أكبر خان الذي خلص البلاد الأفغانية من مخالب طمع الانكليز وليّ العهد . وحيث توفي في زمن حياته ولىّ شقيقه شير علي خان تلك الرتبة (ولقد راعى الأمير حقوق محمد أكبر الذي له منة عليه خصوصاً ، وعلى الأفغانيين عموماً ، بإيثار شقيقه . غير أنه لم يراع حقوق سائر الناس ، ولم يلاحظ ما يترتب على ذلك من المضار ، فإن بعض إخوة شير علي خان كانوا أكبر منه سناً فلم يرضوا بالخضوع له فأثاروا الفتن ولزم منه إراقة الدماء وخراب البلاد ونهب الأموال) . وقد جعل على كل ولاية من ولايات الأفغان واحداً من أبنائه (ولقد أخطأ الأمير خطأ آخر بتولية أولاده على البلاد ، لأن البلاد الأفغانية ليست بلاداً قانونية ، فكأنه بفعله هذا قد مكنهم من الفتن والعصيان)

ولما توفي الأمير حين محاصرته لهرات كما ذكرنا كان في المعسكر من أبنائه شير علي خان وليّ العهد ومحمد أعظم خان ومحمد أمين ومحمد أسلم خان . وكان لشير علي وزير خائن يسمى محمد رفيق من طائفة الغلجائي قد أشار عليه بالقبض على إخوته قائلاً : « لا تتمّ لك السلطة ما داموا ولاة مطلقي التصرّف خصوصاً الذين هم أكبر منك سناً » . فشاع هذا الخبر وبلغ مسامع من كان منهم في المعسكر ، فهرب كل منهم ليلاً وبادر الى البلاد التي كان والياً عليها في زمن أبيه .

وأما شير علي خان فبعد ما علم بهروبهم عجل في تنظيم مدينة هرات ، وجعل ابنه محمد يعقوب خان والياً عليها ، وأخذ طريق بلخ من دون أن

يتعرّض للبلاد التي استولى عليها إخوته الذين هربوا من المعسكر ، أو يظهر لهم غضباً ، قصد أن يخدع أخاه الأكبر محمد أفضل خان ، الذي كان ذا وجاهة عند الناس ، وكانت قوته العسكرية أشدّ من سائر الأخوة ويقبض عليه . فلما وصل إلى حدود بلخ أرسل رقيماً[١٧٤] يذكر فيه مخاطباً إياه : « إنك أنت الأخ الأكبر فيجب عليك أن تجتهد في إصلاح البلاد ورفع الفساد وجمع كلمة الأخوة . وأما أنا فأتعهد أن لا أنبذ أمرك وأن لا أخالف نصائحك وأن لا أخرج من ربقة طاعتك » . ولما اطلع محمد أفضل على مضمون ذلك الرقيم انخدع وسار بنفسه اليه فلما تمكن من شير علي قبض عليه وهرب ابنه عبد الرحمن خان وقتئذٍ إلى بخاري . ودخلت ولاية بلخ تحت قبضته فجعل أحد إخوته المسمى بفيض محمد خان والياً عليها ورجع إلى كابل . ثم جند عسكراً وأرسله الى كرُم تحت رئاسة وزيره محمد رفيق لمحاربة محمد أعظم فانهزم محمد أعظم شقيق محمد أفضل من أول واقعة ، وفرّ إلى الهند .

وبعد أن فرغ من أمرهما جعل ابنه ابراهيم خان الضعيف الرأي حاكماً على مدينة كابل وذهب بنفسه إلى قندهار لكي يقبض على شقيقه محمد أمين خان . وعند وصوله إلى كرات الغلجائي استقبله هناك شقيقه بعساكره فوقعت مناضلة بينهما قُتل فيها ابنه محمد علي وشقيقه محمد أمين المذكور . وأثر هذه الواقعة استولت الوساوس على شير علي ، وغلبت عليه الهموم والغموم ، فترك أشغال الحكومة وإدارة العساكر ، وانزوى في مدينة قندهار . ولما بلغ مسامع عبد الرحمن خان تغيُّر حاله ، وانزاؤه تحرّك من بخاري إلى البلاد البلخية واستولى عليها بعد مناوشات جريئة بإعانة فيض محمد خان . وكان محمد أعظم خان المذكور الذي ترك البلاد الهندية لسوء معاملة الانكليز قد انضمّ إلى عبد الرحمن في بلخ فاستفحل أمرهما وجمعا جيشاً جرّاراً ، وزحفاً به إلى مدينة كابل . وقبل الوصول إليها وقعت محاربة بين عساكرهما وعساكر ابراهيم خان ابن شير علي خان في (باج كاه) فانهزمت عساكره ، فترك كابل خوفاً وجبناً وفرّ إلى قندهار . وكان وقتئذٍ وزير شير علي خان « محمد رفيق خان » في كابل فخرج يستقبلهما بغاية البشاشة فدخلوا المدينة آمنين مستبشرين . . ثم

---

(١٧٤) الرقيم: الخطاب

آرسل سرية إلى جلال آباد فافتتحوها . ولما اشتدّ الخطب ، وعظم الأمر ، تنبـه شير علي خان من نوم الغفلة ، وأفـاق من غشية الحزن ، فجند جيوشه ، وسار بها إلى كابل . وعند ما اجتاز قزنه قابله محمد أعظم وعبد الرحمن بعسكـر جرّار في شيخ آباد ، فاشتعلت نيران الحرب بينهما . وكانت الغلبة لمحمد أعظم فانهزم شير علي ورجع إلى قندهار . ودخل محمد أعظم مدينة قزنه . وكان شقيقه محمد أفضل المشار اليه سابقاً محبوساً فيهـا فأطلقـه وسلم عليه هو وجميع العساكر بالأمارة . ولما تمت هذه الغلبة ، وقفلوا إلى كابل رأى محمد أعظم أن محمد رفيق خان يسعى في إثارة الفتن وإلقاء الشقاق بين الخوانين والأمراء فأمر بخنقه جزاءً لفتنته السابقة وخيانته لسيده ، وتركه له ، وسعيه في الفساد أخيراً .

ثم جمـع محمد أعظم عساكره ، وسار بها إلى قندهار ، فتلاقى مع الأمـير شير علي خان في كلات الغلجائي فتصادم الجيشان ، وتقاتلا ، وأظهر شير علي خان في تلك الواقعة غاية البسالة والشجاعة . غير أن قوة قلبه ما استوجبت ثبات أقدام عساكره الذين غلب عليهم الجبن والخوف بسبب الإنهزامات المتتالية ، فاضطر إلى ترك قندهار والذهاب إلى هرات . وبعـد بضعـة أشهر ذهب بفرقةٍ من الخيالة إلى بلخ . وجمع كثيراً من مقـاتلي الأزبك والأفغانيين وزحف إلى كابل من طريق قوهستان الوعرة مصحـوباً بفيض محمد خان فقابله عبد الرحمن خان في « بنج شير » فتقـاتل الجيشان فقُتل فيض محمد خان (كأن إقباله وإدباره ووفاقه ونفاقه كانت دواعي الموت وسكراته) . وانهزم شير علي تاركا مدافعه فوق الجبال ، وأسرع إلى بلخ ، ومنها إلى هرات ، علماً منه بأن عبد الرحمن سيتبعه بعساكره وقنع بها . وتوفي أثر هذه الواقعة محمد أفضل خان في كابل . وكان رجلاً محباً للعلم والعلماء كارهاً للظلم والجور فخلفه شقيقه محمد أعظم خان .

وبعـد ان استقـرّ على منصـة الأمارة أرسل ابن أخيه المتوفي عبد الرحمن خان إلى بلخ وجعله والياً عليها وعزّزه باسماعيل خان ابن محمد أمين خان المقتول ليقدر على إطفاء الفتن التي حصلت هناك بين الأزبك والأفغانيين . ونصب ابنه محمد سرور خان والياً على قندهار ، وجعل ابنه الآخر المسمى بعبد العزيز خان الذي كان عمره إذ ذاك ستة عشر عاما رئيساً على العساكر الموجودة فيها . وهذا الرئيس الشاب قد ساقه الغرور

وحب الظهور إلى جمع العساكر وسَوْقها إلى هرات من دون علم أبيه . وعند وصوله إلى قرية كرشك صادمه محمد يعقوب خان ابن شير علي بعساكره ، فهجم الشاب الرئيس دفعة واحدة بمائتين من المشاة على قلب عسكر الخصم واستولى على مدفع ، وجلس عليه بعد أن قتل طبجيه . فلما نظر جيش محمد يعقوب عدم وصول المدد له أحاطوا به ، وأخذوه أسيراً فتشتتت عساكره وانهزمت كما هي عادة الشرقيين عند فقد رئيسهم . فأسرع محمد يعقوب بعساكره إلى مدينة قندهار واستولى عليها بحيث لم يجد من يُدافع عنها ، فقوي قلب شير علي خان لهذه الغلبة ، وجدّ فيه العزم والإرادة . وقصد تلك المدينة بخيالة « الجمشيدي » و « فيروز كوهي » وجمع منها العساكر المتفرّقة وأسرع مع إبنه إلى كابل ، فتقابل مع محمد أعظم خان في وادي مكر على بُعد ستة فراسخ من قزنه ، وأنشأ كلٌّ من العسكرين إستحكامات وحفروا خنادق . وكان محمد أعظم عند سماعه بزحف شير علي قد أرسل إلى بلخ يطلب اسماعيل خان الخائن علماً منه بأنه الخصم الألدّ لشير علي ، لأنه قتل أباه وأهانه غاية الاهانة . فجاء بعسكر بلخ ، وتوقف في قوهستان إلى أن تقابل العسكران في مكر ، فهجم على مدينة كابل وفتحها ونادى فيها باسم شير علي خان ظناً منه بأنه سيجعله مكان أبيه والياً على قندهار . وعند وصول هذا الخبر إلى عساكر محمد أعظم غلب اليأس عليهم ، وحصل فيهم الفتور ، وتفرّقت كلمتهم وتشتتت آراؤهم ، لأنهم قد رأوا أنفسهم بين عسكرين ، وعلموا أنه لا يمكن وصول الزاد إليهم . فعلم محمد أعظم أنه لا يجوز الإعتماد على هؤلاءِ العساكر الذين غلب عليهم الجبن ، واستولى عليهم الفتور والخوف ، خصوصاً لما رأى جراءة خَيَّالة الجمشيدي وهجومهم على أطراف المعسكر على الدوام . ففرّ إلى بلخ واجتمع بابن أخيه عبد الرحمن . ودخل شير علي خان مدينة كابل بعد أن فارقها زماناً طويلاً ، واستقبله أهلها بكل بشاشةٍ وسرورٍ ، لأنه كان محبوباً لدى الناس لسماحة أخلاقه وعدم ميله إلى الظلم بالطّبع . ثم إن محمد أعظم وعبد الرحمن بذلا غاية الجهد في جمع العساكر من الأزبك والأفغان ، وذهبا إلى قزنه عن طريق هزاره فبارزهما شير علي . وبعد مقاتلاتٍ شديدة انهزمت عساكر محمد أعظم وعبد الرحمن ، وهربا إلى مدينة مشهد من بلاد إيران . وانفصل عبد الرحمن من عمه في تلك

المدينة وذهب إلى بخاري وأقام بمدينة سمرقند وهو الآن بها . وتوفي محمد أعظم بمدينة نيسابور حين ذهابه إلى طهران . وكان عاقلاً مدبراً محباً للعدل ، ولكن أحوجته الضرورات والحوادث الكونية إلى الجور والظلم . وأما إيثاره ولده الشاب الذي كان في الحقيقة سبباً لخيبته ، وزوال ملكه بجعله إياه رئيساً لجيوش قندهار ، فقد كان لعدم اعتماده على سرداري الأفغان وخوانينهم ، لأنه قد تمكن منهم سوء الأخلاق بحيث أنهم ما كانوا يعدّون الخيانة رذيلة ، ولا يستنكفون من إرتكاب العار ، لأن غالبهم في خلال هذه الفتن قد انتمى لكلٍّ من الحزبين المتحاربين أزيد من عشرين مرّة ، وكان متمذهباً بمذهب الصوفية القائلين بوحدة الوجود . وبالجملة لما تمت السلطة في سنة ١٢٨٥ للأمير شير علي خان بلا منازعٍ ، ولا ممانعٍ ، ذهب إلى مدينة أنباله إجابة لدعوة الحكومة الانكليزية ، فأيدت انكلترا معاهدته العرقوبية السابقة التي وقعت بينها وبين أبيه دوست محمد خان بمواثيق أخرى هي في الحقيقة عبارة عن تمويهات ومخاتلات . ولما رجع نفى اسماعيل خان الخائن وإخوته إلى الهند ، ثم خلع ابنه البطل محمد يعقوب خان من ولاية العهد وجعل أخاه عبد الله خان وليّ عهده مع صغر سنه محبةً لأمه (ولبئست الشهوة التي تعمي البصائر وتضلّ العقول عن الرشاد) . وأما محمد يعقوب خان فقد ذهب إلى هرات وأظهر العصيان بها ولكن لم تمتدّ مدّة هذا العصيان فإنه مع غلبته على عساكر أبيه لبّى دعوته حينما دعاه إلى كابل . والأمير بدلاً عن أن يجامله أودعه الحبس . ومع هذا كله لم ينل الأمير بغيته ، لأن الموت قد أسرع بوليّ عهده الجديد . وفي سنة ١٢٩٥ غلبت الوساوس والأوهام على رجال الانكليز حينما رأوا وفود السفارة الروسية على الأمير فجهزوا سفارةً مؤلفة من عدّة مهندسين وألف خيّال وأرسلوها إلى الأمارة الأفغانية فأبى الأمير إلا منعها لقطعهم المرتّب الذي تعهدوا بدفعه كل شهر من مدة سنين بلا سبب . فاستشاطت الانكليز غيظاً وساقت العساكر إلى البلاد الأفغانية ظُلماً وجوراً .

الفصل الرابع

«في بيان الشعوب المختلفة الساكنة في»
«الأقطار المعبر عنها باسم أفغانستان»
«وأخلاقهم وعاداتهم ومذاهبهم»
«وفي إيضاح كيفية الحكومة في تلك البلاد»

إن أعظم الشعوب المستوطنة لتلك الأقطار وأكثرها عداً هو الجنس الأفغاني ، ومقرّه جنوب البلاد والشرق الجنوبي منها . والخُلُق الغالب في هذا الجنس هو الحقد والضغينة والتشوق للإنتقام ، وإقتحام المحاربات ، والتهوّر في المخاصمات والمنازعات لأدنى الأسباب ، وإنّ صورهم الظاهرة تحكي عن خليقتهم هذه ، وتنبيء عنها . فإن وجوههم على الدوام عابسة . وقلما يوجد بينهم البشوش ، وإن كان يظهر في بعض معاملاتهم الحلم والتؤدة ، وكذلك خشونة لغتهم ، وغلظ أصواتهم ، يدلان على هذه الخليقة ، وعلى الفظاظة وغلظ الطباع . ولهم ميلٌ عظيمٌ للنهب والسلب ، وشنّ الغارات ، وإثارة الفتن . وبما ارتكز في طباعهم من الشجاعة والإقدام والميل الطبيعي إلى المحاربة أرشدتهم الطبيعة من قرونٍ إلى ترتيب نظامهم العسكري على هيئة تقرب من النظام الموجود في هذه الأزمان . وذلك أنهم كانوا يصفون الصفوف ، ويحكمون ترتيبها ويقيمون الضباط أرباب الرتب العالية وأرباب الرتب الدنية . وعند سَوْق الجيوش للمحاربة كانت الضباط تتقدم العساكر لتقودهم ، حتى إذا اشتعلت نيران الحرب تأخرت الضباط وتقدّمتهم العساكر للنزال والصدام ، واشتغلت الضباط بالأوامر والنواهي ، والنظر فيما يجب إجراؤه مم الإقدام والإحجام ، والتيامن والتياسر ، والسير والتوقف ، وغير ذلك . وكان من عادتهم أنه إذا ولّى أحد العساكر فراراً حكموا عليه بالقتل . ومن ذلك ما وقع في واقعة أصفهان . وهو أن ضابطاً همّ بقتل أحد العساكر عند ما رآه متقهقراً ، فأراه العسكري يده اليمنى مقطوعة تخلصاً من العقاب القانوني ، فعافاه الضابط من القتل ، إلّا أنه لم يخلص من عتابه ، ولم يرضه هربه وتقهقره ، بل أرجعه إلى المعسكر

قائلاً : « يا مخنث ، ألم تكن يدك اليسرى موجودة فإن قُطعت أيضاً فعندك أسنان تنهش بها أعداءك ، فاذهب ، وقاتل الأعداء إلى آخر رمق في حياتك » . ومن وظائف الضباط زيادة عن الأوامر والنواهي المتعلقة بترتيب العساكر وحفظ نظامهم ، تفقّد من يموت من العساكر في الميدان ليأتوا به من ساحة القتال ويدفنوه كي لا تقع جثته تحت إهانة أيدي الأعداء ، إلاَّ مَن قُتل منهزماً فإنهم لا يجوّزون دفنه أصلاً . ولأفراد العساكر الأفغانية من الطاعة والانقياد لرؤسائهم ما لا يوجد في عساكر ملك من ملوك البلاد المتمدنة ، حتى إنهم عند تفرُّقهم في البادية ، وتشتتهم بحيث لا يكون فردٌ منهم مع الآخر لو سمعوا نداء منادٍ يدعوهم إلى ضابطٍ أو رئيس من رؤسائهم ، لهُرعوا مهرولين جميعاً لإجابته ، والإجتماع حيث يأمرهم ، ولو نالوا طعاماً في المخصمة لتركوه ملبّين داعيهم . ولحسن طاعتهم إذا فتحوا بلداً ، وأمرهم أمراؤهم بعدم التعرّض لأهاليها ، لا يقع منهم أدنى شيءٍ يخلّ بالرّاحة ، حتى لو مرّت عليهم النساء مكللات بأكاليل الذهب لا يلتفتون إليهنّ . واتفق أنه وقع النزاع في أصفهان بين طائفتين من الأفغانيين في أول جلوس أشرف على كرسي السلطنة ، وعظم الخلاف بينهما حتى اقتتلتا فقفل أرباب الحوانيت حوانيتهم خوفاً من حصول الهرج والمرج ، فجاء الأمر من أشرف بفتح الحوانيت مُعلناً « إن مَن يصيبه خسارة فأنا الكفيل بتعويضها » وامتدّ القتال في المدينة أياماً ولم يحصل أدنى ضرر للأهالي من المقاتلين . ولجميع رجالهم تدرّب تام في الطعن بالرّماح والضرب بالسيوف . ولهم خفة ونشاط في ركوب الخيل . وفي الأزمنة الأخيرة صارت لهم الدربة في إطلاق الرصاص أيضاً . ومن زمن الأمير دوست محمد خان شرعوا في ترتيب العسكرية على النظامات الجديدة . وقد برعوا فيها عملاً لا علماً ، وبلغ عدد عساكرهم المنتظمة ستين ألفاً .

وإن كثيراً منهم وإن كانوا قد مالوا إلى الإقامة في المدن والقرى كأهالي قندهار وقزنه وجلال آباد وغيرها ، إلا أنهم كبقية إخوانهم الذين لم يزالوا في الخشونة حيث لم يأخذوا جانب الترف والرّفاهية ، بل يسلكون في تعيشهم طرق التخشن والتقشف ، ويقنعون من اللذات بالسير حتى إنهم يأكلون الضأن بجلده . فإنهم بعد ما يذبحونه يحرقون صوفه ثم يجففونه ويدّخرونه للأكل . ولا يتناولون الأطعمة بالملاعق ، ولا يضعون

أواني الطعام على الخوان ، بل يأكلون على الأرض بأيديهم . وليس لهم عنـايـة بتنـظيف ألبستهم وأبـدانهم ، ولا يهتمـون بنظافة مساكنهم وحجـراتهم ، وتطهير مدنهم من الأوساخ . ولذلك ترى المدن المسكونة بالكثـير منهم لا تخلو من الأوساخ والقاذورات . وكثيراً ما تكون جيف الحيـوانـات في معسكـرهم ، ولا يعتنـون بإبعادها من بينهم . وغالب الجبليينّ ، وأهل القرى منهم ، إذا أكل لا يغسل يديه بل يمسحها في لحيتـهَ أو مداسـه . وبعض منهم إذا لبس لباساً جديداً يلطخ بعضه بالسمن خصـوصـاً عاتقيْـه إظهـاراً لتـأصله في الغنى وعـدم مبالاته بالجديد ، وإراءة لسمنه . وجميعهم سواءٌ كانوا من سكان الأخبية أو البوادي يلبسون من الألبسة خشنها . فأرباب البادية يصنعون ثيابهم من نوع اللباد على هيئة غريبةٍ بكمين طويلين يشبهان خرطوم الفيل ، يصلان إلى الأرض . ويسمى عندهم « كوسي » . ولهم أيضاً ثوب آخر من هذا النوع يصل إلى الفخذين بكمين قصيرين يسمى « صدرية » . وهؤلاء قلما يبدلون ثيابهم قبل البلاء . وسكان المدن يصنعون ثيابهم من الجوخ الغليظ المعروف عندهم ببركر ، فيتخذون منه جُبّباً ضيقة الأكمام قصيرتها ويَتَقبَّون بأقبية من القماش الملوَّن المعروف بالشيت ، وثيابهم في زمن الشتاء من جلود الحمل ، يبالغون في دبغها ، حتى تصير في اللين والنعومة كالحرير ، ويصبغونها بلون أصفر بهي ، ويرقشونها بطراز الحريم ، ثم يُفَصِّلون منها جبباً يتخذها العَمَلَة[١٧٥] قصيرة تنتهي إلى الرّكبتـين بكمـين إلى المـرفق وتسمى (بوستين جه) وأرباب الصنائع والأواسـط من الناس يتخذونها طويلة تبلغ الكعبين ، كسائر ألبستهم بكمين طويلين ، وتسمى بوستين . وقد يتخذ الأمراء من شيلان الكشمير جبباً ومن السمور والسنجاب فراءً (كرك) . وغالب الأفغانيين يَعْتَمُّون بعمامة زرقاء . وأما السردارون والعظماء فغالباً يعتمون بشيلان الكشمير ألوانـا . وسكـان البـلاد الحارّة يحتذون النعال ، ويتخذون صدريات ويلبسـون أقمصـة تنتهي إلى نصف الساق واسعة الأكمام . وغالبهم يتحـزم بأحـزمة عريضة تشغل ما تحت الصدر إلى الفخذين . وغالب القبائل لا يحلقون رؤوسهم ، وبعضهم يتخذون ضفيرة طويلة من شعورهم .

---

(١٧٥) العملة ـ بفتح العين والميم واللام : الفعلة او العمال .

وأما نساؤهم فإنهنّ يلبسن ألبسة طويلة ، ويتمنطقنَ بمناطق تقرب من الثدي حتى يُرَى بارزاً . وغالب نساء القبائل الساكنة في الجبال يقطعن شعور أذناب الخيول ويَصِلْنَها بشعورهنّ . ونساء قبيلة الغلجائي يحبكن شعور نواصيهنّ ، ويشكلنها بشكل قرص ، ثم يسدلنه على الجبهة ، فيمتدّ إلى الصدغين في العرض ، ويستر الأنف طولاً ، كأنما هو برقع مستدير . ويعلّقنَ في آذانهنّ حلقات غليظة ثقيلة من الفضة والحديد والنحاس والبلور .

وأمراء الأفغان لا يجلسون على المنصات والكراسي ، بل يفرشون مجالسهم بالأنماط والنمارق الفارسية ، وليس لهم من الأبهة والعظمة ما لغيرهم من الأمراء ، ولا يستنكفون من تناول الطعام مع خدمهم والأصاغر من الناس .

والجبليون منهم ، وأهل البادية ، يحترفون رعي المواشي والأنعام ، ويتعيشون منها ، وقليل من الزراعة ، وقلما يوجد منهم التاجر إلّا في قبيلة « لوهاتي » من الجبليين . فإن غالب هذه القبيلة من التجار . ونشاطهم في التجارة على نمط غريب إذ يبلغون بأمتعتهم محمولة على الجمال إلى قُرب الصين وبلاد سيبيريا ، ويجيئون بها إلى بلاد الأناضول ، ويطوفون الأقطار الهندية . وهذه القبيلة تمتاز عن سائر القبائل بألبستها . فإن عمائمهم ذات زوايا أربع متقابلة ، وأقبيتهم تُشبه أقبية الأرناؤد وسكان أزربيجان ، بأنها ضيقة الأعالي ، واسعة الذيول ، كثيرة التكاميش من الوسط .

وأما سكان المدن والقرى فيشتغلون بالزراعة وغرس الأشجار وإنشاء البساتين والرّياض . وقلّما يوجد فيهم أرباب الصناعة كالحدادة والنجارة والحياكة وما يشبهها . ولا يشتغل منهم بالتجارة غالباً إلّا أهالي قندهار ، فإن لهم حرصاً على التجارة ، وغالب تجارهم من طلبة العلم .

وليس للأفغانيين دراية كافية بكيفية إدارة الحكومة ، وضبط الدفاتر ، وما يشبه ذلك . ولهذا تجد جميع هذه الأمور بأيدي طائفة « قزل باش » الذين هم بقايا عساكر نادر شاه . ولا يجوّزون بيع الأسراءِ ، وإن كانوا غير مسلمين ، ويكرمو ن الغرباء ، وأبناء السبيل ، ويستقبحون غالباً السرقة ، وإن كانوا يتفاخرون بالنهب والغارة ، وغير خاف أن الفرق بين السرقة والنهب هو الفرق بين القوة والضعف . والمنكرات التي هي نتائج

الترف والترفه قليلة الوجود فيهم لتمكن أخلاق البداوة منهم ، ولا يخلو غالبهم من خلّة الطمع لتسلط الفقر عليهم . وإن نساء الأفغانيين الساكنات في المدن يسترنَ وجوههنَّ بخلاف نساء القرى والبوادي ، فانهن مكشوفات الوجوه ، ويختلطن مع الرجال ، وتأخذ كل منهنَّ يد رجل ، ويرقصن في الأفراح على هيئة دائرة . وتارةً يرقص الرجال منفردين على هذه الهيئة في الأعياد والأفراح . ويسمى هذا الرقص لديهم (عتن)

ومن عادة سكان القرى والبوادي من الأفغانيين في أفراحهم أن يدعو والد العروس أقاربه وأحبابه وجيرانه في نهار الزفاف ، ويعرض عليهم الثياب التي عليه عادةً أن يعدها للعروس وزوجها ، ثم يستدعي الزوج في هذا المحفل ، ويلبسه على ملأ الحاضرين ما أعدَّ له بعد قراءة الفاتحة . والنسوة يفعلن ذلك بالعروس ، ثم يزفونها إلى محل بعلها ، مصحوبة بالأغاني والطبول . وعند وصولها واستقرارها في الحجلة التي أُعدت لها ، تأتي الفتيات بأنواع الفواكه والنقل ، وينثرنَ على رأس العروس ، ويأخذ المدعوّون والمدعوّات في التفكه بالفواكه والتنقل بها . وتلبث العروس عاكفة في محل زوجها لا تظهر في الناس أياماً . فإذا مضت تلك الأيام أتت إليها بنات محلّتها يعزفن بالدفوف ، وعلى رأس كل منهنَّ جرّة ، ويأخذنها ومعها جرّة مثلهن ، ويذهبنَ جميعاً على هذه الهيئة مغنيات عازفات إلى أن يصلن نهراً أو عين ماء . فيملأن تلك الجرات ، ويرجعن كذلك . وللعروس بعد ذلك ترك العزلة ومعاشرة الناس . وتختص قبيلة (منكل) و (داوور) دون القبائل بكون أبوي العروسين يجب عليهما الرقص في العرس . ولهاتين القبيلتين عادة غريبة : وهي أن شبّانهم في أيام المواسم والأعياد يحلقون أحد حاجبيهم وأحد جانبي شاربهم من خلاف ، ويكحلون عيناً بالسواد وعيناً بالحمرة . ومن له لحية منهم يحلق جانباً منها ويترك الآخر ، ويقضون أيام عادتهم هذه باللعب بالسيوف ، حتى يُخيل للناظر أنهم يحاولون الفتك ببعضهم . وأبناء هاتين القبيلتين ممن يستفزهم حسن الصورة ويشغفهم الجمال أينما تجلّى ، بل هم يتنافسون في إظهار صدق المحبة وخلوصها ، بتقديم الذبائح ، حتى تغالى بعضهم بقديم أبيه ذبيحة .

ومن عادة قبيلة (ختك) أن نساءَها في المأتم يصبغن وجوههنَّ ،

عفرنها ، ويثبن لاطمات صائحات ، ويخمشن وجوههنّ بأظافرهنّ .
ومن عادة جميع الأفغانيين إطعام المعزّين ثلاثة أيام إلّا أنهم يختلفون
دةً في مَن يقوم بنفقة الأطعمة . ففي غالب القبائل يقوم بها صاحب
أتم . وفي بعضها يقوم بها جيرانه وأهالي القرى القريبة منه . أما هو
: يصنع شيئاً .

ومن أهالي القرى من يعلّم الأولاد الذكور الرقص ويلبسهم ثياباً تشبه
ساتين نساء الإفرنج ، ويجعل عليها شراريب من جميع أطرافها ، لأجل
رقص في الأفراح . وإذا وُلد لأهل القرى والبوادي منهم مولود تصعد
قابلة ولو في نصف الليل على سطح البيت ، أو على محل مرتفع ، وتنادي
على الصوت ثلاث مرات إخباراً بالمولود ، وتأدية لشكر هذه النعمة لله .

وجميع الأفغانيين سنّيون متمذهبون بمذهب أبي حنيفة ، لا
ساهلون رجالاً ونساءً ، وحضريين وبدويين ، في الصلاة والصوم سوى
ائفة (نوري) فإنهم متوغلون في التشيُّع ، ولهم محاربات شديدة مع
يرانهم السنيين ، ولا يبالون بالصلاة والصوم ، وإنما يهتمون بأمر
أتم الحسين (رضي) في العشر الأول من محرّم ويضربون ظهورهم
كتافهم بالسلاسل مكشوفة . ويوجد في بعض قبائل (كاكر) بقايا من
طريقة المزدكية ، وإن كانوا على دين الإسلام .

ومزدك هذا كان رجلاً في زمن (قباذ) من أكاسرة فارس . وقد ادعى
نبوّة ، وتبعه قباذ وأربعون ألفاً من الفارسيين . وكان من أصول دينه
لاشتراك في الأموال والنساء . وكان يعلل ذلك بأن المنازعات والمقاتلات
تحصل إلّا لأجلهما فلو حصل الاشتراك فيها لارتفع الشقاق واستتبت
رّاحة . ولما مات قباذ وجلس ابنه أنو شروان المعروف بالعادل على منصة
لك ، احتال لإبادة هذه الشريعة المبتدعة . فطلب الشارع ، وقابله
لبشر والبشاشة ، وأظهر له رضاه وقال له : « إني قد اخترت هذه
شريعة البديعة ، واستحسنتها ، ولكن لا أقدر أن أتظاهر بها خوفاً
رجلاً ما لم أر الذين اتبعوك . وأعلم أن فيهم كفاءة لدفع شر المنكرين »
عرض الشارع أتباعه عليه في محلٍ أعدّه أنو شروان لذلك ، فصار
جميع طعمة للسيوف . وما هرب منهم إلّا ثلاثة أشخاص منهم زوجة
زدك . ولم يصدر عنه هذا الفعل إلّا بمشورة وزيره بزر جمهر ، حيث
ال له « إن هذا الشارع لا يريد بشريعتهِ هذه إلّا إستئصال السلطنة

عن وجه الأرض ، لأن السلطنة لا تكون إلّا بالمال والنسب ، فإذا تأسس الإشتراك في الأموال والنساء فلا سلطنة » وقال خواجه (نظام الملك) في تاريخه إن الأباحيين الموجودين في إيران من أتباع مزدك . وقد توارثوا هذه الطريقة عن الذين نجوا من حدّ سيف أنوشروان . وكذلك يُرى في أهـالي خست وكرم بعض عادات الخوارج والنواصب فإنهم يصوّرون هيكـلاً في غرّة محرّم ، ويدفنونه ، ثم إنهم يخرجونه في يوم عاشورا ، ويكسرون عنقه متهللين مستبشرين . وهؤلاء يستقبحون الختان أيضاً .

والأفغـانيـون مع شدّة تعصبهم للدين ، والمـذهب ، والجنس ، لا يعارضون غيرهم في حقوقهم ، ولا يتحاشون عن أن يروا شيعياً ، أو غير مسلم ، يقيم مراسم دينه ، ولا يمنعون المستحقين منهما من نيل المراتب العالية في حكومتهم . فإنك ترى أرباب المناصب في البلاد الأفغانية من الشيعيين (القزل باش) . وكل أفغاني يزعم أنه أشرف الناس لكونه أفغانياً ، ولو كان فقيراً . وإنه لا يوجد الإيمان الكامل والإسلام الخالص إلّا في جنس الأفغان والعرب . وكل قبيلة إذا أرادت أن تبرم أمراً فلا بد أن يجتمع أمراؤها للمشورة . وتسمى هذه الجمعية عندهم بجركه . وإذا قتل أحدٌ من قبيلةٍ أحداً من قبيلة أخرى فكل فرد من أفراد قبيلة المقتول يرى أنـه من الواجب عليـه أن يجتهد لأخذ الثأر بقتل رجل من قبيلة القـاتل ، ولا يقتنعون بقصاص الحاكم ، ولا يتجاوزون عن ذلك ، ولو مضت عليه أعوام إلّا أن يستجير بهم القاتل . وهكذا تكون الحال إذا قتل أحدٌ من عائلةٍ أحداً من أخرى .

والأفغـانيـون يحمـون الدخيل ، ويعينون الملتجيء إليهم بدمائهم وأموالهم . وأهل الحضارة والبداوة منهم يتسلحون غالباً بسيوف صغيرة تسمى « سيـلاوة » و « نوره » وبخنـاجـر مستقيمـة ، وبـآلات نارية كالبنادق ، والطبنجات ، وغالب بنادق أهل الجبال بالفتيل . ولا تنقطع المحـاربَات بين القبائل والعائلات . وقد وقع كثيراً أن الإبن قتل أباه ، والأخ قتـل أخـاه ، ولا ينعقـد الصلح بين القبيلتـين المتحـاربتين إلّا بالمصـاهرة . وغالب سكان الجبال والأودية لا ينقادون للأمير إلّا بقوّة جبرية ، وينتهزون الفرصة دائماً لرفع الضرائب الأميرية عن عواتقهم .

ومن القبائل مَن يقتات بالذرة ، ومنهم من يقتات بالدخن ، ومنهم من يقتات بالشعير ، ومنهم من يقتات بالبر . وغالب أُدمهم الأقط واللحم . وفي

زمن الشتاء يصنعون منهما طبيخاً ، ويخبزون خبزهم غالباً بالصباح . وفي الأسفار يخبزونه بمصبأ محماة يضعونها في قطعة من الخمير ، ويملأونها ناراً حتى تستوي ويسمون هذا الخبز « كاك » . وقلما يوجد البصل عند بعض القبائل كقبيلة « يوسف زائي » و « أجيك زائي » فتجدهم إذا رأوا أجنبياً يتملقون ويتذللون له قائلين « عندنا مريض فنرجوك أن تتفضل عليه ببصلة عسى أن يكون شفاؤه فيها » . وإن قبيلة أجيك زائي كثيراً ما يتعرَّضون للقوافل إرادة النهب ، ويسدّون طريقها ، ويقابلونها بالأسلحة النارية والآلات الحادّة ، فإذا لم يمكنهم الغلبة عليها صالحوها بأقة أو أقتين من البصل . واتفق أن محمد أعظم خان بعد ما ترك البلاد الهندية وفد على قبيلة يوسف زائي ، ونزل في خيمة خانها فقام الخان مسرعاً وعلى وجهه لوائح الفرح وإذا به قدّم للأمير بصلة .

وكل الأفغانيين يعتقدون بقبور الأولياء ، ويذهبون لزيارتها ، ويذبحون الذبائح لديها . وبعضهم تغالى في اعتقاده بها ، حتى إن رجلاً من قبيلة الأفرزيدي المشهورة بالسلب والنهب لقي شخصاً فأراد أن يسلبه . فاستجار بالله وبالرسول ، فلم يتركه ثم استجار بتربة شيخ يسمى « منلايار محمد » فاضطرب ذلك الرجل خوفاً وقال « جلّ جلاله أوقعتني في الكفر » وترك سبيله . وغالب القبائل وسكان الأودية والقرى يميلون إلى اللعب والطرب . وفي الأزمنة الخالية عن الشغل يجتمعون على هيئة دائرة ويرقصون الرقص الموصوف سابقاً . ويلعبون بالخيل والسيوف . وساكنو الجبال الباردة منهم « كخست » و « كرم » أغلبهم أبيض اللون ، والساكنون في البلاد الحارّة كقندهار وجلال آباد سمر الألوان .

ومن العوائد الدينية الجارية عندهم أنه إذا مات أحد منهم يخرجون دراهم ودنانير من ماله يعطونها للفقراء والمساكين من العلماء بإسم إسقاط الصلاة . ومن أهل القرى والمدن من له شغفٌ عظيمٌ بتعلم العلوم كالصرف والنحو ، والمعاني والبيان ، والفقه والأصول ، والتفسير والحديث ، والمنطق والفلسفة ، والهيئة والهندسة ، والحساب . ويتعلم بعض منهم العلوم الطبية . وبعض من أهل القرى يكتفون بتعلم الفقه بدون استحصال العلوم العربية . والعامة يتكلفون بأرزاق الطلبة مدة

الطلب بطيب نفس فيخصص كل واحد قسماً لطلبة العلم مما هيأه لغدائه أو عشائه ثم يطوف بعض صغار الطلبة على الدور لجمع ما أُعدّ لهم .

وأهل بعض الجهات لا يجوّزون تناول ما خصص للطالبين إذا غفل الموكل بالجمع عن أخذه . وللعلماء في تلك البلاد شأنٌ عظيمٌ وسلطةٌ تامةٌ ونفوذ كلمة بين الأهالي ، بحيث يخشاهم الكبراء والعظماء والأمراء حيث إن قلوب العوام في قبضتهم . ولهم أن يثيروا الشعب على أي أمير أو كبير متى شاءوا . والكثير منهم يستنكف من ملاقاة الأمراء ويتنزه عن قبول هداياهم وإن كان يقبل هدايا غيرهم من الناس . ويستكبر عن زيارة رجال الحكومة حتى إن أمير البلد لو زار أحدهم لا يرى من نفسه أن يتنازل لمقابلة زيارته بزيارة مثلها . وبسبب سلطتهم هذه قد يصدر عنهم أعمال مضرّة يأباها الشرع والعقل . إذ يحكمون بكفر بعض الأشخاص أو بفسقه إذا رأوا منه ما يخالف أهواءهم . بل قد يكفر بعضهم بعضاً حبًّا للإنفراد بالرئاسة ، خصوصاً في هذه الأزمان الأخيرة بعد ما انتشر مذهب الوهابية في الهند فإن من كان أنفذ سلطة إذا رأى نجاحاً لمن هو دونه يحكم بأنه وهابي ، حتى يسيء الى اسمه . ويُلزمون الحكام بإجراء العقوبات الفظيعة على مَن حكموا عليه . ومن ذلك ما وقع في قندهار . وهو إن أحد كبار العلماء حكم بكفر الشيعة فثارت عليهم قلوب الأهالي ، وقامت الحرب بينهم ، وسفك فيها عزيز الدماء ، ونُهبت البيوت والدكاكين . وكذلك ما وقع في كابل وهو : إن بعض علمائها حكم بكفر الشيعة ، ووقعت بسببه حرْب امتدّت أشهراً بين السنيين والشيعة (القزل باش) . والبعض منهم يتسم بسمة الطريقة ، ويتوسد وسادة الإرشاد . وهؤلاء يتخذون مساكن ، ورباطات للزائرين وغيرهم ، ويقدّمون لهم الأطعمة في أوقاتها . ووجاهتهم ونفوذ كلمتهم ، وسعة نفقاتهم ، بحسب ما يأخذونه من الذين يلوذون بهم بإسم الهدايا والنذور . ومنهم من يتمكن بحسن سلوكه وظاهر صلاحه من قلوب العامة ، ويحصل له الكلمة العليا والنفوذ التام ، ويقصده ألوف من الناس من كل فج ، فيقدّم لهم الموائد مدّة إقامتهم لديه ، ولا يخلو رباطه في جميع الأوقات من مئين من الأطعمة والأشربة والألبسة . ومنهم من يتفرّد بالحكم في بعض أضلاع البلاد الأفغانية ، ويتمتع بضلعه ، ويحامي عن حوزته ، ويدفع من يهاجمه من جيرانه ، ويهجم في بعض

الأوقات عليهم محتجاً في كل ذلك بالأدلة الدينية . ومن هؤلاء عبد الغفور المشهور (بأخند صوات) الذي كان متسلطاً على (صوات) و (بنير) . وكـان معتقداً في جميع البلاد الأفغانية على العموم بل وفي بلاد الهند وبخـارى . وكـان فقيهـاً ، زاهداً ، متقشفاً ، مخشوشناً في معيشته ، يتعيش من الذرة والدخن الجبليـين ، وألبـان معز لا ترعى إلّا أعشاباً جبلية . وكان عنده على الدوام عدد وافر من المريدين . وكثيراً ما شنّ الغارة على الإنكليز ، وانتصر عليهم . وكان ينشر في البلاد منشورات يدعو بهـا أهلهـا إلى الجهـاد فيجتمـع إليه ألوف من الناس . وكان يؤيده ويساعده على هذا جماعة من الوهابية من الهنود أصحاب السيد أحمد الوهابي الذين هاجروا من الأقطار الهندية خوفاً من المسلمين السنيين وتوطنوا في صوات وبنير .

وهـذا الشيـخ « أخنـد صوات » كان إذا وفد إليه الزائرون وأبناء السبيل يقرّبهم على حسب أحوالهم، وما منحهم الله في بلادهم من جاه وثروةٍ أو ضعةٍ وفقر . وكان يقدّم إلى الأمير ما يليق به، وإلى الفقير الرائب والبصـل والخبز اليابس وكان اذا سمع ان شيخا قد ارتفع صيته في البلاد . أو جلس مجلس الارشاد بادر بالحكم عليه بالتوهب ، حتى تنفر منه القلوب ، وتنزل درجته من إعتبار العامة . وقد قتل بعض المشايخ بسبب حكمه هذا ، وأشهر بعضهم على أشنع هيئة وأقبح صورة .

وجميـع علمـاء الأفغان يحرمون شرب التبغ بجميع أنواعه كعلماء بخاري ، ولكنهم لا يتعرّضون لمنع العامة عنه إلّا « أخندصوات » فإنه كان يرسل من لدنه الرسل والمبعوثين إلى البلاد الأفغانية ليمنعوا الناس من شرب الدخـان ، ويكسروا الشبُقـات والأرجيـلات إذا ظفروا بها ، ويحـرمون أكل ذبيحة الشيعيين ، مع أنهم يحللون أكل ذبائح اليهود والنصـارى ، زاعمـين أن الشيعة قد ارتدّوا . والمرتد لا تؤكل ذبيحته بخلاف أهل الكتاب . وجميعهم يحمل على عاتقه حِراماً غليظاً أو رقيقاً على حسب الفصول لأجل الصلاة . بل ذلك عادة غالب الأفغانيين . وجميعهم يظهـرون التعصب للدين ، ويبـدون الغـيرة على الأحكـام الشرعيـة والاعتقادات ، إلّا من كان منهم على منصة الإرشاد فإنه قد يوجد فيهم التساهل في الأمور الدينية . ولطلبة العلم لِمَا يرون من احترام العامة لهم بعض تعدٍّ على الناس حتى إن طلاب (نكنهار) يتحزّبون ، ويتسلحون

بالقـرابينـات ، ويهجمون على أهل القرى ، إذا رأوا أدنى إهانة منهم لأحدهم ، ولا ينتهون عن التطاول ، إلّا أن يقدّم الأهالي كفارة عما فرطوا في جانبهم . وكثير من طلّاب تلك النواحي لا يبالون بالصلاة والصوم ، ولهم احتفالات في بعض أيام السنة يدعون إليها من الطلبة وغيرهم ما يزيد عن ألف شخص ، ويلزمون أهل القرى بتهيئة مأدبة فاخرة ، ثم يأتـون بأمرد جميل ، ويلبسونه برقعاً وأساور ، ويجلسونه على كرسي ويلقبونه بالسلطان فيكون له الحكم مدّة هذا الإحتفال يأمر بضرب من يشـاء ويغرم من يشاء . وحين ما يريدون الإنفضاض يجيء المسمى بالوزير منهم بين يدي المجعول سلطاناً ، ويقول له « إن الجند قد تمردوا على السلطان نظراً لإنقطاع الراتب عنهم » فيسفر ذلك الأمرد عن وجهه ، ويضع جانباً من النشوق في راحته ، ويبسطها ، فيتوارد أهل الإحتفال عليه ، وكلّ يتناول شيئاً من هذا النشوق ، وبهذا ينفضّ الملعب . واللغة الأفغانية في غاية الخشونة . وحروفها الهجائية أكثر عدداً من حروف اللغـة الفـارسيـة . وأحسن من يتكلم بها أهل مدينة قندهار . وتوجد مؤلفات قليلة بهذه اللغة نظماً ونثراً .

ومن الشعوب الموجودة في البلاد الأفغانية شعب يقال له (تاجيك) ومنه غالب سكان مدينة هرات وضواحيها ، ومدينة كابل والقرى الواقعة بينها وبين بلخ ، وكذلك أهل مدينة قزنه وبعض القرى المجاورة لها ، ولقمان وقصبة لقمان ، وبعض قرى قندهار . ومنه أيضاً غالب سكان المـدن البلخيـة . وهذا الشعب ذو حدّ واجتهاد وله حرص على تعاطي الحرف والصنائع كالحياكة والنجارة والحدادة والبناء ، وغيرها ، وعلى معـرفـة فن الزراعـة وتـربية الأشجار والكروم ، وله عناية بالتجارة . والساكنون منه في قوهستان كابل قد طبعوا على الشر والفساد وحب القتال وسفك الدماء ، فترى الحرب قائمة فيما بينهم أبداً لا تخلو منها قرية مع أخرى ، ولا بيت مع آخر . ومن ثم تجد رجالهم غالباً قد اتخذوا لهم بروجاً يقيمون بها بأسلحتهم خوفاً من الغارات .

وبالجملة إن هذا الشعب أحسن حالاً من الأفغانيين . فإنه أدرى منهم بالإدارة المنـزلية ، وأنظم في زيه وملبسه . ويمتاز عنهم بمراعاة النظافة ، بل يفوقهم درايةً وإدراكاً ، وفهماً وذكاءً . غير أنه قلّما يوجد فيه عالم أو مَن يميل إلى تحصيل العلوم على خلاف الأفغانيين . ومما اشتهر

به سكـان القرى من هذا الشعب إصابة المرمى . فهيهات أن تخطيء رصاصة أحدهم الغرض . ولهم صنف من طوال الخناجر يتقلدونها . وجلّ هذا الشعب سني على مذهب أبي حنيفة . ولا يوجد في هذا الشعب عصبية كما لا يوجد فيه أمراء . وغالبهم بيض الوجوه ، ويعتمون بعمامة الأفغانيين نوعاً .

ومن الشعوب أيضاً شعب (هزاره) ويسكن هذا الشعب في الجبال الواقعـة في شمـال قزنه الممتدّة إلى شمال هرات . وأصله من الجنس المغولي كما يؤخذ من سيمائهم . فإن بعيونهم ضيقاً مع ميل لحاظها نحو الرأس . ولحـاهم غالبـاً ليست إلّا بعض شعـرات نابتة في أذقانهم . وبـالجملة فإن تركيب وجـوههم يشبـه تركيب وجـوه الصينيين والتتر الأصليـين . وقـد قال بعض المؤرخين إن هذه القبيلة من بقايا عسكر جنكيـز خان . بل ادعى إنهـا كانت منـذ ثلاث مئـة سنة تتكلم اللغة المغـولية . لكن مَن وقف على تمكنها من اللغة الفارسية ، وعدم مزجها إياها بشيء من اللغة المغولية ، مع مجاورتها للتركمان ، وجنس الأزبك من الترك ، يجزم بأنها استوطنت مواطنها هذه من قبل جنكيز خان بمدد مديدة . وهذه القبيلة لم تزل على الخشونة والتوحش ، عريقة في البداوة إلى الغاية ، على أنها تحسن صنع صنف من الجوخ يقال له (برك) وهو أجود أصنافه . وقلّما يصنع نظيره في أوروبا . وجميعها ما عدا عمارة جمشيدي يلبسون قباءً مشقوقاً ويتمنطقون عليه . لكن إذا كان القباء من برك فيجعلون أكمامه إلى المرافق ، ومنها إلى الزند ، ويتخذونها من أقمشة أخرى كالحرير وغيره . وفي فصل الشتاء يتخذون قلنسوة من القمـاش . وأمـا نساؤهم فيعتممن دائماً ، ويلبسنَ كالرجال قباء على الشكل المار ذكره . وأما الجمشيدي فلباسهم يشبه لباس مجاوريهم من التـركمـان والأويمق ، وهـو جبـة تضرب إلى الكعبـين ضيقـة الأكمام قصيرتهما ، وقلنسوة من الفراء تسمى (باباق) بالباء الفارسية . وهذه العمـارة معـروفة بالفروسية ومطبوعة على النهب والسلب وشنّ الغارة كجـيرانهـا ومشهورة بالشجاعة والإقدام ، وإصابة الغرض في المرامي كسائر أخواتها من قبيلة هزاره .

وهـذه القـبيلة على مذهب الشيعـة إلّا فصيلة « شيـخ علي » و « الجمشيـدي » ، لكنهـا ليست على شيء من هذا المـذهب إلّا بغض

الخلفاء ، ومحبة علي ، وإقامة مأتمه في عاشوراء ، بضرب السلاسل على الصدور والظهور . ولا يتقي آحاد هذه القبيلة إظهار مذهبهم ، مع أن التقية من واجبات مذهب الشيعة ، حتى لو سئل أحدهم عن مذهبه لقال بغلوّ بدون مبالاة « إني عبد علي » ولهم زيادة اعتصام بمذهبهم هذا .

ومما يحسن سرده هنا أن سنيًا عرض التسنن على جارية منهم كانت عنده فأبت فعزّزها وزجرها وألح عليها ، فاستشاطت غيظاً ، وقالت : « أهون عليّ أن أكون كلبة ولا أكون سنية » . ومن شأنهم أنهم يلقنون أمواتهم أثر دفنهم بكلمات معناها : « إذا جاءك ناكر ومنكر فلا تخف فإن مولاك عليًا سيحضر عندك ويطردهما عنك » . ومن عاداتهم أن أهل الميت يشق كلّ منهم قلنسوته بعد دفنه ويتركها على قبره . وقلّما يوجد عند هذه القبيلة نقود ، وغالب معاملاتهم بالمقايضة ، وتأخذ منهم الحكومة بدل النقود على حسب حال كل شخص عدداً مخصوصاً من صنف المعز ، فإن تأخر أحدهم في أداء الضرائب حتى تراكمت عليه وعجز عن أدائها يُقدم بنته بدلاً ، فيتخذها العامل أو الحاكم كجارية . وأغلبهم يستعمل أطعمتهم بلا ملح لندرة وجوده ، ويعظمون الشرفاء (أي أولاد علي ابن أبي طالب رضي الله عنه) غاية التعظيم . ويتميز الشريف عندهم عن غيره بالأنفة والعظمة وعدم التحية عند قدومه على مجلس من المجالس واستعمال الشتائم في مخاطبته للعامة . ويعللون هذا بأن الشرفاء سلاطين ، فلا ينبغي لهم أن يعاملوا الناس إلّا بهذه الطريقة .

ومن العادات الغريبة عندهم أنه إذا حصلت منازعة بين امرأتين تقيم كل منهما نائبة عنها من النسوة أمام الأخرى ، فتبتدىء إحداهما بالشتم محركة يديها ورجليها ، وحاجبيها بحركات مختلفة فتجيبها الأخرى بشتم أفظع على ذلك النحو من الحركات . وهكذا تتناوبان الشتائم حتى تأتي إحداهما بشتم يبلغ الغاية في الفظاعة بحيث لا تقدر الأخرى أن يأتي بمثله فتنفصل الدعوى ، وتكون الدائرة على التي صارت نائبتها عاجزة عن المقابلة . فإن انقضى النهار ، وما حصلت الغلبة لإحداهما تأتي كل واحدة منهما بقفّة تكفأها قائلة « الميعاد غداً » . ومن الشعوب قبيلتا أزبك وتركمان ، وهما من أصل تتري يتكلمون الآن باللغة التركية . والقبيلة الأولى تسكن في أقطار بلخ ، والثانية في الأراضي الواقعة بين مدينتي ميمنة وهرات ، وكلهم سنيون على مذهب أبي حنيفة . وإن

الأزبكيين (الذين ينسبون إلى أحد حفدة جنكيز خان) يشتغلون غالباً بالحرث ، وتربية الكروم والأشجار ، واقتناء المواشي ، ويعتمون بعمائم صغيرة يسدلون عذبتها على آذانهم ، ويلبسون جُبَباً من الحرير وغيره ، مبطنة بقماش غليظ ، وشيء من القطن ، تحاكي الحفة الصغيرة . وبعضهم يلبس ثلاثاً أو أربعاً من هذه الجبب بعضها فوق بعض . ولهم حذق في الفروسية والطعن بالرماح . وإذا ذهب أحد منهم لزيارة آخر يرفع يديه إلى السماء ، ويقرأ سورة الفاتحة ، وبعد ذلك يقدّم له المزور قطعة خبز فيأخذها ويقبلها بكل احترام ، ويضعها في جيبه . ولهم رغبة تامة في شرب الشاي ولا يستنكفون من أكل لحم الفَرَس . ويوجد فيهم بعض من العلماء .

وأما التركمان فيلبسون جبباً من البرك ، ويضعون على رؤوسهم قلنسوة من الفراء تسمى باباق بالباء الفارسية كما ذكرنا . ولهم إهتمام تام بتربية الخيول . وخيولهم متولدة من الخيول العربية التي جلبها نادر شاه من نجد . وغالب هذه القبيلة المتوحشة المتبربرة يتعيشون من السلب والنهب ويغيرون على بلاد إيران وأطراف هرات ، يأسرون الرجال والنساء ، ويبيعونهم باسم العبيد والإماء ، مستدلين بأن أسراءهم من الشيعيين يجوز بيعهم لخروجهم عن الديانة الإسلامية . وكثيراً ما يأسرون أشخاصاً من السنيين ، ويجبرونهم بالضرب والكي على أن يعترفوا أمام الناس بالتشيع ، كي لا يمتنع أتقياء بخاري عن شرائهم . واتفق أن بعضاً منهم أسر عالماً من علماء أهل السنة من نواحي هرات ، فكبله بالسلاسل خوف الهرب . ومع ذلك كان إذا حضر وقت الصلاة أطلقه ليؤمَّ الجماعة . وكان بعد تمام الصلاة يقيده ثانياً . ولما رأى العالم منه ذلك قال له « أنت تعلم أني رجل سني ، فبأي وجه تجوّز أسري وتحلل بيعي ؟ » فأجابه بقوله : « إنك لست بأشرف من القرآن الكريم ، فكما يجوز لي هبة القرآن كذلك يجوز لي أيضاً هبتك . وأما البيع فحاشا » . وبالجملة إن هاتين القبيلتين موصوفتان بالظلم والشر خصوصاً الأخيرة . غير أن عددها قليل في البلاد الأفغانية .

ومن الطوائف الموجودة في البلاد الأفغانية طائفة الشرفاء (أولاد علي ابن أبي طالب رضي الله عنه) ويلقبون في تلك البلاد بالسيد . وبعض من هذه الطائفة يسكن في « بشنك » من نواحي قندهار ، وبعض منها يسكن

في ولاية « كنر » الواقعة قرب جلال آباد . ولم يخل شرفاء كنر من الكبراءِ والعظماء من عهد « بابرشاه » إلى يومنا هذا .، وللأفغانيين عموماً مزيد اعتقاد بهذه الطائفة . وأما عاداتهم وملابسهم فتماثل عادات الأفغانيين وأخلاقهم وملابسهم .

ومن سكان بلاد الأفغان أيضاً طائفة « قزل باش » وهو لفظ تركي ، ومعناه أحمر الرأس . وقد لقب بهذا اللقب جميع العساكر الصفوية الشيعيين ، لأنهم كانوا يعتمون بأمر السلاطين الصفوية بعمائم حمراء ، وجلُّها يسكن في كابل ، والباقي منها يستوطن في قزنه وقندهار . وأصل هذه الطائفة من البلاد الإيرانية . وقد أتى بهم نادر شاه إلى هذه البلاد . ولهم حذق في الآداب والصنائع والأعمال الديوانية . ومن أجل هذا ترى أن المتوظفين في الإدارة الملكية الأفغانية منهم . وغالب الأمراء يختارونهم لتربية أولادهم ، ولتعليمهم الأدب والشعر . ويمتازون بالذكاء والفطنة والنظافة عن بقية سكان البلاد الأفغانية ، ويتصفون بالشجاعة والإقدام . وكلهم على مذهب الشيعة ، يقيمون مآتم للحسين ابن علي ابن أبي طالب في الشهر الأول من شهر محرم .

ويوجد في جنوب قندهار قرب « بشنك » بعض من طائفة البلوج . وهذه الطائفة من أصل فارسي . ومن عاداتهم أنهم يرسلون شعورهم ويدهنونها ويحتذون بالنعال ، ويضعون نجاد سيوفهم حمائل على عواتقهم . وهم موصوفون بالقوة ، ومشهورون بالسرقة والغارة ، ومعروفون بالكرم ، ولا يعرفون من الإسلام إلّا إسم الله تعالى ، واسم محمد صلى الله عليه وسلم . وبعضهم يعرفون علي رضي الله عنه . وإذا قيل لأحد منهم : « ياأيها البلوجي هل تصوم ؟ » يجيب قائلاً : « إني ما سرقت معز النبي صلى الله عليه وسلم بل إن خالنا (أي أميرنا) قد سرقها فمنعه النبي (عليه الصلاة والسلام) من الأكل ثلاثين يوماً ، زجراً . وهكذا إذا سئل عن الصلاة يقول : « إن الخان هو الذي يصلي » وإذا لَقِي أحدٌ منهم أحداً سواء كان منهم أو أجنبياً عنهم يبتدره بالسؤال عن الخان ثم يحييه بتحيات متتالية تستغرق زماناً ، ويختمها بقوله : « وبالجملة فهذه الطائفة في غاية الجهل والتوحش والتبربر وغلظة القلب حتى إن فصيلة منها تسمى (مرى) تغير على القوافل ، وتأبى إلّا قتل رجالها زعماً منها أن الأموال لا تحل ما دام أربابها في قيد الحياة .

ويوجد في البلاد الأفغانية كثير من عبدة الأوثان الهنديين ، ولهم بها معابد تسمى « درمسال » ولهم خارج مدينة كابل محرقة يحرقون فيها جثث أمواتهم على مقتضى ديانتهم . وغالباً يحفظون رمادها ويرسلونه إلى نهر القنج . وجلهم على مذهب بابانانك الذي أشرنا إليه سابقاً ويشتغلون غالباً بالتجارة والصيرفة ويجتنبون غاية الإجتناب مس غير المتدين بدينهم ، ويتحاشون عن تعاطي طعامه وشرابه .

وأما كيفية حكومة الأفغانيين : فالحكومة الأفغانية حكومة استبدادية مطلقة ، ولكن لها نوع مشابهة بالحكومة الشوروية[١٧٦] لأنها لا يمكن إبرام أمر مهم فيها إلّا بمشاورة رؤساء القبائل . وهي مؤلفة من أمير ، وهو سلطان البلاد ، ووزير ، وهو بمنزلة الصدر الأعظم ، و « مستوفي الممالك » ، وهو بمثابة ناظر المالية والداخلية معاً في سائر الحكومات ، و « خازندار » وهو الذي يناط به حفظ النقود الأميرية ، و « إيشيك أغاسي باشي » وهو الذي ترفع إليه عرائض المشتكين ويفصل الدعاوي بين المتخاصمين بأمر الأمير ، وولاة . وغالب هؤلاء الولاة من العائلة السلطانية ويلقبون بالسردار ، وجنرالات وهم رؤساء العساكر . وبعض هؤلاء من السرداريين ، وكتوالين وهم الشحنة ، أي ضباط البلد . ويوجد في كل بلد مستوف نائب عن « مستوفي الممالك » وهو لضرب الضرائب وجمع الأموال الأميرية ، ومأمورون ، وجباة .

وأمير الأفغان ليس له أبهة ملوك الشرقيين وجلالتهم ، بل يجلس في ديوان الحكومة المسمى عندهم « دربار » على النمارق الفارسية ، مع أعيان الحكومة ، ولا يتميز عنهم إلا بمتكأ يوضع بجانبه ، ولا يمنع الحاجب والبواب أحداً من الدخول عليه حتى أسافل الناس . ولكل واحد من أهالي البلدان أن يرفع شكواه إليه مكلماً إياه مشافهة ، رافعاً صوته بدون خجلٍ ولا مبالاةٍ . وهكذا سائر الولاة مع الرعية في الولايات . نعم ، إنه يقف أمام الأمير كثير من الخدم متسلحين بالسيوف والخناجر مهيئين لإجراء الأوامر والنواهي ، ويركب في محفة تحملها أعناق الرجال تارةً وفي هودج محمول على الأفيال أخرى . ويجلس مع الأمير في ديوان الحكومة (خان منلا) وهو قاضي القضاة لفصل الدعاوي الشرعية . ويجلس أيضاً مع كل والٍ قاضٍ . ولا يجوز للأمير ولا لأحدٍ من الولاة أن يتداخل

(١٧٦) هكذا في الأصل، والصواب الشورية.

في الأمور الشرعية . ولا يوجد للحكومة الأفغانية قانون سياسي ، وإنما الحل والعقد ، وفصل القضايا ، وتعيين الجزاء ، وتحديد العقاب ، وضرب الجزية (أي الجزاء النقدي) ، والحبس ، والضرب ، والطرد ، موكول برأي الأمير . وسائر الولاة يفعلون على حسب ما يتراءى لهم (ولا شك أن هذه الطريقة لا تخلو من الغدر والظلم في كثير من الأحيان) غير أن العقاب بالمثلة ، وقطع اليد والرجْل ، قلّما يقع في تلك البلاد . وأما القتل سياسة فلا يقدم عليه الأمير جهاراً إلّا إذا اتفقت معه آراء كبراء قبيلة مَن أراد الأمير قتله خوف الفساد وخشية التعصب وإثارة الفتنة . نعم ، إن الأمير كثيراً ما يفعل بعظماء عائلته أفعالاً شنيعة كالقتل والسمل ، وغيرهما من الفظائع لعدم من يقوم بناصرهم ، ويأخذ بثأرهم . وكثيراً ما يصادر الأمير أموال الوزراء إذا غضب عليهم ، أو أحسَّ منهم بسوء . وهكذا يفعل الولاة من العائلة السلطانية مع المستخدمين في الولايات للسبب عينه . ولا ينجو أرباب الغنى من التجار والزرّاع من هذه البلية . وللأمير أن يتصرف في الخزينة الأميرية كتصرفه في مطلق ماله كيفما يشاء . وليس لأحد حق ةالمنع والرّدع بل لا يخطر ببال شخص ما أن الأموال الأميرية ليست من ممتلكات شخص الأمير ، وأنه لا يجوز لأمير ما أن يتصرف فيها إلاّ بالمقدار الذي يجوّزه القانون ، وترضى به الأمةُ .

ولعدم معرفة الحكومة الأفغانية بواجباتها وعدم وجود قانون يجبرها على موجبات الإصلاح تراها غير مهتمة بتأمين السبيل وإصلاح الطرق ومنع قطاع الطريق وحفظ القوافل ووقاية السابلة . حتى إن القافلة إذا أرادت أن تذهب من بلدٍ إلى بلدٍ فلا يمكنها ما لم تكن مؤلفة من مئتين متسلحين بالسيوف والبنادق ، كأنهم جيوش حربية مستعدون للطعن والنزال ، لا للبيع والشراء . ولأجل هذا قلّت التجارة في تلك البلاد وصار سوقها كاسداً . ويوجد في بعض البلاد الأفغانية محتسب لدفع الموبقات وإن الحكومة الأفغانية تشبه أن تكون حكومة عسكرية لأن جميع أرباب المناصب الملكية والعلمية وكل المستخدمين من الوزير إلى الكاتب المسمى عندهم « ميرزا » ومن قاضي القضاة إلى أدنى نائبه تقيد أسماؤهم في الدفاتر العسكرية ، وتكون مرتباتهم الشهرية على حسب ما يوجبون عليهم إحضاره في المحاربة من الفرسان للمقاتلة والمناضلة : مثلاً يقرِّر

لقاضي القضاة مرتب مائة خيال ، فيجب عليه أن يحضر في جميع المحاربات مصحوباً بما فرض عليه من الفرسان متسلحين بأسلحتهم . وإن الحكومة تلزم مشايخ القرى والقصبات بجمع عساكر النظام من أرباب العقارات والضياع ، فيقدم المشايخ رجالاً على حسب ما يتراءى لهم من غير قانون ولا ضرب قرعة . وليس لمدة العسكرية حد معين . وإذا كان العسكري تحت السلاح فراتبه الشهري ست روبيات ، بلا تعيينات يومية . وقد يحصل التأخير في أدائه . ولها أن تجمع في أوقات المحاربة من سكان البوادي ، وأهل القرى على حسب كثرتهم وقلتهم مشاة تسمى عندهم « خاصه دار » وفرساناً تسمى أوبره سوار « بالباء الفارسية » وهي التي تقوم بمؤونتهم مدة المحاربة . وغالب هؤلاء الفرسان من الجمشيدي والأزبك . والأمارة الأفغانية وراثية ، ولكن لا يشترط أن يكون الوارث أكبر أولاد الامير فله أن يجعل من يشاء من أولاده ولي عهده . ومع ذلك لا تخلو الإمارة الأفغانية من التقلقل لشدة حرص الطامعين ، وكثرة شره المفسدين ، الذين لا يألون جهداً في السعي للتغلب عليها . ولا توجد معاهدة دولية بين هذه الإمارة وسائر الحكومات وإنما تقرر بعضا من الشروط بينها وبين الحكومة الهندية الانكليزية في الزمان السابق .

والأموال الاميرية في تلك البلاد قسمان : قسم يؤخذ من أرباب الزراعة وأصحاب البساتين ومقتني المواشي . وهذا القسم يشبه أن يكون زكاة شرعية . وقسم يؤخذ من أرباب الدكاكين والصنائع ، ومن كل ذكر من طائفة الغلجائي يكون عمره خمس عشرة سنة (ضربت على كل ذكر من طائفة الغلجائي روبية جزية عليهم وإذلالاً لهم تؤخذ منه كل سنة منذ انتقلت السلطنة منهم إلى العبدل قبيلة الأمير الحالي) ومن أرباب الجنايات جريمة ، ومن البضائع الواردة الى البلاد الأفغانية باسم « الجمرك » والرسم الذي يؤخذ بهذا الاسم لا يتقيد بحدود البلاد، بل يؤخذ في كل مدينة وقصبة . ولما كان سكان الجبال غالب الأوقات في حال التمرد والعصيان ، فلا يمكن استحصال الأموال منهم إلا بالقوة الجبرية وإرسال الكتائب من العسكرية . ولتوالي الفتن في البلاد الأفغانية واستمرار عصيان القبائل فلا يمكن بيان المعدل الحقيقي للأموال الأميرية ، ويظن أنها لا تزيد عن مليون ونصف من الجنيهات ، ولا

تنقص عن مليــون وربــع . وهــذا المبلغ يصرف في مرتبــات العــائلة السلطانيــة . واللغــة الرسمية عند الحكومة هي اللغة الفارسية . ومن عادات الأمــراء الأفغــانيين أن يخرجوا يوم عيدي الأضحى والفطر في موكب عظيم للصلاة خارج البلد . وبعد أدائها تضرب المدافع والبنادق ويتسابق أمامهم الفرسان على الخيول الجياد . ثم بعد عودهم يجلسون في الديوان وتمد الموائد وترد عليهم الناس أفواجا للمعايدة .

خاتمة الكتاب

(في ذكر أحوال البلاد الأفغانية إجمالا)
(من حيث الأهوية والأبنية والمزارع)
(والصناعة والتجارة والمعادن)

إن البلاد الأفغانية ، لاختلاف أبعادها عن خط الاستواء ، ووجود الجبال العالية والأودية المنخفضة فيها ، تختلف أهويتها حرارة وبرودة على حسب المواقع ، وتتغير بتغير الفصول والأزمان ، ولكنها جيدة للصحة لخلوها من العفونة والفساد . وقلَّ ما تقع فيها الأمراض الناشئة عن فساد الهواء كالأمراض الوبائية . وبيوت المدن والقرى طبقة واحدة مبنية غالباً باللِّبن ، خالية عن الزخرف والزينة إلا مدينة كابل ، فإن جل أبنيتها بالأخشَاب والأحجار وقد يوجد في بعضها حدائق وجداول وحياض . وشوارعها وأزقتها ضيقة معوجة خلا شوارع مدينة قندهار فإنها واسعة مستقيمة . والجوامع المشيدة المزخرفة التي كانت في تلك البلاد في الأزمنة السالفة صارت بسبب توالي هجمات الأعداء ودوام المحاربات خاوية على عروشها إلا القليل منها . وأما ما يوجد منها الآن فإنها خالية من الإحكام والمتانة ، عديمة الزخارف والزينة ، وتحيط بالمدن والقصبات أسوار عليها أبراج على الطراز القديم لا تقاوم المدافع وإنما هي سد لهجمات الفرسان . نعم ، إن لكل من مدينة هرات ومدينة كابل مناعة فإن الأولى مسورة بسور محصن بأتربة تمنع تأثير أكر المدافع ، والثانية محاطة بجبال عليها أبراج واستحكامات يمكن بها مدافعة العدو زمناً طويلا .

وأراضي الأفغان قابلة لأنواع المزروعات ترويها أنهر ونهيرات ، ولكن لكثرة الفتن وعدم مهارة الأهالي في فنون الزراعة وإحكام الجسور ، وحفر الترع ، وبناء القناطر ، تكون غالب الأراضي معطلة وتذهب الأنهر في الأودية والأراضي المرملة بلا انتفاع يعتدُّ به . ومع ذلك فالأهالي يزرعون البُرَّ والشعير ، والأرز والذرة ، والدخن والباقلة ، والحمص والبقول ، والخضروات ، وغيرها مما تقوم به معيشتهم ، ولا يهملون زرع قليل من القطن والتنباك والأفيون والحشيشة للتجارة ، ويسعون بقدر طاقتهم في

غرس الأشجار وتربيتها ، كالكرم والخوخ ، والمشمش والكمثرى ، والتفاح والسفرجل ، والرمان والجوز ، واللوز والعناب ، والفستق والتوت وغيرها . وأهالي هرات يربون دود القز ، ويزرع في جلال آباد قصب السكر ، ويوجد في بعض الجبال الأفغانية كثير من الصنوبر والمصطكى والفستق البري والجميز ، وكل الفواكه الموجودة في تلك البلاد في غاية الجودة .

والصنائع في تلك البلاد قليلة جدا . وهي ما ورثوه عن آبائهم من غير اهتمام بإجادته وإتقانه . فمنها نسيج الأقمشة الحريرية ، وعمل صنف من الكشمير غير الملون المسمى عندهم «بتو» بالبء الفارسية والفراء « الكرك » من جلود الحمل في مدينة كابل ، ومنها عمل الأبسطة الملونة الجيدة في هرات ، ومنها الجوخ المسمى ببرك كما أشرنا إليه سابقاً في قبيلة هزاره . ويوجد في كابل وقندهار معامل صغيرة لاصطناع المدافع والبنادق والسيوف .

ومعاملات بلاد الأفغان التجارية لم تكن غالباً إلا بينها وبين الهند وبخارى وايران، فالصادر منها الى الهند هو الصوف والقطن والفواكه والنقل بأنواعه تحمل على ظهور الإبل ، وإلى إيران البرك والفراء وصنف من النعال وشيلان الكشمير المجلوبة إليها من بلاد كشمير و« عنبرسر » ، ويجلب إليها من بخاري والهند الجوخ وأقمشة الكتان والقطن والشاي والسكر والزجاج والخزف الصيني والقرطاس والفولاذ والحديد والنحاس والزئبق ودود القز والعقاقير ، وغير ذلك . ومن إيران الأقمشة والأسلحة . ويوجد فيها معادن كثيرة ولكن الأهالي غير قادرين على استخراجها والانتفاع بها ، ومنها معادن الذهب في قندهار ، ومعدن الحديد في بلاد « خست وكرم » ، ومعدن الياقوت في كابل ، ومعدن الحديد والكبريت ، والياقوت ، واللازورد في بدخشان ، وغير هذه توجد معادن كثيرة معطلة . وهذا ما أردنا بيانه في كيفية سلطنة الأفغانيين ووضع بلادهم وطرق تعيشهم وسرد قبائلهم والله ولي التوفيق .

٣

رسائل

مسودة رسالة إلى رياض باشا

[كان مصطفى رياض (١٨٣٥ ـ ١٩١١) وزيرا في عهد الخديو اسماعيل ، ورئيسا لوزراء مصر في عهد الخديو توفيق . وقيل إنه كان صاحب دعوة الأفغاني ـ بايعاز من الخديو اسماعيل ـ للإقامة في مصر ، بعد تأزم موقفه في تركيا واضطراره لمغادرتها عام ١٨٧١ .

وحين تأزم موقف الأفغاني مرة اخرى في مصر عقب تولي الخديو توفيق عام ١٨٧٩ ، كان رياض في أوروبا . ولم يتمكن أصدقاء الأفغاني الآخرون ، مثل محمد شريف ومحمود سامي البارودي من التدخل عند الخديو لايقاف أمر طرده من البلاد . فكان أن قبض عليه ليلة السادس من رمضان الموافق ٢٤ أغسطس (آب) ١٨٧٩ . وتم ترحيله من السويس إلى الهند في ٢٦ اغسطس .

وعند عودة الأفغاني من منفاه بالهند في أواخر ١٨٨٢ مرَّ بمصر في طريقه إلى أوربا . وكان رياض رئيساً للوزراء في ذلك الوقت ، فكتب له الأفغاني رسالة طويلة مؤثرة روى فيها ظروف اعتقاله وطرده . ثم أرسلها مع تابعه « أبو تراب » لتوصيلها إلى رياض باشا ، بالإضافة إلى ثلاث رسائل أخرى إلى معارفه وأصدقائه ، مثل شريف باشا غريم رياض ورئيس الوزراء الأسبق ، وعبد الله فكري باشا الوزير الأديب .

وفي هذه الرسالة ، التي سنطالع مسودتها هنا ، لم يستطع الأفغاني التخلص من الألم الذي لحق به بسبب طرده المفاجىء ، ولا من الود الذي حمله للخديو توفيق . ومع ذلك لم يكن هدفه من كتابتها العودة إلى مصر ـ فيما يبدو ـ فكلماته تحمل من الألم والغضب ما يؤكد عزمه وقتها على الذهاب إلى بلاد أخرى غير بلاد المسلمين التي لم يلق فيها إلا العذاب والمتاعب .

كتب الأفغاني مسودة الرسالة بخط دقيق ، وملأها بالشطب والتصحيح ، حتى إن بعض عباراتها لا يقرأ . ومع ذلك فهذه العبارات قليلة ولا تؤثر في السياق . وقد أشرنا إليها في مواضعها ، فضلا عن الكلمات المعجمية التي درج على استخدامها وكان لابد من شرحها في الهوامش .]

مولاي ،

ها أنا ذا اليوم في القنال أذهب إلى لندن ، ومنها إلى باريس مُسَلِّما عليكم ، ومُمَجِّـداً إيَّاكم تمجيدا يكون إذا وجهته مقامكم ، وكفاء لعلو شأنكم ، ويعادل عظيم درجتكم في نزاهة النفس وطهارة السريرة ونقاوة السيرة ، ويوازي جليل زينتكم من عقائل الصفات وكرائم الخلائق التي تدثرتم بها ، مؤديا مدارج كمال صعدتم فيها بالعقل المطبوع ، وقَصَّر الآخرون حقها ـ وبما فطرتم عليه من جبْلَة تأبى أن تقف على الطوية دون أن تبطنها ، وتستنكف إلاَّ أن تخَـوضها وتكتنهها . لا شك أن المصيبة العظمى التي رمتني ، والبلية الكبرى التي أصابتني ، قد أحطتم بها علما ، وانكشف لكم باطنها عن ظاهرها ، وسرها عن علنها ، وظهرت لديكم خفيتها ، ورفعتم عن ظل أستارها حقيقتها ، وعلمتم أنها كانت حَيْفاً على بريء ، جلبت التهمة على نقي ، وما بقيت إلى الآن تحت حندس الخفاء محجوبة عن بصيرتكم الثاقبة ، ولا أكنتها عن بصرك النافذ في أطباق الحجب المظلمة أستار العمى ـ فإن عقلاً محضا ، ولبا صرفا، مثلكم، لا تغُرُّنه الظواهر، ولا يصغى الى نعق ناعق، ولا يعير سمعه قول مجازف ، ولا تحركه عواصف التقولات ، ولا تتزغره هبوب الافتعالات ، بل لا يمشي في الحوادث إلا بنوره وهداه ، ولا ينقاد في الوقائع إلا إلى سلطان برهان أوضح له سبيل الحق وأراه ـ لأنه يعلم أن من يأخذ بالظاهر يغتر ويغر ، والذى يتبع كل ناعق يغر نفسه ...[١٧٧]

وكم أُلبس الحقُّ لِباسَ الباطل، وكم ظهر الباطل بدثار الحق، وكم تَرَدى الجور برداء العدل ، وكم عُلِّم العدل بعلامة الجور ـ وحوشيت أن تكون من الذين عقولهم في آذانهم ، وألبابهم في حاشيتهم وبطانتهم ، يعتقدون ما يقولون ، ويقولون ما يسمعون ، ثم يجلسون على منصة الحكم ، فيقضون ، لا عقل فيرشدهم ...[١٧٨] ولا خشية من سوء فتقدعهم[١٧٩] ـ ولا أرتاب أنكم بما جبلتم عليه من الفطرة النقية والطينة الرحيضة[١٨٠] ، بعدما ظهر لكم جَليُّ الأمر ، قد استعظمتم الرزية التي غشيتني ، والداهية التي مَعكتْنيَ بلا جنحة اقترفتها ، ولا جناية اجترحتها ـ فإن

---

(١٧٧) عبارات غير واضحة لا تؤثر في السياق .
(١٧٨) عبارة غير واضحة لا تؤثر في السياق .
(١٧٩) تمنعهم .
(١٨٠) النظيفة .

من لا يَسْتعظم مصيبة العدوان ، ولا بلية الحيف لا يأبى أن أتى بها ولا يبالي أن يكون مصدرها . وليس في الحيف صغيرة ولا كبيرة ، فإنه منشأ سخافة العقل وقسوة القلب . وإذا اجتمعت هاتان الخلتان في رجل فقد استوت عنده صغيرته وكبيرته ـ وأنت العدل حقاً والنصْفة صدقاً ....[(١٨١)]

بل أنا موقن بغريزة عقلكم الثاقب قد علمتم حقيقة هذه المصيبة وأسبابها ودواعيها وبواعثها . ولو اكفهرت سحب التلبيس ، وقول الزور ، على سماء عقول كثير من الناس ، وبطهارة نفسكم الزكية قد استعظمتم هذا الجور واستوحشتم من هذا الضيم ، الذي جنته على يد قلوب الذين لا يعقلون ، لأن الحنانة على المظلومين واللهف عليهم ، إنما تكون بمقدار العدالة ، وحب النصفة ، والنفار من العدوان وكراهة الجور . وأنت تعالى مقامك ، لك القدم الأعلى في العدالة والقدم المُعَلَّ في النصفة .

ومع هذا وهذا وذاك أريد أن أخبركم بحقيقة هذه البَلِيَّة المفجعة ، حتى يكون سمعها كعيانها ، وسترها كإعلانها ، فأقول إن الخديو كان يحبني قبل أن ينال الملك محبة صادقة . وأما أنا فقد كنت وليا لمن ولاّه ، وعدوا لمن عاداه ، وسَلاماً لمن سالمه ، وحرباً لمن عاداه ، ولا أزال أقدَع من يعاديه وأكف من يناويه ، حتى إن الشيخ البكري[(١٨٢)] كان يريد أن يثير الناس بتحريك اسماعيل باشا[(١٨٣)] والإفرنج (فذهب إليه ناصحا له مهددا إياه قائلا إن الماسونيين عزموا على قتلك غيلة ، لأنك تسعى في إدامة حكومة هذا الظالم، فاصفر لونه، وغلب عليه الخوف، وخاف ان لا يعين اسماعيل باشا في شيء، وأن لا يمتثل لأمره[(١٨٤)] (وكل هذا بعلم الخديو وطلب منه . وكانَ الخديو كل يوم يرسل إلى كاتبه كمال بك قائلا : إن أفندينا يسلم عليكم ، ويقول ليس لنا في هذا سواك معين .

وإن جماعة من الإفرنج الماسونيين وأذنابهم من حثالة الأمم الغابرة وثفالة الشعوب الماضية ، وبقايا السريانيين المنتخرة الذين كانوا تحت

---

(١٨١) عبارة غير واضحة .
(١٨٢) شيخ الطرق الصوفية .
(١٨٣) المقصود : الخديو اسماعيل .
(١٨٤) بين القوسين جاءت في هامش المسودة تصحيحا لعبارة اخرى مشطوبة ، ولكنها واضحة ومنها : « وإن الشيخ البكري اولا وشاهين باشا ثانيا كُلٌ منهما يريد ان يثير فتنة ويجلب على مصر بلية عمياء . وانا هددت كلًا بالماسونيين حتى كف هذا وانقدع (بمعنى كف او امتنع) ذاك » .

رياسة عبد الحليم باشا حينما كان رئيسا على مجلس الماسون في القاهرة ماقَصّروا أن سعـوا لعبـد الحليم باشا . وأنا حبا في الخديو جابهتهم بالعداوة ، وقابلتهم بالخصومة ، ورفضت مجلسهم ، أنا ومن كان مثلي مغرورا بحب الخديو ، ونبذت رياسة محفلهم ، وتركت ودادهم ومججت ألفتهم ، وأنـا المُؤسِّسُ عليهم من سنين . وكانوا يحبونني ، وأحبهم ، وأقرهم ، ويعظمونني . وكل هذا ما فعلته إلاّ ثقة بحب الخديو ـ حتى إن المسونيين من الإفرنج ، وأذيالهم ذهبوا إلى (تريكو)[١٨٥] ، وبلّغوه أن صَغْـوَ[١٨٦] المصريـين مع عبـد الحليم باشـا ، وضلعهم معه (وميلهم إليه)[١٨٧] . وروعوه من وقوع الفتنة إن عدل عنه إلى غيره . ولما بُلِّغْتُ هذا أسرعت أنـا والمعتزون بحب الخديو من حزبي إلى القنصل فكذبت ما بلغوه ، وأظهرت له جلية الأمر وكشفت القناع عما أضمروه . وقد أعلن كل هذا في الجرائد الوطنية[١٨٨] .

وليس للخـديـو أن ينكـر ما فعلته ، ويجحد هذه المساعي ، وغيره وغيره ، إلا أن يفقأ عين الفتوة ، ويكفأ أذُنَ المروة . ولما أحس أخواني الماسونيين مني الرجوع إليهم والاتفاق معهم ...[١٨٩] وقنطوا من فوز عبد الحليم باشا نصبوني عرضا لسهام افتعالاتهم ، وأطلقوا عليَّ ألسنتهم السلاط ، فبهتوني واتهموني ، ونسبوني إلى طائفة النهليست[١٩٠] مرة ، وإلى السوساليست[١٩١] أخرى ، وأشاعوا كذبا وبهتانا أني عازم على قتل الخديو والقناصل جميعا ـ يا للعقل والعاقل ! من أين لي الجيوش التي تقوم بهذه الأمور الصعاب ، وأنا رجل غريب في مصر . وما كنت أظن في عميقـات فكـري أن يوجـد في أولاد آدم شخص يعـير سمعه إلى هذه الأباطيل ، ولو كان أفيناً ، ولكن قد وجد ـ

وبعدما نال الخديو الملك تَألَّبَ هؤلاء الماسونيون أحزاب عبد الحليم باشا ، ودفعوا إلى الخديو ، وألقوا إليه ما ألقوا تشفيا بغيظهم ـ وأنا ما

---

(١٨٥) قنصل فرنسا في القاهرة .
(١٨٦) مَيْل
(١٨٧) كُتبَت فوق العبارة السابقة وقد تكون بديلا لها .
(١٨٨) سياتي ذكر ذلك في القسم التالي من هذا الكتاب .
(١٨٩) عبارة غير واضحة . ويلاحظ ان عبد الحليم (حليم) باشا عم توفيق المطالب بالعرش كان رئيساً للماسونية في مصر قبل طرده عام ١٨٦٨ . ومع ذلك كان اتباعه في مصر نشطين للغاية .
(١٩٠) العدميون .
(١٩١) الاشتراكيون .

عاديتهم ، ولا رفضت رياسة مجلسهم مع علمي بكثرتهم وقوتهم إلّا اتكالا على الخديو وثقة به ـ وما كنت أدري أن الخوف من حيث الثقة ـ وقد كتبت ردا لتقولاتهم في جميع الجرائد المصرية والعربية والإفرنجية[١٩٢] ، وأظهرت للحكومة فيها مكنون نياتهم ، واستعنت بها على دفع شرهم . ـ وقد أتاني الشر منها ـ وقد أعان الماسونيين أحزاب عبد الحليم باشا على اختلافاتهم وساعدهم على افتعالاتهم ، ونمق تعديهم وبهتانهم ، الشخص المعكوس ، والهيكل المركوس ، والرجل المعيوب عثمان باشا[١٩٣] المغلوب ، الذي كان ضابط البلد في ذلك الوقت ، لضغينة اتقدت في أحشائه ، وهي أن شابا من تلامذتي كتب في جريدة من الجرائد في ضمن مقالة ما معناه أن عثمان باشا ضابط البلد مثلا ليس بمعصوم ، يخطىء ويصيب ، فغضب ذلك المركوس وتَمَعَّر ، وآخذ الأستاذ بذنب التلميذ ، وزاد على إرجاف حزب عبد الحليم إرجافا ...[١٩٤] وبهتانهم بزوره واختلاقهم بافترائه .

وسمع (بتقولات هذا النذل)[١٩٥] إذ ذاك الشريف باشا[١٩٦] فنهنهه ، وكفكفه ، وزَجره ، ونهره ، فكَفَّ لسانه كاتما حقده وضغينته . فلما استعفى الشريف باشا قام ذلك اللئيم متوقداً ملتهبا ، ظنا منه أني شكوته إليه ، لا وحقك علي ، ما رفعت شكوى إلى أحد . بل ماعلمت أن الشريف باشا زجره وعاتبه إلّا من لسانه في ليلة مصيبتي قائلا لي : إنك الآن في قبضتي ، إن شئت أحرقك بالنار وإن شئت أغرقك في الماء جزاء لشكايتك ، فإن الشريف باشا زجرني ، وتوعدني بالعزل لأجلك .

وبالجملة ، إن ذاك اللئيم بهذه العلل الداهية ، وبإغراء أحزاب عبد الحليم كان يلفق كل يوم أكذوبة ويختلق أرجوفة ، ويبلغها إلى مسامع الخديو . وأنا لثقتي واعتمادي عليه ما كنت مباليا بهذه الإرجافات ، علماً مني بأنه عاقل لمّا يسمع هذه الأكاذيب في حق رجل قد جاهر بولائه ، ودافع عنه في وقت قد ألجم الخوف أصدقاءه . ولكن خاب الظن ، وظهر

---

(١٩٢) سيأتي هذا الرد في آخر الكتاب .

(١٩٣) عثمان باشا غالب (١٨٣٠ ـ ١٨٩٣) كان محافظ القاهرة في ذلك الوقت ومن رجال الخديو توفيق ، وهو الذي قام بتنفيذ أمر اعتقال الافغاني وإبعاده ، وإن كان الافغاني يعتقد انه هو سبب طرده لضغينة شخصية .

(١٩٤) كلمة غير واضحة .

(١٩٥) العبارة كتبت بين السطور .

(١٩٦) محمد شريف رئيس الوزراء وقتذاك .

خلاف ما كنت اعتقد ـ ونسى الخديو محاماتي له ، ودفاعي عنه ، ومحبتي إياه (وما واجهني به يوم تبركه قائلا إن لسانه عن أداء شكرك عاجز[١٩٧] ، وزعم زعما من غير رَوِيَّة ، وظن ظنًا لا عن تَدَبُّر وإجالة فكَرة أني عدو له ، وأريد الغدر به ، فأمر بتبعيدي عن الديار المصرية ـ ظلما وجورا ، وأنا في غفلة عن ذلك ، فما راعني إلا انثيال الضابط إليَّ في الثانية[١٩٨] من الليلة السادسة من رمضان لدى العتبة الخضراء[١٩٩] ، وأنا آت من بيت محمود بك العطار[٢٠٠] . فأخذوني بكل غلق واضطراب إلى الضبطية ، فإذا ذاك اللئيم جالس على منصة الظلم . فلما سألته عن سبب هذه الفظيعة ، وعلة هذه الفعلة الشنيعة تَعْتَعَ ومَجْمَجَ ، فمرة قال إن العلماء لا يرضون بإقامتي في مصر ، ومرة قال إن قناصل الدول في وَجَلٍ منك ، ومرة قال إن أفندينا ما ذاق النوم ثلاث ليال بأيامها من خوفك .

وبعد هذا الخَبْط والخَلْط ما صبر حتى كشف عن مكنون سريرته، وجاهر بما ستره من ضغينة ، وأظهر عليَّ من عتاب شريف باشا قائلا : إني تجاوزت عن إغراقك . ولكن يجب عليك أن تذهب إلى جهنم ، إمَّا من طريق بلاد العجم ، وإمَّا عن بلاد الهند . وكلما طلبت تسفيري إلى الآستانة أو إلى باريس أو إلى الحجاز تَأَبَّى إلاّ إرسالي إلى جهنم . وطلبت إلى ذلك اللئيم أن يمهلني يومين وأنا في الضبطية ، حتى أعد للسفر عدته ، وأبيع مِمَّا أملكه ما لا ينقل وأحمل معي ما يجب أن أستصحبه . فأبرز بطنه منتخبا وقال : نحن نكفيك مؤنة هذا وأنت في السويس . كن مطمئنا وهاهو أحمد بك (وكيل الضبطية) تكفل لك جميع ذلك .

وكل هذا كانت منه نكاية فيَّ وتشفيا من غيظ ما كان له سبب سوى وهم باطل ـ ثم أرسلني ذلك النذل إلى السويس مع جمع من الضباط . وبقيت فيه يومين محبوسا محاطا بالعساكر، لا قدموا لي الطعام ، ولا تركوني حتى أجلب من السوق ـ وفي آخر الوقت جاء رجل من طرف الأحمق الذي يتصرف في السويس لظلمه ، وأخذ ما كان في جيبي وجيب خادمي من

---

(١٩٧) العبارة بين السطور .
(١٩٨) يقصد في الساعة الثانية صباحا .
(١٩٩) ميدان العتبة الخضراء بالقاهرة .
(٢٠٠) أحد نواب مدينة القاهرة الثلاثة في البرلمان ، وكان شيخ التجار .

الدراهم والأقراش[٢٠١] وقلم الرصاص والسبحة والمنديل والسكين[٢٠٢] ، قائلاً إن أفندينا قد أمر بذلك . وبعد هذا الفصل الشنيع قادني إلى مراكب الظالم قَوَّدَ الجمل المخشوش ، فلما مثلت بين يديه قلت له بصوت ......[٢٠٣] : يا أيها الباشا ، إن كنت مأمورا بقتلي فَلِمَ التأخير والتواني ؟ وإن لم تكن مأمورا بذلك فلم منعتني عن جلب الطعام من السوق ، ولا قدمت ما يقتات به من عند نفسك (في هذين اليومين بل أمرت أن تصليني جوعا)[٢٠٤] ، فانكمش وجهه الصلد الوقح كأنه يستحي ، وقال : ما عليَّ . أنا مأمور ومعذور . ثم فغر فاه قائلاً : أنت الآن تذهب الى وابور الأركط (إن شاء الله يصير طيب . طيب) وترسل قبل وصولك أموالك وكتبك إلى بندر كراجي[٢٠٥] أو بندر أبو شهر أو البصرة ، وترى كل خير من أفندينا إن شاء الله (هذه سياسة معوجة تركية) فقلت له إن أمرت أن ترد إلينا الأقراش التي أخذت من جيبنا حتى نقدر على النزول من الوابور الى بندر من هذه البنادر التي ذكرت . فتعبس ، وتجهم ، وقال رافعا صوته : أما هذه فلا يمكن . لأني أخاف أن أخالف أفندينا . فإن أفندينا قد أمر أن أسلب جميع ما عندك وعند خادمك سوى الثياب .

وجملة الأمر (أنني) قد ذهبت من مصر (بسِرْبال وسروال ...)[٢٠٦] إلى بندر الكراجي - وزاد جميع هذه الآلام والمصائب تأثر النفس الذي حصل لي من خجل استولى علي وتبيغ[٢٠٧] به دمي عندما تصورت أن حزب عبد الحليم باشا سيستهزئون بأفعالي ، ويسخرون من محاماتي عن الخديو ، ومحبتي له ، وقد جرى منه ما جرى ، لأنهم كانوا عارفين بحقيقة الأمر - فأسألك الآن يا عقل مصر ، ويا عدل القاهرة ، بما حزت من مزايا الكمال في عميقات إدراكاتك ، ودقيقات أفكارك ، وبما نلت من فضيلة التمام في ساحة طهارة نفسك وثقتها وذرى أخلاقها الذكية وشواهق سجاياها الرحيضة ، أن تسأل هنا عليَّ، وقياما بواجب حق

---

(٢٠١) القروش . وفي النص كلمات كثيرة من هذا النوع الذي يتصرف فيه الأفغاني عند تعامله مع العربية . ومع ذلك فهو جمع صحيح على وزن افعال .

(٢٠٢) يبدو أنه كان يحمل مطواة .

(٢٠٣) كلمة غير واضحة .

(٢٠٤) العبارة بين السطور .

(٢٠٥) بندر كراجي : مدينة كراتشي . والوابور هنا : الباخرة .

(٢٠٦) العبارة بين السطور .

(٢٠٧) تبيغ - بتشديد الياء : هاج وفار .

العقل ، وأداء الفريضة العدل ، عن أفعالي وحركاتي مع الخديو وغيره من عبد الله باشا فكري وفخري باشا وكمال بك كاتب سر الخديو والشريف باشا الذي بحمايته صرت فريسة للكلاب ، فإن كُلًّا كان عالما بصدري ووردي ، عارفا بأعمالي وأفعالي ، عندما كنت في بلاد الإفرنج[٢٠٨] ، ما خفيت عليهم خافية من أموري ، حتى تقوم على ما أحطت به علما بنور عقلك من استقـامتي واعتـدالي شَواهـدُ العـدل وبـراهـين الصدق ـ فيكون حكمك في قضيتي أيها الحاكم العدل عن بيِّنة ـ ثم تدبر يا عقل مصر بنافذ بصيرتك في هذه الحكومة التي تبكي الفرح الجذبدن[٢٠٩] ، وتضحك الكئيب الحزنان ، وتأمل بناقد إدراكك في دعائمها والقوامين على ......[٢١٠] (يا ترى تدوم حكـومـة بهؤلاء الظلمة الجَهَلة ، وتقوم دولة بأولئك العمي الصمم ، ترجو أن تعمر البلاد ......[٢١١] أتظن أن (يزيد مات والحجـاج توفى)[٢١٢] ؟ إن الحجـاج وتيمـور قد ماتـوا .....[٢١٣] جراثيم يتناسخون من صلب إلى صلب وينتقلون من بطن إلى بطن . لا تخلق حكـومـة من حكـومـات المسلمين في هذه القرون ... على منصة الجور ، يأمرون بالفحشاء والمنكر وينهون عن المعروف والبر .

وحق العدل ، وعظم شأنه ، لو تأمَّل البصير في هذه الحكومات وما فيها من الحيف والعسف ، لرأى أن بقاءها في العالم لا يكون إلا لتزيد خزيا متتـاليـا وافتضاحا متواليا ، نكالا من العدل ، وخذلانا من النصفة ، وقصاصا لما جنت على أنفسها من الجور والظلم ...

فيـا عدل القـاهرة ، لو نظرت بنظارة إنصافك دقائق المصيبة التي أصابتني من الحكومة المصرية ، وأنا طاهر القلب نقي السريرة ، بريء من كل جنحة وجناية ، ورأيت بمرآة عدالتك ما تواردت عليَّ لأجلك تلك الرزية من البلايا المتتابعة في الهند ، لحكمت حكما عادلا أن الداهية الدهياء التي نزلت بالحكومة المصرية ، وأخذت بمخنقها دون كفارتها ـ حقا أقول إن بالعدل قامت السماوات والأرض وما بينهما ، وبالجزاء قام

---

(٢٠٨) يقصد عندما كان رياض خارج مصر في اوروبا وقت اعتقاله .
(٢٠٩) الجذبدن : السعيد
(٢١٠، ٢١١) كلمات غير واضحة .
(٢١٢) عبارة مشطوبة .
(٢١٣) كلمات اخرى غير واضحة .

العدل على مركزه ، وعلى محوره استدارت رحاه ـ والذي أضحكني بعد ما أبكاني ما كتبته أضحوكة الجرائد وفهرست الأفعال السيئة ودفتر الأعمال الشنيعة ، الوقائع المصرية، من أن « الحكومة الخديوية قد اطلعت على جمعية سرية رئيسها جمال الدين الأفغاني قد أسست على فساد الدين والدنيا »[٢١٤] .

نعم ، قد صدقت في قولها هذا من تكون عونا للحمق ، وعضدا للخرق ، فقد أفسد الأديان لا دينا واحدا ـ وشكرا للعدل الذي قد أشاع بألف لسان وأضاع بألف قلم كفر من نسبني إلى إفساد الدين ـ وأما الدليل الذي أقامته من جور الدولة العلية من قبل على صحة ظلم الحكومة الخديوية من بعد فهو دليل طبيعي لا يرد ولا ينكر ، لأن بذر العسلوج[٢١٥] من تلك الدوحة التي ساخت أسنانها في كثبان القسوة ، لا تؤرق إلّا حيفا ولا تزيد إلا عَسْفاً ، ولا تثمر إلا خَسْفا ـ وأعجب من كل هذا وأدل أن ذلك اللئيم المعيوب أعطى كتبي وأنا حي ميراثا ، سبحانه من رجل يرث كل ......[٢١٦] ويا للعدل ويا للانصاف ! وحقك عليَّ ، إن هذا لشيء يستفرغ ماء الشئون ويقضي على العاقل بالجنون .

وبعدما، يامولاي ، تؤلم قلبك الشفيق الرحيم بعد استماع تفصيل المصيبة التي دمغتني في مصر . فالآن أسألك بسماحة أخلاقك أن تعيرني سمعك ، حتى أقص عليك مجملا من تفصيل ما نزل عليَّ في الهند من البلايا التي على نتائج البلية المصرية ، لأنك وحدك منتهى شكواي ، فأقول إني من يوم وصولي إلى بندر الكراجي كان ثاني يوم من بلوغ خبر قتل (كيوناري) قنصل الانكليز في كابل ، كنت تحت الحفظ كل ساعة متهيأ لاستماع سؤال ثم جواب ، وكل يوم مستعدا للذهاب من عند حاكم إلى آخر لتجدد الفحص والتمحيص ، وكل شهر مشمرا للانتقال من بلد إلى بلد لاستنطاق جديد ، واستماع خطاب عنيد . وكانوا يمنعون الناس من معاشرتي ، ويحظرونني من لقائهم ، ولكنهم ما سلبوني ولا أخذوا المنديل والسبحة من جيبي بأمر الملكة خلافا للحكومة الخديوية ، إلى أن

---

(٢١٤) يبدو ان احد تلاميذه كان قد أرسل له في الهند نسخة من الوقائع المصرية التي نشرت نبا إبعاده .

(٢١٥) النبات الاخضر او الكرم اول ما ينبت .

(٢١٦) كلمة غير واضحة .

ذهب أيـوب خان[٢١٧] الى طهران ، فحينئذ اطمأنت خواطر الانكليز من طرفي ، وتركوني ...[٢١٨] ثقيل الظهر ، كسير العظم ، من الضنك والضيق والقلق والاضطراب ، أخبط خبط عشواء ، لا أعرف الضلالة من الهدى ، فذهبت إلى الدكن[٢١٩] ، وأنا لا أملك نفيرا ولا فتيلا ، ولا أجد لنفسي بيتاً ولا مُقيلا ـ وبينما أنا ضال عن رشدي ، وحائر في قصدي ، وأتأمل في المصائب التي تبادرت علي ، وأتفكر في حالي وما يئول إليه أمري ، فإذ قامت الداهية العرابية[٢٢٠] ، على ساقها ، واستولى الألم على الحكومة الانكليزية، واشتدت وساوسها، خوفا من وقوع الفتنة في الهند، واعتَقَدَتْ بأني مرسل من طرف عرابي باشا لتحريك المسلمين وتحريضهم ، ضد الحكومة الانكليزية ، فجلبتني من الدكن إلى كلكتا ، واشتدت عليّ في السؤال والجواب ، وكنت كل يوم متهما في تهديد وتحذير . ولقد ضيقت علي مسـالك الرحمـة . وكلمـا كان صوت العرابي يزداد اعتلاء كانت الحكومة الانكليزية تزداد علي شدة ، خصوصا عندما قال ذلك القوال المجـازف : أنـا أثـير مسلمي الهند على الانكليز ، حتى أني من شدة تضييق الحكومة وعدم إصغائها إلى ما ألقي عليها من الأجوبة ، طلبت منها اضطراراً (وفرارا من البلية ... إلى بلية أخرى)[٢٢١] أن ترسلني الى الخـديـو ، ورفعت مسـألتي هذه إلى حاكم الهنـد ، وهو وقتئذ في السِّمْلة[٢٢٢] ، فظللت منتظرا للجواب . وظلت الحكومة في الخطاب والعتاب الى أن إنطفت الفتنة ، فأطلقتني مع مراقبة أفعالي وحركاتي ، ليلا ونهارا ...

فلما رأيت أن المصائب كل يوم تكشر عليَّ عن أنيابها ، وأن البلايا تفتح كل ساعة بابها ، تفكرت في الرزايا التي جلبتها على الغباوة والقسوة ، وترويت في أمري ، وعلمت أني لو أذهب إلى بلدي ، وفي العين قذى ، وفي الحلق شجى ، وفي الكبد أوار وفي القلب نار مما أصابني ، لا أجد فيه بين أهله ، وكلهم مسلمـون ، من إذا قصصت قصتي ، وكشفت عن

---

(٢١٧) زعيم افغاني معاد للانكليز ترك بلاده في ذلك الوقت وذهب الى ايران .
(٢١٨) كلمة غير واضحة .
(٢١٩) حيدر اباد
(٢٢٠) وضع كلمة « الداهية » محل كلمة « الفتنة » التي شطبها .
(٢٢١) العبارة بين السطور .
(٢٢٢) العاصمة الصيفية للاقليم .

غصتي ، يئن علي ، ويتوجع لي ، ويأسف على مصابي ، لأن المسلمين فطروا على جبْلة واحـدة ، وخلقـوا من طينـة متمـاثلة بلا اختلاف في الطبيعة ، ولاَ تغاير في السجية ، لا يستعظمون الضيم ، ولا يستوحشون من الظلم ولا يرون الحيف فظيعا ولا العسف شنيعا ....[٢٢٣] فعزمت أن أذهب ـ وإن كنت صفـر اليدين خالي الراحتين ـ إلى بلاد فيها عقول صافية ، وآذان واعية ، وقلوب شفيقة ، وأفئدة رفيقة ، حتى أقص عليهم ما يجـري على ابن آدم في المشرق . (وهـذا هو سبب ذهابي الى بلاد الافـرنج)[٢٢٤] ، وأخمد النار الملتهبة في قلبي من هذه البلايا ، وأضع حمل هذه الهموم التي انقضت ظهري . وأنا إن مُتُّ فعلى الدنيا بعدي العَفاء ، وإن بقيت فلا أعدم عقلا يرفق بي ، ولا أفقد عدلا يحن علي ـ وهذا هو سبب ذهابي إلى بلاد الافرنج .

وقد أرسلت يا مولاي إلى رفيع جنابكم خادمي (العارف)[٢٢٥] لقبض أموالي وكتبي التي تخلفت عني في مصر ، بعد ما شردتني اليد الظالمة ، وأخـذ شـهـريتي البـاقيـة على الحكومة ، والثقة في كل هذه بعد لكم ، والاعتماد على انصافكم ، والشفقة وسماحة أخلاقكم أن تُظلوا العارف بظلال شجرة رحمتكم ، وتؤوده في فناء عاطفتكم إلى أن يقَبض أموالي ويلحق بي في لندن .

ثم أرجـو بضراعـة واستكانة ، رجاء معتقد لكم ، آمل لِكُلٍّ فضيلة تتبـاهى بهـا الأمم ، أن تنظروا إلى تلامذتي بنظر العناية ، خصوصا الشيخ محمد عبده والسيد ابراهيم اللقاني . ولو صدرتْ عنهم في هذه الفتنة الشوهاء فلتة عن جهالة ، فاعفوا عنهم بواسع رحمتكم ، وتجاوز عن سيئاتهم بكريم أخلاقكم . ولا تؤاخذهم يا مولاي بخطيئاتهم فإنك أنت العفو الكريم ، والبر الرحيم .

ولقد أرسلت مكتوبا إلى الشريف باشا ومكتوبا آخر إلى عبد الله باشا فكري ، ودعوتهما إلى أداء الشهادة . والسلام .

---

(٢٢٣) كلمات غير واضحة .

(٢٢٤) عبارة مشطوبة .

(٢٢٥) ابو تراب وكان يكتبه بهذا الإسم .

أربع مسودات لرسائل أخرى

[من الواضح - كما جاء في مسودة الرسالة التي كتبها الأفغاني لرياض باشا - أنه كتب - رسالتين اخريين إلى محمد شريف باشا رئيس الوزراء الاسبق وعبد الله فكري باشا . ونظرا لأنه لم يحدد اسم أيهما على كل من الرسالتين ، فمن الصعب تحديد المرسل إليهما ، لولا أن رسالته لعبد الله فكري قد نشرت صورتها الزنكوغرافية . وبمقارنة هذه الصورة بالمسودات الأربع التي صحبت مسودة رسالته إلى رياض باشا أمكن تحديد مسودتها . كما أمكن - وهذا هو الأهم - تحديد تاريخ كتابة هذه الرسائل . فقد جاء على رسالته لفكري تاريخ ٨ صفر ١٣٠٠ اي ٢٠ ديسمبر ١٨٨٢ . ومعنى ذلك أن الأفغاني مرَّ بمصر - من الهند إلى أوربا - في ذلك التاريخ .

ومن الواضح أيضا من رسالتي اللقاني (الأولى) وأديب اسحق (الثانية)[٢٢٦] أن ابا تراب تابع الأفغاني وخادمه حمل هذه الرسائل إلى رياض وشريف فكري ، وربما حمل غيرها . وبقي في القاهرة حتى اعتقل وسجن ، ورُحِّل الى بيروت مع المحكوم عليهم بالنفي بعد احتلال مصر .

تكشف هذه المسودات الأربع عن نغمة الألم التي كشفت عنها المسودة السابقة لرسالته الى رياض باشا . وتضيف الى تلك المسودة بعض المعلومات مثل كشفه عن اسم ابراهيم اللقاني الذي هاجم عثمان باشا غالب في صحيفته « مرآة الشرق » .]

---

(٢٢٦) راجع رسالتي اللقاني واسحق في كتابنا : الافغاني وتلاميذه ، المركز العربي للاعلام والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

المسودة الأولى (يحتمل أن تكون موجهة إلى محمد شريف باشا رئيس الوزراء المصري)

مولاي

أنت الحق ، وأنت مع الحق أينما كان ، لا تحيد عن الرشد ، ولا تميد عن السداد ، ولا تتهاون في فريضة العدل ، ولا تقصر في واجبات كمال النفس وطهارتها . وتصدع بالصدق ، وتقول الحق ، لا تأخذك فيه لومة لائم ، ولا تلويك عنه معيبة ظالم ، ولا تسدك خشية غاشم . ولا تكتم الشهادة خوفا من الجائرين واسترضاء للخائنين ـ وأنت كنت تعلم حقيقة مجلسنا[٢٢٧] وأساسه ، وسبب وقوع الفساد فيه . ما خفي عليك شيء . وكنت عارفاً بواقع أمري ، مطلعا على سريرتي وسري ـ فكيف صبرت ، مع كونك مجبولا على الحق ، مقسورا على حمايته ، أن ينسب إلى عثمان باشا[٢٢٨] الضابط ما نسب من الأكاذيب والافتعالات . وقال إفتراء وكذبا أني كنت رئيسا على مجمع قد وضع أساسه على فساد الدين والدنيا ، حتى أذعن الخديو بغير روية إلى قوله فأمر بنفيي بأشنع صورة .

ـ أمثلك يهاب أن يقول الحق ، ويخشى أن يصدع بالصدق ؟

ـ أمثلك يكتم الشهادة ؟ أمثلك يرى الظلم ، ويتهاون في دفعه ، ويتقاصر في دفعه ، حاشاك ، حاشاك ، ما هكذا الظن بك . ولكن ...[٢٢٩]

ـ ثم يا مولاي أرسلت (العارف) الى صاحب الدولة رياض باشا لقبض أموالي وكتبي التي بقيت في مصر ، فأرجو رجاء من يعتقد أنك أمل لكلٍّ أن تنظر إليه بنظر عنايتك كما هو من سجيتك وعادتك ـ وأنا الآن في القنال أذهب إلى لندن ، ومنها إلى باريس ، مسلما عليك سلام المشتاق إليكم .

---

(٢٢٧) إشارة إلى المحفل الماسوني الذي اسسه في القاهرة عام ١٨٧٩ .

(٢٢٨) عثمان باشا غالب مدير الأمن في ذلك الوقت الذي اعتقد الافغاني انه اوعز الى الخديو بطرده.

(٢٢٩) هذه العبارة جاءت في هامش المسودة بجوار العبارة التالية .

المسودة الثانية (موجهة إلى عبد الله باشا فكري[٢٣٠])

مولاي ،

إنّ نِسْبَتَك لا هوادة في الحق . وأنت ، تقدست جبلتك ، فطرت عليه ، تخوض الغمرات إليه . فقد بعْتُ يقيني بالشك ـ وإن توهمت فيك حيدانا من الرشد وجورا عن القصد، وأنا موقن أنك لا زلت على السداد غير مُفرِطٍ فقد استبدلت علمي بالجهل ـ ولو قلت انك من الذين تأخذهم في الحق لومة لائم ، وتسدهم عن الصدق خشية ظالم ، وأنت تصدع به (وتقول الحق غَيْر وانٍ ولا ضجر ولو ألب الباطل)[٢٣١] ، ولو ألب الباطل الكوارث المردية ، وأضرى عليك الخطوب الموبقة ، لكذبت نفسي ، وكذبني من يسمع مقالتي ، لأن العالم والجاهل والفطن والغبي كلهم قد أجمعوا على طهارة سجيتك ونقاوة سريرتك ، واتفقوا على أن الفضائل حيث أنت ، والحق معك أينما كنت ، لا تفارق المكارم ، ولو أضطررت ، وأنت مجبول على الخير لا يحوم الشر حولك أبدا ، ولا تصدر عنك نقيصة قصدا ـ ولا تهن في قضاء حق ، ولا تكف عن شهادة صدق مع هذا وهذا وذاك .

إنك مع علمك (بحقيقة)[٢٣٢] بواقع أمري وعرفانك بسريرتي وسري (أراك قد قصرت في حقي وكتمت الشهادة)[٢٣٣] أراك ما ذدت عن حق كان واجبا عليك حمايته ، ولا حنثت عهدا كانت عليك رعايته ، وكتمت الشهادة وأنت تعلم أني ماأضمرت للخديو ولا للمصريين شرا ، ولا أسررت لأحد في خفيات ضميري ضرا، وتركتني وأنياب النذل اللئيم عثمان باشا الضابط حتى نهشتني)[٢٣٤] وتركتني حتى ينهشني النذل اللئيم عثمان باشا المغلوب نهش السبع الهرم العظام ، ضغينة منه على السيد ابراهيم اللقاني وإغراء من أعدائي أحزاب عبد الحليم باشا ـ ما هكذا الظن بك ولا المعروف من رشدك وسدادك . ولا يطاوعني لساني ، وإن كان قلبي مذعنا بعظم منزلتك في الفضائل ، مُقرا بشرف الشهادة ، إزاحة للشبهة ، وإدحاضا للباطل ، وإخزاء للشرِّ وأهله .

---

(٢٣٠) اورد اصل هذه الرسالة الدكتور محمد عمارة ـ نقلا عن كتاب « جمال الدين الافغاني للدكتور محمود قاسم ـ في كتابه « الاعمال الكاملة » ص ٥٤٠ والمسودة لا تختلف كثيرا عن الاصل المرسل . ويلاحظ انه في هذه الرسالة قد صرح باسم تلميذه (ابراهيم اللقاني) الذي اعتقد أن ضغينة عثمان غالب ضده هي السبب الرئيسي في إبعاده من مصر . وكان تاريخ هذه الرسالة هو ٨ صفر ١٣٠٠هـ .

(٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤) هذه العبارات والكلمات مشطوبة او مضافة بين السطور .

ثم إني يا مولاي، أذهب الآن إلى لنـدن ومنها إلى باريس. وأرسلت العارف إلى صاحب الدولة رياض باشا لقبض أموالي وكتبي التي بقيت في مصر. وأرسلت إليه مكتوبا أظهرت فيه تفصيل ما جرى عليَّ في مصر، وما ابتليت به (بعد النفي)[٢٣٥] في البلاد الهندية. وأرجو من عميم فضلك، أن تنظر الى العارف بنظر العناية، وأن تساعده في الأمر الذي أرسل لأجله.

والسلام عليكم وعلى أخي الفاضل أمين بك .

المسودة الثالثة (موجهة إلى شريف باشا كما يظهر من السياق)

مولاي ،

المـدح إبـانـة مكتوم . والوصف إظهار خلق غير معلوم . وأنت بكل فضيلة موصوف ، وبكل مكرمة معروف ، فلا أكدح في ثنائك ، ولا أدأب في مدحك. كيف، وقد وقف دون مقامك منطق الفصحاء ـ وإنما أقول انك في القـطر المصري أمان لكل البرايا. وبك قامت فيه دعائم العدل وأساطين النصفة . تحب كل خير بجبلتك وتسعى إليه ، ولا يأتي منك الشر وإن أجبـرت عيه . وليس في عدلك ونصفتك أدمان ، وليس لك من الظالمين أخـدان . وأنت الفـرد الذي لا ترضى بالظلم أينما حلّ ، وتأبى الجور والأجل والأقل . ولكن مهما أنت فيه يامولاي وعليه من حب الإنصاف وبغض الحيف والاعتساف ، قد سطا علي في زمان عدلك الظلم بسيفه ، وأراق العـدوان دمي ، وليس لي ناصر ولا معـين[٢٣٦] . يا للعـدل ، ويا للانصـاف ، أهكـذا يفعـل بالبريء في بلد أنت الرئيس عليه . لا ، لا وحقك ، إن هذا ليس من النصفة في شيء . إن عدلك ، يا مولاي ، نهر عثمان باشا حماية عن الحق ، ونهاه عن التهمة والافتراء والتجني على هذا المسكين البريء[٢٣٧] . ولكن أبت النفس الخبيثة إلا الشر ، فاختلق أقوالا ، وافتعل أكاذيب ، وبلغها سمع الخديو . والخديو بلا تدبر ورَويَّة ، ولا إجالة فكرة ، أمر بطردي من الديار المصرية[٢٣٨] ، بأشنع وجه وأقبح صورة ، ظلما وعدوانا . فإن أنت يا مولاي بعدلك لا تأخذ ثأر الحق من

---

(٢٣٥) هذه العبارة مشطوبة او مضافة بين السطور .

(٢٣٦) كتبت هذه العبارة فوق عبارة اخرى مشطوبة ، هي : « وانا بريء من كل جنحة وجناية » .

(٢٣٧) هناك عبارة في هامش المسودة موازية لهذه العبارة ، ونصها : « وحقك ، إن الرجيم لا يطيق ان يسمع كيفية طردي ومعاملة عثمان باشا معي » .

(٢٣٨) تلي هذه العبارة عبارة مشطوبة ، هي : « ظلما وعدوانا » .

ذاك الخبيث المفتري ، مع علمك بأني كنت بريئا من تلك التقولات التي نَسَبها إلي[٢٣٩]، كذبا وافتراء، خصوصا بعدما اغتاظ من زجرك إياه، فما أديت فريضة عدلك ، ولا قضيت حق نصفتك ـ وحاشاك أن تكون متهاونا في الحق ، متقاصرا[٢٤٠] في العدل ـ

المسودة الرابعة (تنقيح للمسودة السابقة[٢٤١])

مولاي ،

المدح إبانة خلة كريمة مكتومة ، والوصف إظهار خليقة غير معلومة . وأنت بكل فضيلة موصوف ، وبكل مكرمة معروف . فلا أكدح في ثنائك ، ولا أدأب في مدحك . كيف ، وقد وقف في مقامك منطق الفصحاء . وإنما أقول أنك في القطر المصري لكل البرية أمان ، وبك قامت دعامة الحرية ، تحب كل خير بجبلتك ، وتسعى اليه ، وليس لك من الظالمين أخدان . وأنت الفرد الذي لا ترضى بالظلم أينما حل ، وتأبى الجور الأقل والأجل . ولكن ، مع ما أنت فيه يامولاي وعليه من حب الإنصاف ، وبغض الحيف والاعتساف ـ أنت الذي بِعدلك وترتني ، وأنت الذي قتلتني نصفتك[٢٤٢] ..

إن عدلك نهر عثمان باشا حماية عني ـ ونهاه وزجره عن تهمتي ـ ولكن أبت النفس الخبيثة إلا الشر ، فاختلق أقوالا ، وافتعل أكاذيب ، وبلغها سمع الخديو ـ والخديو بلا روية ، ولا إجالة فكرة ، أمر بطردي من الديـار المصرية ظلما وجورا ـ فإن ، أنت يا مولاي بعدلك لا تأخذ ثأري ، مع علمك بأني كنت بريئا من كل تلك التقولات التي نسبها إلي عثمان باشا ، خصوصا بعدما اغتاظ من زجرك إياه ، فما أديت فريضة عدلك ، وما قضيت حق نصفتك ـ وحاشاك أن تكون متهاونا في الحق ، متقاصرا في العدل .

ـ ثم يا مولاي ، ها أنا ذا اليوم في القنال أذهب ، صفر اليدين ، إلى

---

(٢٣٩) تليها عبارة مشطوبة ، هي « عثمان باشا هذا »

(٢٤٠) جاءت كلمة « متقاصرا » فوق كلمة « متهاونا » المشطوبة .

(٢٤١) جاء في هذه المسودة كثير من الشطب والتعديل . ولكننا سنكتفي بغير المشطوب ، او بالتعديل على وجه ادق .

(٢٤٢) كلمة غير واضحة .

لنـدن ، ومنها إلى باريس . وأرسلت خادمي (العارف) إلى جنابكم ، جناب الرحمة والعدل ، وإلى صاحب الدولة رياض ، لقبض أموالي وكتبي وشهريتي التي بقيت على الحكومة . والثقة بكم وبه ، والاعتماد عليكم وعليـه ـ ولا تنس يا مولاي أني مقتول بسيف حمايتك. ولا تَذْهَل عن فضلك وعدلك.

والسلام

هامش :

ولا تنسى يا مولاي أن ديتي عليك ، لأن ذاك الخبيث ما قتلني بسيف عدوانه إلا لأجل حمايتك عني وزجرك إياه .

رسالتان إلى ابن صديق

[في الفترة من ١٨٨٦ إلى ١٨٩١ زار الأفغاني إيران مرتين ، بدعوة من الشاه مرة ، ومن رئيس وزرائه مرة أخرى . وكان قد انقطع عن إيران فترة طويلة . ولكنه حين عاد إليها ارتبط بعلاقة صداقة متينة مع الحاج محمد حسن أمين الضرب ، أي المسئول عن دار سك العملة في طهران . وكان الرجل من كبار أصحاب النفوذ في إيران ، وأحد كبار تجار عاصمتها . وقد اقام الأفغاني في بيته خلال زيارته الأولى في الفترة من ١٨٨٦ إلى ١٨٨٧ . ثم سافر معه في رحلة إلى روسيا بغرض التعاقد على إقامة خط حديدي في شمال إيران ، ولكن الغرض الحقيقي لسفر الأفغاني كان رغبة الشاه في إبعاده عن العاصمة بعد أن انتشر اثره بين الشباب والمثقفين .

ومع ذلك أقام الأفغاني في روسيا نحو عامين ، واطلع على أحوالها وصناعاتها .

ومع ذلك أيضا كان الأفغاني قد ارتبط بصداقة أبناء صديقه أمين الضرب ، ولا سيما أصغرهم ويدعى حسين . وكان الأفغاني يكنّيه باسم « فاضل » ، ويقربه إليه ، ويعلمه دروسا في أدب اللغة العربية وكتابة الرسائل بها . ولما سافر إلى روسيا راسله من هناك .

وقد بقيت من رسائل الأفغاني إلى « حسين » أو « فاضل » هذا الرسالتان اللتان يرجع تاريخهما إلى عام ١٨٨٩ .]

الرسالة الأولى

من مسكوف

٢١ يوليو

أيها الفاضل النجيب ،

بعد السلام عليك وعلى معوانك الحاج محمد ابراهيم ، وعلى الحافين حولك ، القائمين بخدمتك بصدق وخلوص ـ إن كتابك الظريف قد وصل . وسررت بما شف عنه من صفاء القلب ونزاهة السجايا ـ وزاد فرحي ما أخبرني به ميرزا نعمة الله من قيامك بإدارة أشغال التجارة وترتيب المعاملة ، وحل مصاعبها ، والنظر في دقائق نكاتها ، كأنك خلقت

لها ، وصرفت عمرا طويلا في إصلاحها ـ هكذا أملي فيك ورجائي منك ـ بارك الله عليك ـ وأنا في مدينة مسكوف . وبعد أيام أذهب إلى (بطرسبورغ) . وإن جناب الوالد في مدينة باريس ـ وبلغ سلامي واحتراماتي إلى والدتك المحترمة .

والسلام

جمال الدين الحسيني

الرسالة الثانية

٣٠ افرنجي
٥ شعبان

حبيبي الفاضل

جاءني منك كتاب سلكت فيه المسلك القديم ـ كأنك أخذت على نفسك أن لا تغير عادة ولا تبدل مشربا ـ أفما كان عليك أن تبث فيه خطرات قلبك ، وتنوعات حالات نفسك ، وتحولات قوى عقلك ، حتى يكون كتابك مرآة تحاكي ما تمثلت به في طيٍّ قناطر الحوادث التي طرأت عليك في مدارج السن ـ أفما كان عليك أن تبسط ما ترى عليه عالم دهرك بعد رشدك ـ بعد تغير نظرك ـ بعدما رأيت من الناس ما كان مخفيا عليك من قبل ـ وكيف ذهلت عن بيان أفكار ساكنيك في موطنك ـ ولم صمتَّ عن ذكر وقائع الدهر وحوادث الزمان ـ وأنا كنت أعلمك طرز تحرير الوقائع ليوم كهذا ـ ولابد أن تكتب إلي بعد مفصلا ، مشبعا ، تبين فيه ما أنت عليه وما عليه عالم دهرك . وتسلم على والدتك المحترمة . والسلام .

جمال الدين الحسيني

رسالة إلى محمد المويلحي

[عرف الأفغاني ابراهيم المويلحي اثناء إقامته بمصر. وتصادف أن التقيا بعد ذلك في أوربا بعد نفي الأفغاني ولحاق المويلحي بالخديو اسماعيل المعزول . وقد صحب المويلحي معه إلى أوربا ابنه محمد الذي أصبح له شان فيما بعد كواحد من رواد الرواية في ادبنا الحديث بكتابه المشهور « حديث عيسى بن هشام »

ويبدو أن محمد المويلحي (١٨٥٨ - ١٩٣٠) كانت قد أدركته حرفة الأدب وهو مع أبيه في أوربا . ويبدو أيضا أن الأفغاني قد اطلع على بعض محاولاته الأولى في الكتابة ، فاعجب بها ، وشجعه على المضي في طريق الأدب . وهذا ما حدث بعد عودة المويلحي إلى مصر مع أبيه عام ١٨٩٥ . فقد بدأ في نشر أعماله ، ومنها « حديث عيسى ابن هشام » ، في الصحيفة التي انشاها أبوه باسم « مصباح الشرق » عام ١٨٩٦ .

ولما نشر محمد المويلحي كتابه « حديث عيسى بن هشام » وضع في صدره رسالة من الأفغاني إليه ، تحمل تشجيع الأستاذ للتلميذ . ولا ندري تاريخ تحرير الرسالة ، ولكن أغلب الظن أن الأفغاني كتبها أثناء إقامته الأخيرة في تركيا في الفترة من ١٨٩٢ إلى ١٨٩٧ .]

حبيبي الفاضل

تقلبك في شئون الكمال يشرح الصدور الحرجة من حسرتها . وخوضك في فنون الآداب يريح قلوبا علقت بك آمالها . وليس بعد الإرهاص الخارق إلا الاعجاز . ولقد تمثلت اللطيفة الموسوية في مصر كرة أخرى[٢٤٣] ، وهذا توفيق من الله تعالى . فاشدد أزرها ، وأبرم بما أوتيت من الكياسة والحذق أمرها ، حتى تكون كلمة الحق هي العليا . ولا تكن كالذين غرَّتهم أنفسهم بباطل أهوائها ، وساقتهم الظنون إلى مهواة شقائها ، وحسبوا أنهم يحسنون صنعا ، ويصلحون أمرا . وكن عونا

للحق ولو على نفسك ، ولا تقف في سيرك إلى الفضائل عند عُجْبك .

لا نهاية للفضيلة ، ولا حد للكمال ، ولا مُوقف للعرفان . وأنت بغريزتك السامية أولى بها من غيرك . والسلام .

(٢٤٣) كان المويلحي في شبابه يعاني من مثل ثأثأة موسى عليه السلام . ويبدو أن هذا هو تفسير إشارة الافغاني .

٤

متفرقات

دعاء

[جاء هذا الدعاء بالعربية في إحدى أوراق الأفغاني الخاصة بالفارسية . وفي هذه الورقة ـ صفحة واحدة ـ كان يشكو من الناس والزمان اثناء إقامته في كابول بافغانستان في الفترة من ١٨٦٥ إلى ١٨٦٨ . ويبدو انه وقع ـ خلال تلك الفترة ـ في محنة نفسية ظهرت آثارها ايضا في بعض الرسائل التي كتبها بالفارسية للأمير دوست محمد خان ولي نعمته في ذلك الوقت .]

أنت المشتكي ياالله من أيدي الفاسقين . وأنت المرتجي ياالله من أيدي الظالمين . خلصني يارب من أيدي الفسقة ، الفجرة ، الكفرة ، بحق الكرام البررة .

إلهي ، عَظُم البلاء ، وبَرَّح الخفاء ، وخابت الأرض ، ومنعت السماء ، نعوذ بك من كيد الأعداء وشماتة الأحباء .

جمال الدين الحسيني الاستنبولي

طلب التحاق بأحد المحافل الماسونية في مصر

[أقام الأفغاني في مصر نحو ثماني سنوات في الفترة من ١٨٧١ إلى ١٨٧٩ . وفي السنوات الثلاث الأخيرة التي سبقت إبعاده من مصر شغل نفسه بالكتابة للصحف والخطابة والنشاط الماسوني .

ومع أن مصر عرفت الماسونية قبل قدوم الأفغاني إليها فقد نشطت المحافل الماسونية نشاطا لم يسبق له مثيل خلال تلك السنوات الثلاث ، نتيجة لازدياد عدد الأجانب الأوربيين في مصر ، وتردي الوضع الاقتصادي ، واستبداد الخديو اسماعيل . ووجد الأفغاني في الماسونية وسيلة اتصال بالجماهير ، شأنها شأن الصحف ومنابر الخطابة ، فاقبل على الإتصال بمحافلها التي كانت تحت سيطرة الأوربيين وقتها . وأغلب الظن ان ذلك قد تم وقت تحرير طلب الالتحاق التالي ، الذي يحمل تاريخ ٣١ مارس (آذار) عام ١٨٧٥ .

ومع أن الأفغاني لم يحدد في هذا الطلب اسم المحفل الذي رغب في الالتحاق به ، فمن المرجح أنه كان احد المحافل التي تتبع الإشراف الفرنسي . وقد نشط الأفغاني في هذه المحافل حتى آخر يوم في إقامته بمصر ، وكون لنفسه ومريديه محفلا خاصا حاول ان يلعب به دورا في عزل الخديو اسماعيل وتولية ابنه الخديو توفيق .]

يقول مدرس العلوم الفلسفية بمصر المحروسة جمال الدين الكابلي الذي مضى من عمره سبعة وثلاثون سنة بأني أرجو من إخوان الصفاء ، واستدعي من خِلّان الوفاء ، أعني أرباب المَجْمَع المقدس الماسون ، الذي هو عن الخَلل والزلل مصون ، أن يمنوا علي ، ويتفضلوا إلي ، بقبولي في ذلك المنتدى المفتخر .

ولكم الفضل
ربيع الثاني سنة ١٢٩٢
يوم الخميس ٢٢

تعقيب على معركة بين الماسونيين

[قبل أيام من خلع الخديو اسماعيل أقدم الأفغاني على تصرف جريء ، أثار انقساما بين الماسونيين في مصر ، وانشب معركة حامية بينهم . فقد ذهب ، ومعه سليم نقاش مدير جريدتي مصر والتجارة (كمترجم) ، إلى المسيو تريكو قنصل فرنسا بالقاهرة ، وأبلغه رغبة الوطنيين والماسونيين في عزل الخديو اسماعيل وتولية ابنه توفيق . وطلب من القنصل أن تعمل دولته على تحقيق هذا المطلب ، حتى لا تسوء الأمور وتؤدي إلى فتنة في البلاد . ونشرت جريدة « مصر » خبر هذه الزيارة في صفحتها الأولى يوم ٢٧ يونيو (حزيران) عام ١٨٧٩ ، بعد أن كان الخديو قد تنازل بالفعل .

ولكن هذه الواقعة أثارت بعض الماسونيين فاتهموا الأفغاني ورفاقه بإفساد الماسونية ، والانحراف بها عن طريقها الذي يبتعد عن السياسة . وقام أديب اسحق بالدفاع عن تصرف استاذه في مقال مطول نشره بجريدة مصر في ١٠ يوليو ١٨٧٩ .

في ٥ اغسطس (آب) ١٨٧٩ نشرت جريدة « التجارة » التي كان يحررها اسحق ايضاً كلمة للأفغاني نفسه تعقيبا على ما حدث . وقدمت الجريدة الكلمة بهذه العبارة :

«بعث إلينا بالنبذة الآتية مولانا الفيلسوف، مهبط اسرار الحكمة، استاذنا السيد جمال الدين افندي، فنشرناها امتثالا لأمره، لا زالت عين الوجود به قريرة».

وهذا نص التعقيب الذي يعد اخر ما نشره الأفغاني بمصر . فقد قبض عليه في ٢٤ اغسطس (آب) ١٨٧٩ ، وتم ترحيله إلى الهند في ٢٦ اغسطس . وقد وقع التعقيب باسم « جمال الدين »]

جناب الأجلّ المحترم

لقد اطلعت في بعض الجرائد التي تطبع في القطر المصري على نبذ تتعلق بأمر زيارتي لجناب المحترم الموسيو تريكو قنصل دولة فرنسا الفخيمة ، وجنرالها في مصر . فرأيت أن أكتب العبارة الآتية بيانا

للحقيقة ، وإصلاحا لما وقع من الشطط في تلك النبذ ، راجيا من حضرتكم نشرها في جريدتكم الوضيئة . وهي :

إن المصريين عموما ، والحزب الحر خصوصا ، الذي من ضمنه جماعة الماسون من أبناء الوطن ، قد كانوا غير راضين عن هيئة حكومتهم السابقة . وكانت جميع أمانيهم حصر الخلافة الخديوية في سمو ولي العهد . ولأجل إيضاح هذه الأماني التي من شأنها أن تولي الشرف لكل وطني حقيقي ، قد كلفت بالذهاب إلى سعادة الجنرال المشار إليه . فأبنتها له ، صريحة بدون مواربة . على أني الآن مع مستنيبي نعلم أننا نأخذ على أنفسنا تبعة ما قمت به من بيان تلك الأماني لدى سعادة الجنرال .

ثم إنه تبين ، مما تقدم ، أنني لم أذكر قط المحافل على وجه العموم ، ولا خصصت واحداً منها بالذكر ، ولا ادعيت النيابة عنها مطلقا .

هذا ، ومن المعلوم أن سياستنا الداخلية ، من حيث هي لا تهم الأجانب ، ولا من انتمى إليهم ، فلا توجه الخطاب إليهم . وأما الوطنيون فمن كانوا مشاركين لنا في أمانينا التي أبنّاها، فليس لهم أن ينتقدوا علينا فيما فعلنا . ومن كانوا منهم معارضين لنا فيها ، ومتخذين سياسة مخالفة لسياستنا فهم أحرار في أفكارهم . إنما يلزمنا أن نحسبهم حزبا مقاوما للهيئة الوطنية القانونية الرسمية . فعلى الحكومة حينئذ أن تراقب حركاتهم وسكناتهم ، حفظا للراحة العمومية ، وسدا للخلل .

وعلى الله الاتكال في الحال والاستقبال .

أبيات عربية في قصيدة فارسية

[جاءت هذه الأبيات العربية ضمن أطول قصائد الأفغاني الثلاث ، وهي قصيدة من ٨٢ بيتا بعنوان « ساقي نامه » ، أي « كتاب الساقي » . ومن المحتمل أن يكون قد كتبها في إيران أثناء زيارته لها عام ١٨٨٦ . وهي تجري على منوال القصائد الفارسية في التصوف عند شعراء مثل عمر الخيام .

ومن الملاحظ في الأبيات العربية ، التي تضمنتها القصيدة ، أنها قلقة الوزن والقافية . فهي من « المزدوج » الذي يأتي فيه كل بيتين بقافية واحدة ، فضلا عن أنه كتبها من بحرين مختلفين . وليس من المعروف سر تضمينه إياها في القصيدة الفارسية]

بيانك سحر وشعرك حكمة ... كلامك در وعلمك نافع[٨٥]
كتابك بحر وقولك جوهر ... وأمرك حكم وسيفك قاطع[٨٦]

رداؤك فضل وتاجك غرة ... عباؤك فخر وحكمك نافذ
وكفك جواد وعزمك ثابت ... وعقلك دارك وفكرك حائذ

تخلقت بالخلق العظيم المكرم ... وتوجت بالعلم الجليل وبالفضل
فأنت أحق الناس قدرا ومرتبة ... لشغل الإمارة والحكم بالعدل

بلغت نهايات العلى في القبائل ... وفزت لغايات النهى والفضائل
وأعطاك تاج الفخر ربُّ البرية ... وأوهبك فضلا مثل فضل الأوائل

---

(٢٤٤) جاء على صورة اخرى هي : ونثرك إعجاز ونظمك ساطع .
(٢٤٥) جاء البيت كله بصورة اخرى هي : عطاؤك موفور وكفك باذل .. ورايك إلهام وسيفك قاطع .

المصادر

أ. مقالات

١ ـ المخاطبة بين الانسان والهرة
جريدة أبو نظارة زرقا . ٢١ اكتوبر ١٨٨٩ . ص ١
٢ ـ البيان في الانجليز والافغان
Homeward Mall. Nov 30, 1878, PP 1321 -1325
٣ ـ رد على رد
جريدة مصر . ٢٨ نوفمبر ١٨٧٨ . ص ٣
٤ ـ العلة الحقيقية لسعادة الإنسان
جريدة مصر . ١٥ نوفمبر ١٨٧٨ . ص ص ٣ ـ ٤٥
مجلة المنار . ع ا م ٢٣ (٢٨ يناير ١٩٢٢) ص ص ٣٧ ـ ٤٥
٥ ـ الحكومة الاستبدادية
جريدة مصر . ١٥ فبراير ١٨٧٩ ص ص ٣ ـ ٤
مجلة المنار . ٤ نوفمبر ١٩٠٠ . ص ص ٥٧٧ ـ ٥٨١ ، ١١ نوفمبر ١٩٠٠ .
ص ص ٦٠٦ ـ ٦٠٧
٦ ـ دائرة المعارف
جريدة مصر . ٢٥ ابريل ١٨٧٩ . ص ٣
٧ ـ خطبة زيزينيا
جريدة مصر . ٢٤ مايو ١٨٧٩ . ص ص ١ ـ ٢
٨ ـ السياسة الانجليزية في الممالك الشرقية
مجلة المنار ج ١٠ م ٢٥ . ص ص ٧٥٦ ـ ٧٥٧
٩ ـ اسباب الحرب بمصر
مجلة المنار ج ١٠ م ٢٥ ص ص ٧٥٨ ـ ٧٦٠
١٠ ـ نبذة من مناظرة خيالية
مجلة المنار ج ا م ٢٦ . ص ص ٤٤ ـ ٤٥
١١ ـ رسالة إلى البصير ومحررها خليل غانم
جريدة البصير ، ٨ فبراير ١٨٨٣ ص ١
مجلة المنار ج ا م ٢٦ ص ص ٤٥ ـ ٤٦
١٢ ـ الشرق والشرقيون
جريدة أبو نظارة زرقا ، ٩ فبراير ١٨٨٣ ص ص ١ ـ ٣
جريدة البصير ، ١٥ ـ ٢٢ فبراير ١٨٨٣ ص ص ١ ـ ٢
مجلة المنار ج ٧ م ٢٥ ص ص ٥٣٥ ـ ٥٣٩ ، ج ٨ م ٢٥ ص ص ٥٩٣ ـ ٥٩٨
١٣ ـ الحق والباطل : أو نتائج سياسة الانجليز في مصر
جريدة البصير ، ٥ ابريل ١٨٨٣ ص ١
١٤ ـ منافع الوفاق ومضار الشقاق
جريدة البصير ، ٢٦ ابريل ١٨٨٣ ص ١
١٥ ـ الانجليز في الهند ومصر
جريدة البصير ، ٣ مايو ١٨٨٣ ص ١
١٦ الإسلام والعلم
جريدة البصير ، ٣ مايو ١٨٨٣ ص ٢

١٧ ـ احوال فارس الحاضرة
مجلة ضياء الخافقين ، فبراير ١٨٩٢ ص ٨
١٨ ـ بلاد فارس
مجلة ضياء الخافقين ، مارس ١٨٩٢ ص ص ١٤ ـ ١٦
١٩ ـ ظلامة الأمة وضراعة الملة
مجلة ضياء الخافقين ، ابريل ١٨٩٢ ص ص ٣١ ـ ٣٣
٢٠ ـ الفقه الإسلامي
مجلة ضياء الخافقين ، ابريل ١٨٩٢ ص ٣٠
٢١ ـ الحجة البالغة
مجلة ضياء الخافقين ، يوليو ١٨٩٢ ص ص ٥٠ ـ ٥٢
٢٢ ـ كتاب تذكار العالم الاسلامي
مجلة ضياء الخافقين ، يوليو ١٨٩٢ ص ٧٢

ب ـ كتاب

٢٣ ـ تتمة البيان في تاريخ الأفغان
طبعه علي يوسف الكريدلي ، مطبعة الموسوعات ، القاهرة ، ١٩٠١

ج ـ رسائل

٢٤ ـ مسودة رسالة إلى رياض باشا
أصغر مهدوي وأيرج أفشار : مجموعة أسناد ومدارك جاب نشده درباره سيد جمال الدين ، مشهور به أفغاني ، منشورات جامعة طهران ، طهران ، ١٩٦٣ ، تصوير ٣٤ ـ ٣٧
٢٥ ـ اربع رسائل لمسودات اخرى
المصدر نفسه ، تصوير ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٨
٢٦ ـ رسالتان إلى ابن صديق
المصدر نفسه ، تصوير ١٩٥ ، ١٩٧
٢٧ ـ رسالة إلى محمد المويلحي
محمد المويلحي : حديث عيسى ابن هشام ، ط ٣ ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٢٣ ، ص ص ٤ ـ ٥

د ـ متفرقات

٢٨ ـ دعاء
مهدوي وأفشار ، مصدر سابق ، ص ٩
٢٩ ـ طلب التحاق بأحد المحافل الماسونية في مصر
المصدر نفسه ، تصوير ٤٠
٣٠ ـ تعقيب على معركة بين الماسونيين
جريدة التجارة ، ٥ أغسطس ١٨٧٩ ص ٢
٣١ ـ أبيات عربية في قصيدة فارسية
مهدوي وأفشار ، مصدر سابق ، ص ٨٦

كتاب

تتمة البيان في تاريخ الأفغان

تأليف

السيد جمال الدين الأفغاني

اعتنى بتصحيحه وطبعه على نفقته

علي يوسف الكريدلي

صاحب ومحرر جريدة العلم العثماني

الطبعة الاولى بمطبعة الموسوعات بباب الخلق بمصر

« سنة ١٣١٨ هـ — و ١٩٠١ م »

صورة غلاف الطبعة الثانية لكتاب الأفغاني المجهول